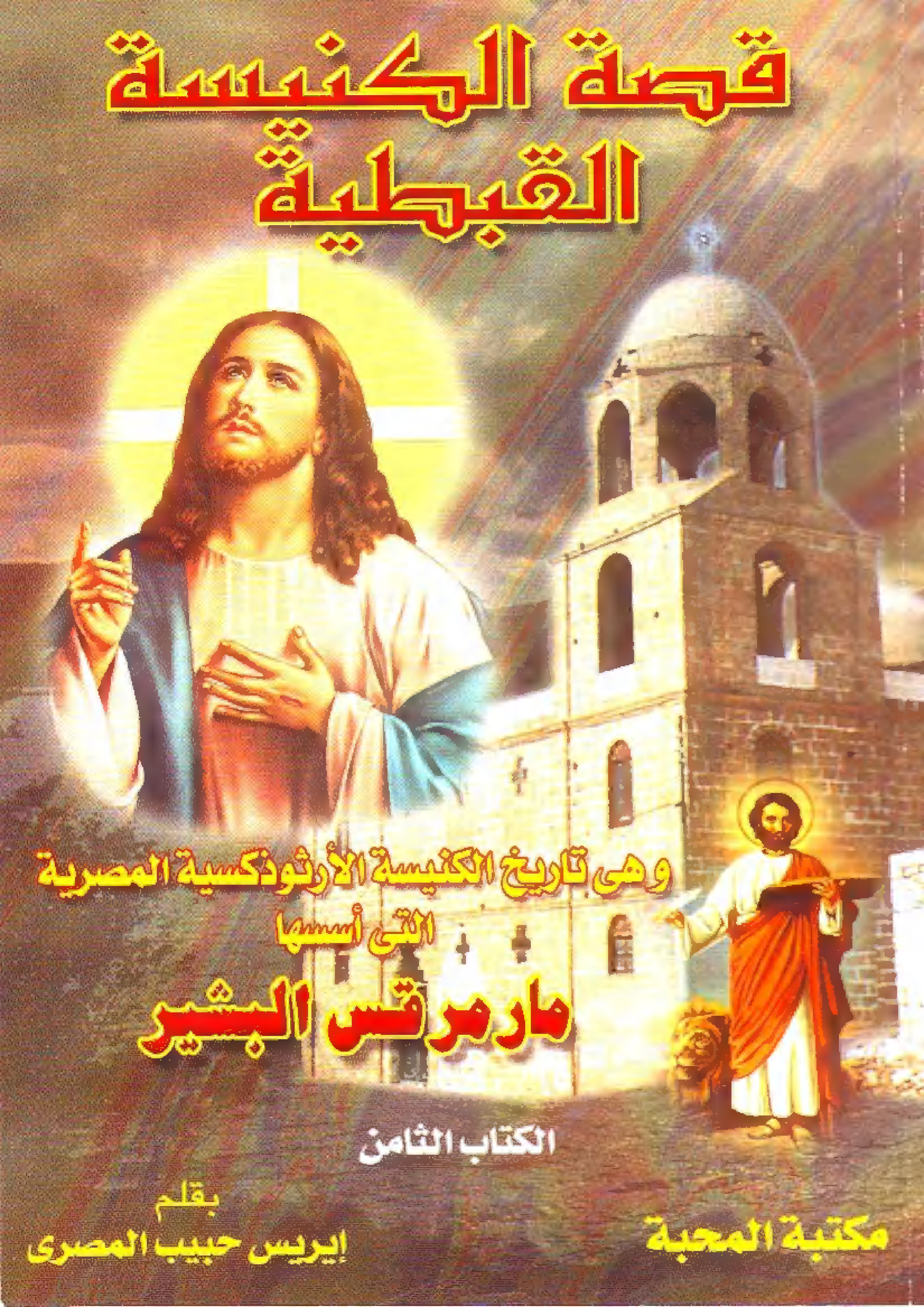

قصة الكنيسة
القبطية
وهى تاريخ الكنيسة الأرثوذكسية المصرية
التى أسسها
مارمرقس البشير
الكتاب الثامن
بقلم
إيريس حبيب المصرى
مكتبة المحبة

قصة
الكنيسة القبطية

الكتاب الثامن

و هذا العجب فى تاريخنا[1] !

إيريس حبيب المصرى

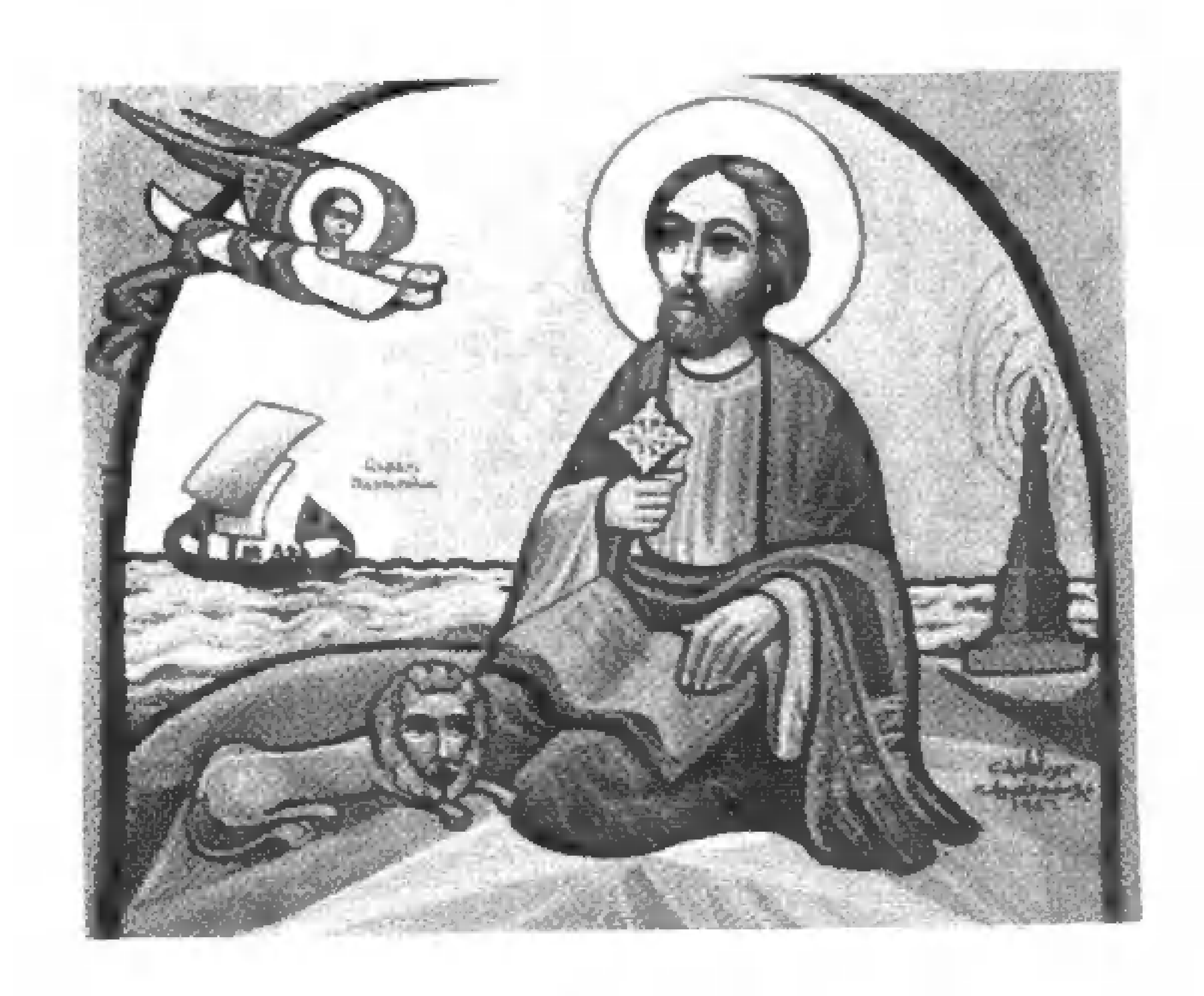
---

(١) شكراً للبابا الكبير كيرلس عامود الدين لقوله مخاطبا الكلمة المتجسد فى صلاة القسمة " و هذه العجب فى اتضاعك " : فأوحى لى بهذا التعبير أن رب الكنيسة اللى جعل منها جسده السرى قد أضفى عليها عجبه أيضاً.

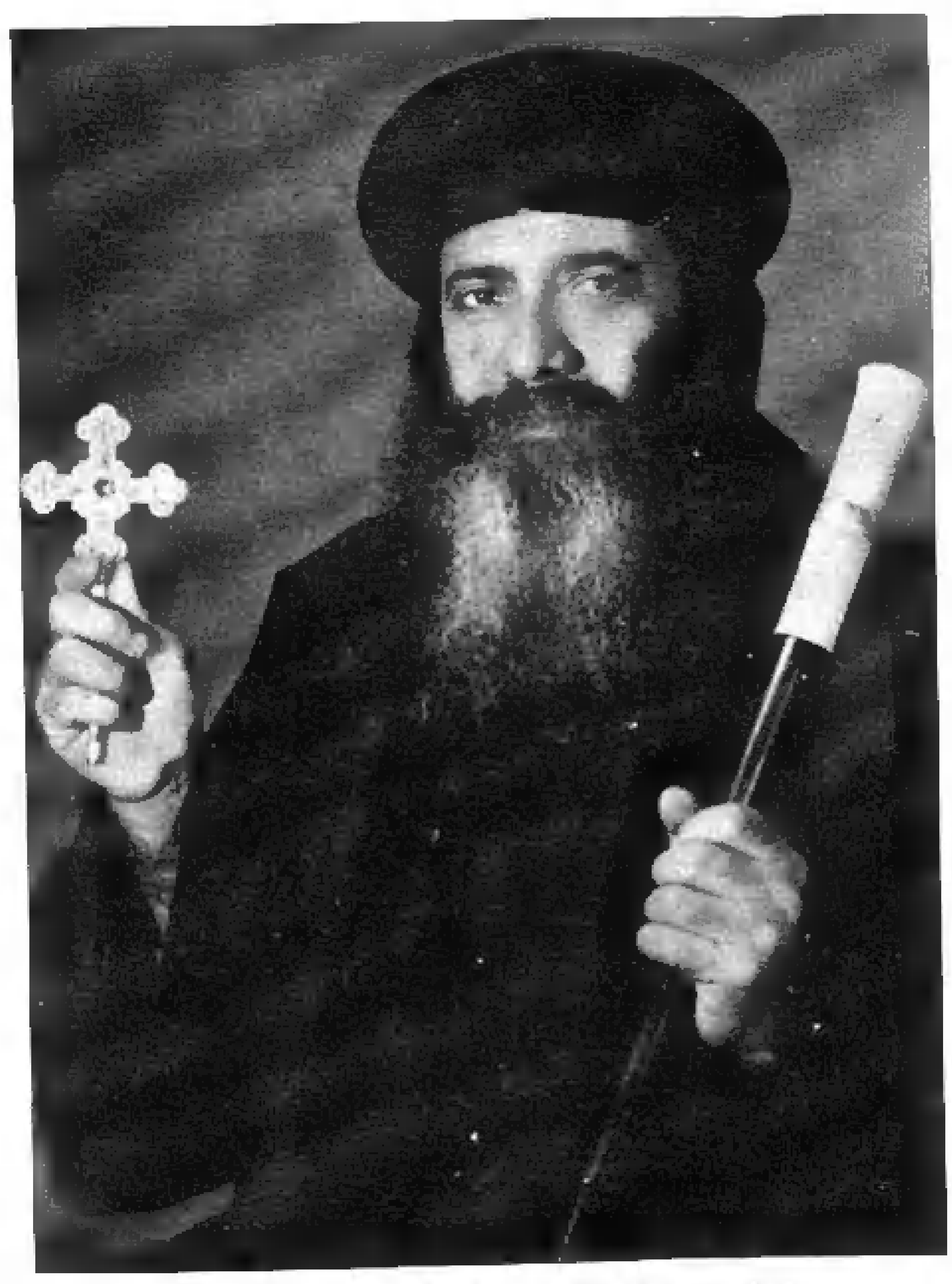
مصر



سحيقة فى القدم



عريقة فى الوفاء



قداسة البابا المعظم **الأنبا شنوده الثالث**

الإهداء

إلى روح مصر الوثابة

التى جالدت الزمن ،

بقوة باريها

الذى هو حاميـــها



حلو هو
حب الوطن

● لما المؤذن يؤذن
لما يرن الجرس
● تسكت جميع
الاصوات .. واللسان
يخرس
● لان صوت الاله ..
هو العين والجرس
● واللي يزرع خير
● يحصد خير
● واللي يغرس شر
● أعوذ بالله من شر
ما غرس .. !!!
بيكار

الأخبار ١٩٨١/٩/٢٥

إن كل طفل يولد هو رسالة من الله تنبئ بأنه لم ييأس من البشرية بعد



الصليب
من الوجهة القبطية
مصدر الحياة و النور



الأنبا أرميا أبو رهبان دير سقارة (القرن السابع)

إلى القارئ العزيز

هذه لمحة جديدة عن المؤرخة قبل أن تكون صفحة جديدة مضافة للتاريخ ، حيث تبرز فيها سمات المؤرخ الدؤوب الذى لا يكف عن الإضافة . و الوثائق لا ترد سائلا عن الإستزادة ، فبطون الكتب و أعماق الرمال و الآثار مليئة بكل جديد لكل قديم .

و هذا العدد الجديد من هذا المعجم التاريخى الفريد يتميز باللمسات الحية المتفجرة من قلب قبطى يحكى قصة كنيسة و وطن فى صراعهما تجاه المستعمر فوق صراعهما تجاه الزمن .

و كان حينما يهدأ قلب الكاتبة من الغليان بالشعور الوطنى تعود إلى الفن القبطى لتبرز منه لمحات الأصالة الروحية المتجذرة فى العرق القبطى و التى لا تمت إلى البعد الزمنى حيث يتعانق اللا محدود بالمحدود ليرتفع الإنسان فوق ذاته .

و لعل أشد ما استهوى المؤرخة فى هذا العدد من مجلدها الثمين هو الدفاع المتحمس عن المرأة و الزهو بمواقفها الفريدة فى الكنيسة و الوطن ، و التمسح بالعذراء القديسة مريم باحتسابها مفخرة لبنى جنسها . و لا مانع فهى كذلك و أكثر !

و لقد سجلت المؤرخة فى ملحق سجلها التاريخى هذا قصة حياة مشاهير القديسين المعاصرين : أساقفة و كهنة و مرتلين عمالقة مع علمانيين أتقياء فنانين و علماء ، فجعلت من قصة حياتهم قصة الكنيسة ، و هذا حق ، فقد عاصرناهم عن قرب و نشهد لتقواهم بالصدق .

و لقد أبدعت المؤرخة فى وصفها للأيقونة القبطية عندما رأتها حضرة روحية لا يستشفها إلا الروحيون . و الفن القبطى فى مجمله رأته فيضا

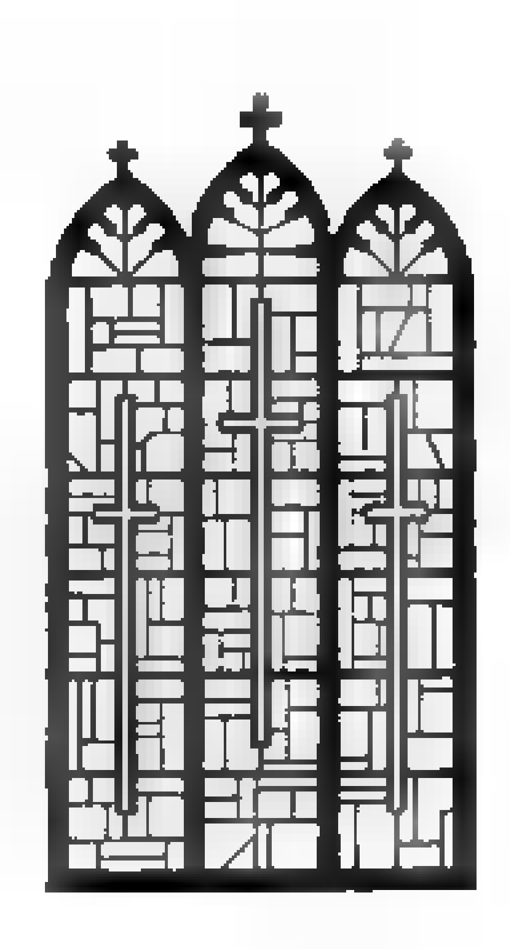
من الروح ينبع من العمق فى تلقائية غير متأثرة بالخارج حيث لا يعدو الخارج إلا أن يكون مجرد إطار . كما حققت المؤرخة بالأدلة المقنعة حضور فننا القبطى فى فنون أوروبا ، خاصة أيرلنده ، و ذلك منذ القرن الرابع ، و لم يكن حضوره إضافة بل كأساس .

كما حققت مؤرختنا ما يميز صليبنا عن صليب بيزنطة و كل الغرب بغياب رسم المسيح عليه ، إذ اعتبر الأقباط أن بقاء المسيح مرسوما على الصليب يظل يعبر عن دوام الإنكسار ، مع أن انكسار المسيح عليه كان مؤقتا ، لذلك أخلى الأقباط صليبهم من رسم المسيح عليه ليصير الصليب علامة الإنتصار .

بقى أن ألفت النظر إلى ما يميز هذا الملحق عن الأعداد السبعة السالفة و هو النبرة الروحية العالية التى إرتفعت إليها الكاتبة فجأة فى كل ما امتد إليه وصفها و كأنها وقفت على أصابعها تستوحى ختام أعمالها من أعلى السموات .

الأب متى المسكين

الفهرس



مقدمة

إن الباحث مهما قرأ و مهما بحث لن يستطيع بحال ما أن يجمع كل المعلومات اللازمة لبحثه لأنه مقيد بطاقته و إمكانياته . و هذا الواقع إتضح لى صراحة على مدى السنوات التى انقضت فى " تفتيش الكتب " .

و من المعلوم أن مسيرة التاريخ لا تتبع خطا تصاعديا مستمرا ، إنما التاريخ يسير فى طريق به الكثير من المنحنيات و المنخفضات المضنية ، شأنه فى ذلك شأن مسيرة كل شخص فى هذه الحياة . على أنه يجدر بنا أن نعرف أن فترات الركود ليست أقل قيمة من غيرها بشرط الإستفادة من سلبياتها . و تاريخ مصر يجمع بين فترات من الركود و فترات من الهدير و الفوران .

و مصر لا تتكون من طمى النيل فقط ، ولا هى أفريقية بحكم جغرافيتها و حسب ، و كيانها يغتلى من مدخرات غائرة فى العمق . فجذرها الأفريقى مطعم لوقه بمؤثرات سرت إليه من شعوب البحر الأبيض المتوسط . فمصر لا هى سوداء و لا هى بيضاء بل هذا و ذاك معا ، قبطية و عربية بآن واحد ، فرعونية التجذر ، أوروبية التحضر ، منفتحة على كل الأجواء ، و لكنها حساسة إزاء التفاعلات [1] .
و على مدى التاريخ الطويل توالت عليها أحقاب تبادل فيها النور الساطع مع الغيم القاتم، فنعمت بعصور الإستنارة كما عانت من عصور الظلام . و لقد استطاعت مصر أن تمتص كل العناصر التى اكتنفتها لتخرج دائما بوحدة شخصيتها المتميزة و المنفردة فى ملامحها [2] .

---

(١) و قد عبر عن واقعها العجيب مسيو فينشر (فرنسى كان مديرا للبنك العقارى - الإسكندرية الآن) فقال :

" L'Egypte, c'est le pays de nuances "

(٢) لى صديقة إنجليزية إسمها برنا كورفيلد كانت تعمل مدرسة فى كلية البنات بمدراس (بالهند) قالت لى : " حين كنت ذاهبة إلى وطنى لإجازة الصيف (عن طريق البحر) و أصل إلى القاهرة أقول " قد وصلت إلى الغرب " . و فى عودتى لاستئناف عملى و أصل إلى القاهرة أقول " قد وصلت إلى الشرق " .

و لا تزال هى نفس المسألة المطروحة الآن أمامنا كما كانت منذ الدهر : إلى أى مدى يمتص الشعب فى مصر كل المتغيرات و يستوعبها لتدخل كيانه ليخرج منها موحد الفكر محدد الإتجاه كما كان فى الماضى .

و لو أننا تمعنّا فى الأحداث لوجدنا البؤس ينعكس على مصر دون أن يخدشها : فمصر و إن خسرت مرارا لا تخسر نفسها أبدا ، فهى صامدة دائما أبدا تشهد لها آثارها الشامخة ، فمصر عجيبة فى وحدة ملامحها ؛ وفورة فى تجذر تاريخها ؛ ذات اعتبار من واقع سياستها و قيمة تجارتها . و مما يعيننا أن نتمعنها على ضوء أقوال أشعياء النبى لأننا حينذاك لن نكتفى بترديد قوله : « مبارك شعبى مصر » بل سنذكر أيضا كلماته : « الغلمان يعيوّن و يتعبون و الفتيان يتعثرون تعثرا . أما منتظرو الرب فيجدّدون قوة . يرفعون أجنحة كالنسور . يركضون و لا يتعبون . يمشون و لا يعيون [١] » . و على ضوء هذه الكلمات المليئة بالتشجيع نتيقن من أن فترات الركود لم تكن فى واقعها ركودا ، إنما كانت إنطواء على الذات و إلتقاطا للأنفاس إستعدادا لترقّب جديد دائما .

و مصر تعتز دائما بألفة شعبها و وحدة عناصرها ، و هى فى ذلك تتفوق على جميع أمم العالم . كما تفخر مصر بالتقييم الكريم الذى نالته المرأة منذ عصورها السحيقة [٢] . فالمرأة كانت دائما قلب الأسرة النابض ، و حاملة الشعلة فى الدولة ، فملكات مصر الفرعونية تحكى عن مدى ما ارتفعت إليه المرأة .

و هنا يكمل فى مصر قول أشعياء النبى : « و السيد الرب يعيننى لذلك لا أخجل [٣] » .

---

(١) أشعياء ٤٠ : ٣٠ - ٣١ .

(٢) راجع كتاب " وقائع أعجب من الخيال " للمؤلفة .

(٣) أشعياء ٥٠ : ٧ .

وقفة للعرفان بالفضل :

و الفضل هو فضل الله الذى أنعم به على مصر بزيارة السيد المسيح صبيا إلى أرض مصر . كان هروبا من بطش هيرودس و لكنه صار بركة غامرة لبلادنا المحبوبة . لقد نالت مصر بركة الأقدام المقدسة التى تنقلت بين ربوعها من شمالها إلى جنوبها . و هذا ما سبق أن تنبأ به أشعياء النبى بقوله : « فى ذلك اليوم يكون مذبح للرب فى وسط أرض مصر و عامود للرب عند تخمها »[1] . ألا يعنى هذا أن بركة الله شملت وسط البلاد حتى كل تخومها .

و لقد حدث أثناء تجول العائلة المقدسة أن سمع رجل إسمه ودامون الأرمنتى أنهم وصلوا إلى الأشمونين . فدفعه تطلعه نحو المسيا إلى أن يذهب ليمتع قلبه برؤية " الملك المرتقب " . و بما أن رب المجد قد أعلن أنه لا يرد كل من يأتى إليه فقد منح ودامون تحقيق تطلعاته : فرآه و سجد له . و خلال هذه الزيارة أعلمه السيد المسيح بأن بيته سيصبح كنيسة .

و فى أثناء غيابه سأل عنه بعض الأصدقاء فأخبرهم أهل بيته بسفره و بالغرض الذى سافر من أجله . فلما عاد ودامون من رحلته قصد إليه هؤلاء الأصدقاء و أخذوا يستفسرون منه عما رآه . فاندفع بحماسة فرحته إلى وصف مشاهداته . ثم أكد لهم فى النهاية بأن هذا هو " إبن الإنسان "[2] " الملك البار الذى لن ينقذ مصر وحدها بل إنه سينقذ العالم بأسره .

و استمعوا إليه فى ذهول . و انفتحت قلوب البعض منهم بينما غلظت قلوب البعض الآخر . فذهب الفريق الثانى و أبلغ الوالى الرومانى بما أكده ودامون . و رأى

---

(١) أشعياء ١٩ : ١٩ .

(٢) هذا اللقب قد استعمله الكاهن الفرعونى نفروهو سنة ٢٠٠٠ ق.م. ، راجع " مصبحنا فوق الزمان " للمؤلفة المقدمة و ص ٢٦ ، و هذه التسمية لم يذكرها غير دانيال النبى ٧ : ١٣ - و هو قد عاش فى القرن السادس ق.م. ، أى أن الكاهن نفروهو قد سبقه بأربعة عشر قرنا .

هذا الوالى فى الوليد خطرا على قيصر و مملكته . فاستحضر ودامون و بعد ما استجوبه و رأى إصراره على يقينه من أن ذاك الذى رآه هو الملك الذى طالما تطلعوا نحو مجيئه أمر بقطع رأسه كى لا يسرى اقتناعه إلى غيره . و هكذا نال إكليل الشهادة و رب المجد ما زال طفلا هاربا لاجئا إلى بلادنا ! فصدق عليه قول بولس الرسول : « هؤلاء ... لم ينالوا المواعيد بل من بعيد نظروها و حيوها و صدقوها ... » [١] و ودامون لم يحيها فقط بل دفع دمه تهليلا بتحقيقها . فابن مصر - ودامون الأرمنتى - هو فى الواقع الشهيد الأول لأنه سبق استشهاد استفانوس بسنوات غير قليلة [٢] .

تحية و إعزازا لهذا الشهيد المصرى الذى تناساه أهله مدى قرون !

١- مع مدرسة الإسكندرية : القرن الميلادى الأول

إن أوسابيوس القيصرى [أبا التاريخ الكنسى] قد أبدى ملاحظاته هو و عدد من الكتاب القدماء على كتابة فيلو الفيلسوف اليهودى الإسكندرى عن " المتأملين فى الإلهيات [٣] " يؤدى بنا إلى الإدراك بأنهم كانوا مسيحيين . و من كان فى شك فليتأمل كتابة فيلو مباشرة فيسمعه يقول : " بعد أن جعلوا الإعتدال الأساس المتين أخذوا يبنون عليه بقية الفضائل . فليس هناك واحد منهم يتناول طعاما أو شرابا قبل مغيب الشمس . و هم مقتنعون بوجوب قضاء اليوم فى دراسة الفلسفة ، و جزء من الليل

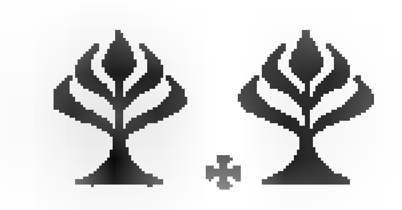
---

(١) عبرانيين ١١ : ١٣ .

(٢) كم هو جدير بنا أن نتمعن تراثنا القبطى الصميم لندرك مدى التفهم الروحى الذى تميز به بنو مصر - راجع " ماذا تعرفها " للمؤلفة و جـ ١ من هذا الكتاب ، الهامش على ص ٢٤٩ ، ص ٣٥٠ - ٣٥١ ؛ كذلك أعلن الله إشفاقه على مصر حتى عند إعلانه بأنه سيضربها إذ أكمل إعلانه هذا بقوله « ضاربا فشافيا » (أشعياء ١٩ : ٢٢) ، بل إن هناك أربع كلمات فى الوحى الإلهى يجب أن نملأنا فرحا و اعتزازا و هى : « كجنة الرب كأرض مصر » (تكوين ١٣ : ١٠) .

(٣) الكلمة الشائعة لوصفهم هى " ثيراوتاى - Therapeutae "

فى إعداد حاجات الجسد لمجرد ما يسد الكفاف . و بين هؤلاء الرجال الذين نتحدث عنهم عدد من النسوة يتزن بحكمة الحديث ، و غالبيتهن عشن عذارى مع كونهن بلغن الشيخوخة . و ليس ذلك عن اضطرار و لكنهن استهدفن العفاف التام نتيجة لرغبة ملتهبة ذاتية نحو الحكمة ... [٢] " و بعد تعبيرات و أحاديث مختلفة يتكلم فيلو بأكثر صراحة فيقول : " إن تفسيراتهم للأسفار الإلهية فى قالب التشبيهات و الإستعارات لأنهم يعتبرون هذه الأسفار كائنا حيا ، و كلماته المجردة بمثابة الجسد له بينما المعنى اللا مرئى المختبئ خلفها أشبه بالنفس . و هذا المعنى يجعل الهدف الأسمى لهؤلاء الناس التأمل و البحث - فهم ينظرون إلى الكلمات كأنما هم ينظرون فى مرآة ليجدوا المعنى الرائع الكامن فيها ... " !



و هناك عدد من الكتابات المتبقية عن هذا القرن المسيحى الأول - لا فى الإسكندرية وحدها بل فى مختلف المدن . فمثلا تمكن العالم الأثرى الفرنسى ماسبيرو من الحصول على برديات عثروا عليها فى الجبل شمال شرقى إخميم حيث توجد كنيسة هى البناء الوحيد المتبقى من دير قديم . و أشيق ما فى هذه البرديات

(٢) إن التغيير الذى حدث فى وجهة النظر إلى البتولية ما بين المسيحية و اليهودية تغيير جذرى إذ كان لقب " عذراء " فى العهد القديم فيه نوع من الإحتقار ! - راجع قضاة ١١ : ٣٧ - ٣٨ ، يوئيل ١ : ٨ ، عاموس ٥ : ٢ ، المراثى ٢ : ١٣ ؛ فى حين أن المرأة المثالية العليا فى مسيحيتنا هى العذراء المطوبة من جميع الأجيال .

أنها مكتوبة بلهجة ضاعت : كانت تجمع ما بين اللهجات المنفيسية و البشمورية و الطيبية . و يعتبرها ماسبيرو و زملاؤه من أعضاء البعثة الفرنسية للآثار حلقة الوصل بين الهيروغليفية و اللهجة الطيبية . فهي بذلك أول تحول عن الكتابة بالهيروغليفية و الخط المستعمل في هذه البرديات ، و استعمال كلمات معينة زالت و تلاشت تشير إلى قدمها البعيد [1] .

معظم ما سجله كاتبو هذه البرديات صلوات و شعائر تتخللها بعض أقوال الآباء . و ثمة نصيحة ممتازة يقدمها شيخ روحاني و هي : " إن صليبنا هو خوف الله . فكما أن المصلوب لا قدرة له على أن يتحرك و لا حتى على أن يوجه حركة أعضائه كيفما شاء ، هكذا نحن أيضا يجب علينا أن نخضع إرادتنا و رغباتنا لا إلى ما يسرنا في الحاضر و لكن تبعا لوصية ربنا و لما تحكم به علينا هذه الوصية . و البداية الصالحة لا تنفع شيئا إن لم تصل بنا إلى نهاية صالحة [2] .

٢- مع كليمنضس الإسكندري : القرن الميلادي الثاني

كتب المعلم الكبير كليمنضس الإسكندري يقول : " ما دام هناك كلمة واحدة تحمل معنيين هما الله ذاته و ما يقام لمجده ، فلماذا لا نعطي لذلك الهيكل المقام لتكريم الله إسم " البيت المقدس لله " ؟ إنه عمل ذو قيمة عظمى و ثمن غال لم تشيده يد مهندس و إنما جعله الله بتدبيره هيكلا . لذلك فكلمة " هيكل " لا أطلقها على المبنى فحسب و إنما أعبر بها أيضا عن كل مؤمن على حدة و على جماعة المؤمنين معا " .

---

(١) من " مذكرات البعثة الفرنسية للآثار " جـ ١ ، ص ٢٨١ ، طبعت بباريس سنة ١٨٨٥ .

(٢) عن كتاب بالإنجليزية لم يرد مؤلفه أن يذكر إسمه ، و عنوان الكتاب " النساك أو التقوى و الفضيلة البطوليتان لدى الرهبان الأولين " طبع في لندن سنة ١٦٩٩ م – ص ٣٧ ، ٤٢ – ٤٤ : " The Asceticks, or the Heroic Devotion and virtue among the Early Monks ", anonymous, pub. in London, 1696.

" ... إننا نرى بعيوننا كل يوم أنهار الدماء تسيل من الشهداء الذي ألقى بهم جند الإمبراطور سبتيموس ساويرس فى النيران أحياء ، أو أطاحوا برؤوسهم أو تطعوهم إربا إربا . لأن مخافة الرب لهم كانت بمثابة الحافز المنشط فدفعت بهم جميعا إلى السيد المسيح و علمتهم أن يشهدوا له بالإستشهاد " .

و بما أن كليمنضس الإسكندرى أورد هذه الكلمات فى كتابه " الستروماتا " ، و بما أن البحث العلمى أثبت أنه كتبه قبل سنة ٢٠٣ م ، فيجب أن نستنتج أن الإمبراطور سبتيموس ساويرس قد بدأ الإضطهاد منذ النصف الأول لحكمه ، و أن التعذيب و التقتيل تتابعا فى الإسكندرية حتى قبل الإعلان الرسمى للإضطهاد . و من الأشخاص الذين هز إسمهم الجماهير كما بهرتهم شجاعته العالم الكبير أثينوجين ؛ فقد صدر الحكم بإلقائه فى النار فمشى عالى الرأس يترنم بتسبحة حفظها تلاميذه و ظلوا يترنمون بها مدى سنين طويلة . و هناك شابة إسمها هيرانيسى تبعته و لم تكتفى بحفظ ترنيمته بل نالت إكليل الشهادة ، أو بالحرى بلغت معمودية الدم .

و يعلق مترجم أقوال كليمنضس الإسكندرى على أحداث تلك الأيام بقوله : " إن مصر كانت من أكثر البلاد خصبا فى تاريخ المسيحية . فالرجال و الأحداث و المنشآت جميعا كان لهم أثر بعيد إمتد إلى ما وراء حدود بلادهم ليؤثر على الكنيسة الجامعة . و لقد كانت مصر ، فى العصور المسيحية الأولى ، إقليما رومانيا . و مع أن الرومان حيثما دخلوا أدخلوا قوانينهم و أنظمتهم المدنية الخاصة ، إلا أنهم فى مصر تركوا الأوضاع على ما هى . و فى مصر بالذات عرفت المسيحية فترة من القوة تكاد تكون لا محدودة [1] .

و لقد اكتشف ماسپيرو ، فى أواخر القرن التاسع عشر ، مجموعة من الأشياء و المخطوطات أشيقها عدد من البرديات القبطية هى ست و عشرون ورقة : بعضها

---

(١) المترجم و المعلق هو الباحث الفرنسى لبكلير ، أورد ترجمته و تعليقه فى " قاموس الآثار و الليتورجيات المسيحية " جـ ٤ ، القسم الثانى ، عامود ٢٢٩٤ .

مكتوب باللهجة البشمورية [1] و البعض الآخر باللهجة الطيبية . و إحدى الورقات البشمورية تتضمن جزء من سفر الرؤيا غير متداول يذكره كليمنضس الإسكندري فى كتابه الخامس من " الستروماتا " و تقتطف منه ما يلى : " و قد حملنى الروح و صعد بى إلى السماء الخامسة فتأملت الملائكة المدعوين ' رئاسات ' . و كانت تيجانهم موضوعة فى الروح القدس . و كرسى كل منهم يسطع سبعة أضعاف الشمس المشرقة ؛ و هم يسكنون هيكل الخلاص و يسبحون الله العظيم اللا منطوق به . . . " و الخط فى هذه الورقة جميل جدا و الهوامش عريضة . و بما أن هذه البرديات كلها تتضمن رؤى و نبوءات فيمكن تقسيمها إلى قسمين :

١- ما يسرد الرؤى .

٢- ما يقدم التفسير لها .

و إحدى الوريقات المكملة لما ذكرت آنفا [مع أنها باللهجة الطيبية] تستكمل الحديث بالتفسير فتقول : " . . . فى تلك الأيام يقوم فى جهة الشمال ملك يسمونه ملك السلام . . . و سيقتل ملك الشر و ينتقم لمصر بالحرب و الدم . ثم يحدث فى تلك الأيام أنه يأمر بأن يسود السلام على مصر و كذلك راحة عظمى . و سيعطى السلام لمواضع القديسين . . . [2] " .

٣ أ - مع أوريجانوس : القرن الميلادى الثالث

كلنا يعرف أن شخصية أوريجانوس ما زالت موضوع جدال . و ليس من شك فى أن شخصيته تستحوذ على الفكر إلى حد أنها تظل حتى الآن موضوع الجدل أى بعد ما يزيد على ستة عشر قرنا على انتقالها من هذا العالم هى شخصية جبارة . و مما تركه أوريجانوس للأجيال المتعاقبة دون أن يضيع " رده على كلسوس الفيلسوف

---

(١) البشموريون هم المصريون الأقباط الذين كانوا مستوطنين فى شمال الدلتا و مركزهم كان إقليم البرلس الذى صار الآن بحيرة كبيرة معروفة بهذا الإسم . و قد رفضوا التسليم للعرب الذين غزوا مصر و ظلوا يقاومون ٢٠٠ سنة .

(٢) برديات إخميم للمستشرق الفرنسى أوريان بورياك ، ترجمها و نشرها فى " مذكرات لأعضاء البعثة الفرنسية للآثار " جـ ١ ، ص ٢٤٣ ، باريس سنة ١٨٩٢ .

الوثنى " . و هذا بعض ما جاء فيه : " إن عقيدة التجسد تفترض أن هناك صلة باطنية دقيقة بين الله و الإنسان ، و بسبب هذه الصلة يتمتع الإنسان بمكانة فريدة فى الكون . . . و من دلائل هذه المكانة إعلان الله بأن الجسد الإنسانى هو " هيكل الله " الذى يسكن فيه روح الله . و لم يكن اقتداء الإنسان فكرة ثانوية عند الله – كأنه ملحق لعمله الخلاق – إذ لم يكن هناك وقت لم يستهدف الله فيه السعى إلى توصيل الإنسان إلى كمال البر و القداسة . . . و إنه لواضح تماما لجميع الذين يمعنون التفكير أن الإيمان الخالص الممتزج بحسن النية عند البشريين قد ضاعفته المعونة الإلهية فمكنتهم من أن يبلغوا ما لم تستطعه البلاغة اليونانية بكل أساليبها الرشيقة و منطقها الرتيب . . . " ثم يضيف أوريجانوس إلى ذلك تنبيهه للمؤمن عامة فيقول : " و فى الحقيقة لا يعيش المسيحى الساعى نحو الكمال حياته بل المسيح هو الذى يعيش فيه ، لذلك نجسر أن نقول إنه ' شبه المسيح ' ! و جسارتنا تستند إلى قول الله فى البدء ' لنخلق الإنسان على شبهنا ' ، و ما دام المؤمن يسعى للتشابه بالسيد المسيح تسمع السيدة العذراء قول الرب المجد لها : ' هو ذا إبنك ' [1] " .

و ليس من شك فى أن كتابات أوريجانوس تعاوننا على أن نتفهم بعض سمات المجتمع الإسكندرى آنذاك . و منها نعرف أن الإستعارات و الرموز كانت لها مكان الصدارة ؛ و أن الروحانية كانت هدفا مرغوبا فيه جدا . و فى رده على كلسوس نجد بعض عبارات فيها شئ من الغرابة ، فمثلا يقول : " لست أشك فى أن كلسوس، أو اليهودى الذى يستخدمه أداة للتعبير عما يريده ، يسخر منى . و لكن هذا لا يمنعنى من القول بأن هنالك كثيرين اعتنقوا المسيحية تلقائيا إذ قد تحول قلبهم ما بين عشية و ضحاها من الكراهية إلى محبة العقيدة المسيحية محبة أوصلتهم إلى الإستشهاد . و نحن نعرف الكثير من هذه التغييرات ، و قد رأيناها بعيوننا ، و نشهد بحقيقتها . و لا داعى لأن نسردها إذ لن يؤدى هذا السرد إلا إلى إستخفاف غير المسيحيين الذين يستهدفون تحقير هذه الوقائع تقليلا

---

(١) " الأمومة الروحية للسيدة العذراء تبعا للكتاب المصريين " ، طبعة الجامعة الكاثوليكية الأمريكية ص ٣٠ و ٤٩ .

لشأنها . فيشيمون أنها أساطير إبتكرها خيالنا . و لكنني أتخذ الله شاهدا على صدق ما أقول . فهو له المجد يعرف أنني لا أريد أن أعزو إلى الحقيقة الإلهية التي لربنا يسوع المسيح قصصا مبتدعة . و إنما أقدم فقط الحقيقة الصراح المؤيدة بالأدلة التي لا تقبل الجدل " . ثم يضيف إلى ذلك قوله : " إننا لو تمعنا التقدم العظيم لانتشار الإنجيل في سنوات قصيرة على الرغم من الإضطهادات و العذاب و مصادرة الأملاك و الموت أيضا بالإضافة إلى قلة عدد الكارزين - لو تمعنا هذا كله لوجدنا الكلمة مسموعة من المتعلمين و الجهال و نجدهم كلهم قد التصقوا بتعليم الرب إلى حد أننا يمكننا أن نقرر بأن هذا نتيجة لقوة علوية [1] " .

و في تعليمه عن لاهوت السيد المسيح يقول أوريجانوس : " إن الله الكلمة جاء إلى العالم بالجسد الذي أخذه من السيدة العذراء ؛ ففيه ناحية رأتها العيون [2] و ناحية تفهمتها القلوب . و الناحية المرئية كانت واضحة للجميع [3] ؛ أما لاهوته فلم يُستعلَن إلا للمختارين . فالسيد المسيح هو الكلمة الذاتي و لكن الكلمة صار جسدا . إذن ففي السيد المسيح جوهر من فوق ، و الآخر إتخذه حين حل في الحشا البتولي . . . و لقد أدرك المجوس أن ربنا أعظم من آلهتهم جميعا فقرروا أن يعبدوه و جاءوا إلى اليهودية يحملون الهدايا ذات المعنى الرمزي و قدموها لذاك الذي نقول عنه إنه جمع بين الله الأبدي و الإنسان القابل للموت ؛ فقد قدموا له ذهبا بوصفه ملك ، و لبانا بوصفه الله ، و مرا بوصفه سيموت . و بما أنه الله المرتفع عن الملائكة الذين يخدمونه ، و بما أنه الفادي للناس ، فإن الملائكة سارعوا إلى نجدة المجوس ليمكنوهم من السجود له . ثم أعلموهم بعدم العودة إلى هيرودس . . . و لقد قال الله قديما : « ليكن نور » ، و قال المسيح : « أريد

---

(١) " قاموس الآثار و الليتورجيات المسيحية " حـ ٦ - القسم الثاني ، عامود ٢٤٠٥ - ٢٤٠٧ ، ٢٤١١ - ٢٤١٤ .

(٢) هذا ما يعلنه يوحنا الحبيب في مطلع رسالته الأولى ، و نرى في التعبير " تفهمتها القلوب " الترجمة المصرية الصحيحة ، لأن الكلمة الفرعونية للتفهم هي " فهم القلب " ، و قد ظلت هذه الكلمة في القبطية إذ هي " كات - هيت " (KATZHT) ؛ كات = فهم و هيت = قلب .

(٣) فقد شاء له المجد أن يعرّيه صالبوه تعرية تامة لكي يرى الجميع ناسوته علانية .

فاطهر » – فطهر الأبرص لوقته . كذلك نادى لعازر المُسجّى فى قبره تحت الصخر فلبى نداءه . و اقتضاب الجمل فى البشائر تعبير صريح عن سمو السلطان : إنها اللغة السهلة لعقل يرتكز على جلاله الذاتى و على فعله الإلهى . و الملائكة و الناس – جميعا – قد استُخدموا لتنفيذ الأحكام الإلهية . و لكن لم ينسَ أحد منهم نفسه و لا الخدمة الملقاة عليه ، و بالتالى لم يجرؤ على إجراء أعجوبة بإسمه الخاص أو تسليته الشخصية ، و لا بسلطانه الذاتى . و لم يتحدث أحدهم قط كأنه سيد الطبيعة . . . [1] " .

أما عن حديث أوريجانوس فيما يتعلق بما جاء فى ١ كورنثوس ١ : ١ – ٢ « . . . مع جميع الذين يدعون باسم ربنا يسوع المسيح » فيتلخص فى إعلانه " بأنه الله الذى يدعون بإسمه . فإن كان الدعاء بإسم الرب و عبادة الله شيئا واحدا إذن لكما أن الدعاء موجه باسم السيد المسيح كذلك وجبت له العبادة . فكما نرفع للآب صلواتنا و تسبحاتنا و تمجيدنا كذلك نرفعها كلها للإبن بالروح القدس ، لأن الأسفار الإلهية تعلمنا أن نكرم الإبن كما نكرم الآب " .

و يعود أوريجانوس فيقول فى صراحة : " فلنضرع من أعماق قلوبنا إلى الله الكلمة الذى هو الإبن الوحيد الجنس للآب لكى يمنحنا نعمة إعلان الآب لنا . . . فيا ربى يسوع المسيح إمنحنى أن أوجد مستحقا لأن يكون لى نصيب فى هيكلك . كم كنت أتمنى أن أقدم ذهبا أو فضة أو حجارة كريمة مع الأمراء ، و لكن أتمنى أن هذه الأشياء ليست فى متناولى فاجعلنى مستحقا على الأقل أن يكون لى وبر الماعز فى هيكل الله ، و أن لا أوجد فارغا غير مثمر بل بالحرى مثمرا . . . " .

كذلك يعلق على التقديسات الثلاثة بقوله : " إنهم غير مكتفين بقولهم ' قدوس ' مرة أو مرتين بل يرددونها بالعدد الكامل الذى للثالوث الأقدس ، و بها

---

[1] « وطول جسل من ثقب إبرة . . . » متى ١٩ : ٢٤ ، مرقس ١٠ : ٢٥ ، لوقا ١٨ : ٢٧ – و نرى هنا إلى أى حد تمكن الإيمان من قلب أوريجانوس مقابل التفسيرات العقلانية التى قدمها بعض المزعزعين بمقولهم إذ زعموا بأن هذا الإقتضاب مجرد رمز إقتضاء التفكير الشرقى !

يعلنون قداسة الله الفائقة . فهذه التسبحة ترديد متواصل لقداسة ثالوثية [1] " .

٣ ب - رسائل باباوية

أ - للأنبا ديمتريوس الكرام

كان هذا البابا العجيب ذا نظرة واسعة ، فلم يكتف بتعليم شعبه بل امتد ليرعى من هم خارج وطنه ، فنشط فى الكتابة إليهم الرسائل المدعمة للإيمان القويم . و هناك رسالة بعث بها سنة ١٩٦ م إلى أساقفة أورشليم و أنطاكية و رومية . كذلك تبادل الرسائل مع أساقفة فلسطين و صور و قيصرية الكبادوك . و قد هدف فيها كلها إلى التوافق للإحتفاء بعيد القيامة المجيدة فى يوم واحد سنويا . و الدليل على هذا الفرض نجده فى جملة وردت فى رسالة الأسقف ترسيصوس الأورشليمى هى : " نحن نعلن لكم بأننا نعيّد للقيامة المجيدة فى اليوم عينه الذى تعيّد فيه كنيسة الإسكندرية . و قد وصلتنا رسائلكم كما بعثنا لكم برسائلنا . و بهذا التبادل وصلنا إلى الإتفاق على التعييد معا " .

و لقد كانت الإسكندرية معتبرة مدينة علماء الفلك ، كما كا أسقفها فى منزلة العليم بتحديد موعد الفصح . و منذ القرن الرابع و امتدادا منه ، و على عيد الغطاس المجيد من كل سنة كان البابا الإسكندرى يرسل إلى كنائس الكرازة المرقسية رسالة يعلن فيها موعد الصوم الكبير و جلال القيامة المجيدة ! و هذه الرسالة عينها يبعث بها إلى كنائس أورشليم و أنطاكية و القسطنطينية و رومية - و هذه بدورها تبلغها إلى الكنائس الأخرى [2] .

---

(١) " قاموس الآثار و الليتورجيات المسيحية " جـ ٥ ، القسم الأول ، ص ٩٩٨ ؛ داڤيد سمبسون : " عن لاهوت السيد المسيح لأوريجانوس " [بالإنجليزية] ص ١٥٥ - ٢٧١ ، لندن سنة ١٨١٢ :

David Simpson: " Origen, on the Divinity of Christ ", London 1812.

(٢) " قاموس الآثار و الليتورجيات المسيحية " [بالفرنسية] جـ ٨ ، القسم الثانى ، باريس سنة ١٩٢٩ ، ص ٢٧٥٣ ؛ راجع أيضا جـ ١ من هذا الكتاب ، الفصل المعنون " الأنبا ديمتريوس الكرام " .

ب - للأنبا ديونيسيوس

مما يؤسف له أن معظم ما تبقى من رسائله وصلتنا فى شذرات . و مع ذلك نستطيع أن نتبين منها مدى اتساع مكاتباته . و تغلب عليها كلها الروح الرسولية ، و البعض منها طويل النَفَس كتلك التى كتبها " عن الطبيعة " و وجهها إلى تلميذ له إسمه تيموثيئوس ؛ و " عن التجارب " و بعث بها إلى صديقه أوفرانوس . و يمكن ترتيب رسائله كما يلى : مجموعة خاصة بالإنقسام الذى أحدثه نوفاسياتوس فى رومية و بالإنحراف الذى نتج عنه . و لقد وجه ما كتبه عن الإنحراف إلى كانون أسقف هرموبوليس ، و إلى شعوب اللاذقية و أرمينيا . ثم كتب رسالة شخصية إلى نوفاسيانوس ، و أخرى إلى المعترفين فى رومية المشايعين له . كذلك كتب إلى فابيوس أسقف أنطاكية ، ثم برسالتين إلى الرومانيين بعد توبتهم . و وجه عناية خاصة إلى المعمودية فكتب فيها رسالتين عن المعمَّدين بأيدى الهراطقة . و بعدها كتب رسائل إلى استفانوس و سكستوس الثانى - و كليهما تعاقبا على كرسى رومية ، و إلى ديونيسيوس و فليمون كاهنى رومية . و فى كل هذه الكتابات تتبين مدى سلطته على رومية .

و لقد كتب ثلاث رسائل عن بدعة سابليوس وجهها إلى أمون أسقف برنيكا - و هو مصرى الأصل ، و إلى أربعة من شركائه فى الخدمة الرسولية . ثم أرسل كتابا إلى كنيسة أنطاكية يعتذر فيه عن عدم إمكانية حضور المجمع الذى انعقد لمحاكمة بولس السموساطى على بدعته ضد الروح القدس .

و هناك أربع رسائل فصحية له يقول عنها أوسابيوس القيصرى : " لقد وضع ديونيسيوس فى هذا العصر الرسائل الخاصة بعيد القيامة المجيدة بأسلوب إرتفع به لتركيد جلال هذا العيد و لتوضيح وجوب تعييده بعد الإعتدال الربيعى .

كذلك رأى أن يشدد العزائم و يثبت الإيمان فى الفترة ما بين اضطهادين تقديرا منه لمسئوليته الراعوية ، و بخاصة لأن الإضطهاد أعقبه حروب و ثورات .

و ثمة خطاب منه موجه إلى هيراكس أحد الأساقفة المصريين [و لا نعرف الآن بالضبط مقر إيبارشيته] للغرض عينه - أى ليثبت الشعب على العقيدة القويمة . و كذلك بعث بخطاب إلى الإسكندريين الثائرين .

و يحافظ البابا الكبير على علاقته بإخوته فى الخدمة الرسولية بمداومة مكاتبتهم . و قد وصف لهم الآلام المريعة التى احتملها الشهداء ثم احتملها من بعدهم من جازوا الوباء . و لقد حل السلام بعد كتابة خطابه الأخير ، فانتهز الفرصة و كتب رسالة فصحية إلى شعب الكرازة المرقسية .

و يذكر أوسابيوس رسائل أخرى - إحداها لأسقف إسمه جرمانس ، و ثانية لأوريجانوس ، و ثالثة " عن السبت " ، و رابعة " عن التدريب الروحى " . كما أن له رسائل عديدة إلى باسيليوس أسقف المدن الخمس .

فليس بغريب بعد كل هذه الكتابات الهادفة أن تمنحه الكنيسة الجامعة لقب " معلم مسكونى [١] " .



و حين تتبعنا سيرة هذا البابا الجليل عرفنا أنه أرسل كاهنين لينوبا عنه فى المجمع الذى انعقد بأنطاكية - أحدهما هو القس أناطوليوس . و لقد رحب بهما المؤمنون هناك إلى حد أنهم اختاروا هذا القس أسقفا على اللاوذيكيين . فاستنفذ هذا الراعى الساهر كل قواه الذهنية و الروحية فى خدمتهم . و لقد عرفه أوسابيوس أبو التاريخ المسيحى معرفة شخصية فلم يتردد فى أن يضمه فى الصف الأول من أعلام

---

(١) " قاموس الآثار و الليتورجيات المسيحية " حـ ٨ ، القسم الثانى ، ص ٢٧٧١ - ٢٧٧٣ .

الكنيسة ؛ كما أنه فاخر بعلمه و حكمته التي شبهها بالموسوعة . و في الوقت عينه أكد أن أناطوليوس قد ذهب إلى أبعد حدود المعرفة في الحساب و الهندسة و الفلك و الفيزياء [الطبيعة] و المجادلات المنطقية السليمة [١] .



هـ - أثيناجوراس

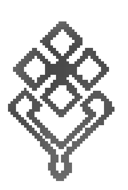
إن هذا الفيلسوف الرواقي بدأ مسيحيته بدفاع منطقي مسلسل عن حقيقة القيامة المجيدة . و هو ، في كتاباته ، اقتبس الكثير من سفر " حكمة باروخ " . و بالمثل فالكثير من العلماء الإسكندريين قد استندوا إلى الأسفار القانونية الثانية [٢] . فكليمنضس الإسكندري كثيرا ما يشير إلى سفري المكابيين و يقتبس من أسفار يهوديت و طوبيا و الحكمة . في حين أن أوريجانوس يذود عن الجزء الأخير من دانيال . و هو يستند إلى الأسفار القانونية الثانية بوصفها ضمن الأسفار الإلهية ؛ و يدفع بالمتمعن لكتاباته إلى الإدراك بأن كل ما يستعين به هو من الوحي الإلهي و من التقليد الثابت في كنيسة الإسكندرية . و يتشارك الباباوات مع العلماء في إقرار شرعية هذه الأسفار القانونية الثانية و في الإستناد إليها و الإقتباس منها . و ليس ذلك فحسب بل لقد إقتبسوا منها ضمن الصلوات التي

---

(١) قاموس اللاهوت الكاثوليكي، المجلد الأول ، قسم ١ ، عامود ١٧٧٩ .

(٢) جمع عزرا كل أسفار العهد القديم لغاية سفر ملاخي . و بعد موته استمر اليهود يكتبون أسفارهم فثبتتها الكنائس الرسولية ضمن طبعاتها للكتاب المقدس التي هي جزء من العهد القديم و سموها بهذه التسمية على أساس أقدميتها الزمنية و لكن الطبعة البروتستانتية أغفلتها - و هي الطبعة المتداولة بيننا مع الأسف .

تقال فى مناسبات مختلفة - فمثلا تبرز قصة سوسنة العفيفة فى صلوات ليلة أبو غلمسيس [سحر سبت النور] [1] .



٤- مع الأنبا بطرس خاتمة الشهداء

كان لدقلديانوس شريك فى الحكم إسمه مكسيميتوس : تبارى كلاهما فى البطش و التعذيب . و حينما كان الثانى مقيما بالإسكندرية كانت تسليته تعذيب النسوة و العذارى .

و كانت الإسكندرية آنذاك تزهو بأميرة هى الأميرة كاترينا . و لقد تحلت هذه الأميرة بالعلم الروحى و العقلى و تميزت بأسمى الفضائل . . . و بالتالى حازت كرامة خاصة فى المجتمع الإسكندرى . و من فضائلها شجاعتها النادرة التى جعلتها تواجه الإمبراطور مكسيميتوس و توبخه على وحشيته . و ذهل هذا الطاغية أمام شجاعتها و علمها فأراد أن يختبرها . و جمع الفلاسفة فى قاعة كبرى من قصره و أوقفها أمامهم ليناقشوها . و مع صغر سنها ، و مع كونها المرأة الوحيدة وسط الجمع إلا أنها واجهتهم بكل رزانة . و أجابت على أسئلتهم إجابات منطقية مسلسلة إقتنع بها الفلاسفة السائلون إلى حد أنهم أعلنوا إعتناقهم المسيحية . و لشدة ذهول الإمبراطور تناسى كرامة الأميرة كاترينا و كرامة عائلتها و أمر بإلقائها فى السجن . و لما سمعت الإمبراطورة زارتها فى الحبس . كما أن

(١) " قاموس الآثار و الليتورجيات المسيحية " جـ ٩ ، القسم الثانى ، ص ١٧٩٥ .

الإمبراطور فى ثورة غضبه أمر بإلقاء الفلاسفة فى أتون من النار ، فقد جاء بهم ليؤازروه فى السخرية بالأميرة الشابة فإذا بهم يجعلونه هو سخرية أمام أشرافه و أهل قصره .

ثم تناسى مكسيمينوس كل عاطفة إنسانية و تناسى المبادئ الأولية للقانون و أمر بتعذيب الأميرة . و كلما وجدها صامدة باسلة إزداد وحشية . لأنه كان يستهدف أمرين : الأول تحويلها عن وفائها للفادي الحبيب ، و الثاني ضمها إلى مجموعة نسائه . على أن كل ما بذله من تفنن وحشى ضاع عبثا . فأمر فى النهاية بقطع رأسها . فدفنها بعض المؤمنين خلسة .

و لما انتهى الإضطهاد حمل الملائكة جسدها الطاهر إلى سيناء . على أن الذى يجب أن تعرفه هو أن جميع الكتاب فى العصور الأولى كانوا يصفون المعيشة الرهبانية بأنها عيشة ملائكية . و حينما يعبّرون عن إلباس أى شخص الزى الرهبانى يقولون إنهم ألبسوه الزى الملائكى . فالملائكة الذين نقلوا جسد هذه القديسة الباسلة كانوا نسّاكا من ساكنى البرارى . و حينما وصلوا إلى الجبل الذى ترتفع عليه العليقة التى رآها موسى ، صعدوا إلى إحدى القمم الشامخة و وضعوا جسد الأميرة الشهيدة كاترينا فى مغارة طبيعية منقورة داخلها .

و مر على ذلك ما يقرب من خمسة قرون ظهر بعدها ملاك الرب لرئيس دير التجلى و أعلمه بمكانه . فخرج هو و بعض من رهبانه نحو الجبل الذى أشار إليه الملاك . و فى أثناء تسلقهم إلتقوا بناسك كهل يعيش فى وحدة تامة و أعلموه بالهدف الذى جاءوا لأجله . فقال لهم : " و أنا أيضا تلقيت عدة إنذارات للبحث عن جسد القديسة كاترينا . و لكنى خشيت أن تكون خدعة شيطانية لإخراجى من عزلتى . فلم أتحرك . أما الآن فهيا بنا معا . تعالوا نتسلق هذه القمة التى أمامنا حيث رأيت نورا يسطع لعدة ليالى ، فليس من شك فى أنها تضم شيئا مقدسا " .

و كان الرهبان يحتيرون أن القمة المشار إليها مما لا يمكن تسلقه ، و مع ذلك فقد نجحوا – بعد مشقة – فى الوصول إليها . فوجدوا صخرة منقورة تقرأ متعرجا أشبه بالتيه . و وسط إحدى التعرجات وجدوا جسد عذراء . فجثوا على ركبهم شاكرين الله و ضارعين إليه أن يعرّفهم إن كان هو الجسد الذى يبحثون عنه . و بينما هم فى صلواتهم إذا بناسك شيخ يدخل إليهم و يقول : " يا إخوتى – إن الله قد أرسلنى لأخبركم بإسم هذه القديسة و بحياتها و بفضائلها و بالمجد الذى نالته " . و بعد ما أبلغهم الرسالة أمرهم بأن ينقلوا الجسد الطاهر إلى ديرهم قائلا : " سيأتى الناس من أقاصى المسكونة ليتبركوا بهذا الكنز الثمين " . و ركع على الأرض و قبّل الجسد بكل وقار و خرج . و نزل المرتفعات الوعرة بسرعة مذهلة و اختفى عن الأعين نهائيا .

و منذاك تحول إسم هذا الدير من " دير التجلى " إلى " دير القديسة كاترينا " التى أصبحت الشفيعة الحارسة للدير و لكل سكان المنطقة . و لقد تحقق قول الشيخ الناسك إذ يتزايد الزوار للدير يوما فيوما [1] .

هذا عن القديسة – فماذا عن ديرها ؟

لقد أثبت التاريخ أن سيناء أرض مصرية منذ عصوره الأولى . فلقد وجد المنقبون نصبا تذكاريا عليه كتابة هيروغليفية من بينها خرطوش للملك " نارمر " . و يقول بعض المؤرخين إن هذا إسم للملك " مينا " الذى وحد مصر كلها إلى دولة واحدة ، و أسس الأسرة الفرعونية الأولى . بينما يقول غيرهم إن نارمر هو أبو الملك مينا . و سواء أكان مينا أو أبوه ، فالنصب التذكارى شاهد على تبعية سيناء لمصر من ذلك الزمن البعيد .

و ليس ذلك فحسب ، بل إن الذين زاروا منطقة دير القديسة كاترينا رأوا

---

(1) " قديسو مصر " ، سنكسار قبطى أورد سيرة هذه القديسة فى اليوم الموافق ليوم ٢٣ أمشير ، طبع فى القدس سنة ١٩٢٣ .

على إحدى القمم القريبة منه تمثالا ضخما للعجل أبيس .

و من المأثور أنه كان في المنطقة عينها حصن فرعوني . فلما تحول المصريون إلى المسيحية و بدأت جموعهم تتنسك في الصحراء تحول الحصن تدريجيا إلى دير . فهو - كصاحبته - مصرى الأصل .

و المصريون ، لسماحتهم ، كانوا يفرحون بأى أجنبى يأتى ليعيش معهم عيشتهم الرهبانية بل إنهم ، لفرط هذه السماحة ، كانوا يطلقون إسم الأجانب على أديرتهم ! و الشاهد على ذلك دير السيدة العذراء المعروف بـ " البرموس " . فهذه الكلمة قبطية هى : ⲡⲓⲣⲱⲙⲉⲟⲥ أى الرومانى . و ذلك لأن الأميرين مكسيموس و دوماديوس قد عاشا فى قلاية متاخمة - و هما ولدا إمبراطور رومية .

و هذا الواقع ينطبق أيضا على الدير الشهير بـ " السريان " . فلقد أنشأه الأنبا يؤنس كامى [أى يؤنس المصرى] . ثم توالى على الحياة فيه عدد من الرهبان السريان . و تحية من " المصرى " لأشقائه أطلقوا إسمهم على ديره !

و حين كان دير القديسة كاترينا مصريا شاركتهم الحياة فيه عدد من جنسيات مختلفة أهمهم اليونانيين . ثم حدث الإنشقاق الموجع نتيجة لمجمع خلقيدون سنة ٤٥١ م . و كانت مصر آنذاك خاضعة لإمبراطور القسطنطينية الذى بطش بأبنائها لرفضهم قرارات هذا المجمع المشئوم . و لما وصل العرش إلى الإمبراطور يوستينيان الثانى فى منتصف القرن السادس ، لم يكتف بالإستيلاء على الدير بل جعله خاصا باليونانيين وحدهم . و مع مرور الزمن شاع بين الناس أن الأميرة المصرية الباسلة كاترينا يونانية هى و ديرها !

و حين تولى الحاكم بأمر الله الفاطمى عرش مصر [فى مستهل القرن الحادى عشر] بنى مسجدا داخل أسوار الدير لا يزال قائما إلى الآن .

و مرت القرون . و قامت دولة إسرائيل . و منذ قيامها استمرأت الإعتداء على مصر بصفة خاصة [1] . و بعد توقيع الهدنة على أثر اعتدائها الأثم سنة ١٩٦٧ ، شاعت هيئة الأمم المتحدة أن تطمئن إلى أن الإسرائيليين حين دخلوا سيناء لم يعتدوا على الدير و لا على مكتبته . فانتدبوا مندوبا من قبلهم و طلبوا إلى مصر أن تنتدب هي أيضا مندوبا عنها ليذهب المندوبان معا إلى الدير . فانتدبت د. مراد كامل أستاذ اللغات السامية بجامعة القاهرة و العميد المنتدب لكلية الألسن . و قد طلبت هيئة الأمم هذا الطلب إلى مصر لعلم المسئولين فيها بأنه قبل الإعتداء الإسرائيلي بثلاثين سنة حين شاء رئيس الدير أن ينظم مكتبته و يضع لها كتالوجا لم يجد من يؤدي هذه المهمة الشاقة خيرا من الأستاذ يسى عبد المسيح مدرس اللغة اليونانية القديمة بجامعة القاهرة و أمين مكتبة المتحف القبطى بمصر العتيقة . فذهب هذا المصرى الأصيل و قضى سنة فى رحاب مواطنته الأميرة كاترينا و أكمل العمل المطلوب بدقته المعهودة .

و هذه الومضات توضح لنا أن مصر المعتدَى عليها هى مصر التى لا يمكن الإستغناء عنها - إنها البلد الذى لجأ إليه الرب و وجد فيه الأمن و الإستقرار .

ثم شاء الآب السماوى الذى لا ينعس و لا ينام أن يستعيد الرئيس أنور السادات النصف المتاخم لحدودنا - من سيناء - بحرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ؛ و النصف المشتمل على منطقة الدير بمفاوضات سلمية بدأها بإلقاء خطبة فى " الكنيست " [مجلس الشعب الإسرائيلى] و أنهاها برفع العلم المصرى فى منطقة دير القديسة كاترينا المصرية .

---

(١) قامت إسرائيل بثلاثة اعتداءات على مصر فى سنة ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، ثم رأى أنور السادات أن لا يمنحها فرصة رابعة لمثل هذه الإعتداءات ، ففى ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣ باغتت مصر العالم بأسره بهجوم تمكن فيه المصريون من هدم خط بارليف الذى كان يزعم الإسرائيليون أنه لا يقهر ؛ و قبل الوصول إليه أقاموا الجسور المتحركة على القناة و اخترقوا الساتر الرملى الذى أقيم على ارتفاع خمسة عشر ، فاهتزت إسرائيل برجالها و نسائها بل حتى بأطفالها .

و كانت و بلا شك القديسة كاترينا المصرية شفيعة لجهدنا الباسل فى هذه المعركة التاريخية .

و إنى لأتخيّلها تبتسم و هى ترى علم مصرها الحبيبة يرتفع مرة أخرى و يرفرف عاليا فوق منطقة ديرها .



فكرة للتأمل

" إن لمصر أعماقا خفية " – هذا ما يردده ذهبى الفم بلا فتور ، و توضيحا لهذا القول يعلن : " لو ذهبت إلى مصر لوجدت وحدة تتجاوز كل فردوس ، و لقابلت ستمائة خورس من الملائكة فى زى إنسانى : شعب الشهداء ، جماعات العذارى ، مجمع المعترفين . فى هذه البقاع تنهزم دولة الشيطان و يسطع ملكوت السيد المسيح . فترى عيناك جيش المسيح و شعبه الملكى و صورة للحياة السماوية . و تتنافس السيدات مع الرجال فى السعى وراء الكمال المسيحى . إن السماء بنجومها المتألقة لتتضاءل أمام جمال مصر و هى متزيّنة بخيام رهبانها .

٥ أ – ... خيام رهبانها

و استكمالا لما قاله ذهبى الفم لنتمعن هذه الخيام التى تزهو على النجوم – لنتمعنها كما وصفها سويسرى معاصر [١] ، قال : " إن الموقع المعروف بمنطقة

---

(١) نشرت شركة " سويس إير " Swiss Air Gazette فى عددها الثانى عشر لسنة ١٩٨٥ عددا من المقالات عن الرهبنة المصرية أولها للمستشرق السويسرى بيير كوربو عن منطقة القلالى " كيليا " ص ١٦ – ٢١ ، Pierre Corboud : " The Desert of Kellia ", pp. 16 - 21 و يفرحنى أن أسجل أن الراهب صموئيل السريانى قد أصدر فى مايو سنة ١٩٨٦ كتابا بعنوان : " عمارة الكنائس و الأديرة الأثرية بمصر " جـ ١ ، ضمنه وصفا و خرائط لمنطقة كيليا (القلالى) ص ٢٩ – ٤٧ .

القلالى قد وضحت معالمه من سنة ١٩٦٤ عن طريق النصوص الخاصة بتأسيسها و تطورها " . و هي أكبر مجموعات للقلالى و الأديرة التى اكتشفت للآن . فخلال العشرين سنة الأخيرة إشتغلت فرق من مستشرقين سويسريين و فرنسيين بالتنقيب فى هذه المنطقة التى يندر لها مثيل و التى قامت فيها الحياة النسكية من القرن الرابع إلى القرن الثامن : نوع من الحياة الأصيلة ما بين التقشف التوحدى و بين الحياة الديرية .

و فى وقتنا الحالى يتبقى من الألف و خمسمائة قلاية القليل من التلال و الخرائب . و تقع منطقة القلالى فى الصحراء الغربية على بعد عشرة كيلومترات تقريبا غربى الدلتا . و من المستنتج إنها نشأت سنة ٣٣٥ م . و كان الهدف الأساسى من إنشائها هو إيجاد مساحة أوسع للرهبان الذين تكاثر عددهم فجعلهم يحسون بأنهم فقدوا العزلة التى نشدوها . كذلك كانت أشبه باستراحة ما بين نيتريا و المنطقة الأكثر إنعزالا المعروفة بشيهيت التى قصدها طالبو الخلوة حين بلغوا القمة من دعوتهم الرهبانية .

و الوصف الذى ورد فى النصوص يعرفنا بالصلات التى كانت قائمة بين مختلف المراكز النسكية فى منطقة مصر السفلى ؛ بل إنها المصدر الرئيسى لتوضيح معالم منطقة القلالى كما اكتشفها المستشرق الفرنسى أنتوان جيومون سنة ١٩٦٤ م . و الكلمات التالية مترجمة عن أقوال آباء الصحراء ، و هى نص نادر يشير إلى تأسيس القلالى : " حدث ذات يوم أن جاء الأب أنطونى لزيارة الأب أمون [١] فى جبل نيتريا . و حين التقيا قال ثانيهما : " شكرا لله على أن صلواتك ضاعفت عدد الإخوة إلى حد أن البعض منهم يرغب فى بناء قلايات على بعد من هنا لكى يستمتع بالوحدة المنشودة . فماذا تقول عن المسافة التى يجب أن تفصل ما بين قلاليهم و بين القلالى هنا ؟ . " أجاب الأب العظيم : " فلننتظر حتى ننتهى من الأكل فى الساعة التاسعة ، ثم نخرج بعدها و نمشى فى الصحراء باحثين عن المكان

(١) فى هذا النص ورد إسم " أمون " بشكله المصرى الأصيل – بدلا من " أمونيوس " التى جعلت من الإسم الفرعونى القديم إسما يونانيا كما ورد إسم أبى الرهبان بالشكل المذكور به فى مجمع الآباء بالقداس الإلهى .

المناسب " . و بعد أن مشيا إلى وقت المغيب قال الأب أنطونى للأب آمون : " هيا نصلى و نقيم صليبا هنا – فهذه هى البقعة المناسبة لأولئك الذين يريدون بناء قلالى لأنفسهم . و هكذا يكون : أن أولئك المقيمين هناك (فى نيتريا) حين يأتون لزيارة الذين هنا (فى القلالى) يأتون بعد تناول الوجبة الضرورية للجسد فى الساعة التاسعة ، و هذا أيضا ما يفعله الذاهبون من هنا لزيارة إخوتهم هناك . و بذلك يستطيعون تبادل الزيارات بسهولة " .

و موقع القلالى كما بدا من سنوات قصيرة يشغل مساحة تزيد على المائة كيلومتر مربع ، و يشتمل على خمسة تجمعات يسمونها بالعربية " القصور " . . . و بالكشف عن هذه التجمعات إتضح أن كلاً منها مستقلة عن الأخرى – لها بئرها و حديقتها الخاصة و مخازنها و مكانها المخصص للصلاة ؛ و المبانى الجماعية الوحيدة هى الكنائس ، و لكل مجموعة كنيسة أو ثلاث . . .

و أقدم هذه المبانى غارق فى الأرض ، و غرفها صغيرة متصلة ببعضها عن طريق ممرات ضيقة . و مسكن الراهب مرتّب حول غرفة الصلاة ذات الأهمية الكبرى . و لا يصل إليها الزائر إلا بعد أن يجتاز عددا من العوائق لا يعرف سرها غير صاحبها . . . و هناك أبواب أخرى توصل إلى القاعة الرئيسية المزخرفة زخرفة جميلة ؛ و بعدها يمكن النزول من ممر مزدوج يوصل إلى غرفة الصلاة . و الكنائس تقوم وسط أقدم القلالى . و يروى التقليد أن هذه الكنائس كانت تقام فيها الصلوات مرة أسبوعيا : من عشية السبت إلى صباح الأحد [1] ، و يتجمع آنئذاك جميع ساكنى التجمعات كلها .

و كان القرن السابع فترة إزدهار القلالى : تكاثف فيه عدد ساكنيها و تجددت مبانى قلاليها القديمة . ثم أخذت فى التقلص فى القرن الثامن إذ لم يكن بها غير البقية من الرهبان و لم يأتهم رهبان جدد . و هكذا غطتها الرمال .

---

(١) هذا التقليد ما زال معمولا به إلى الآن فى دير الأنبا مكارى الكبير بشيهيت .

و مع أن عمارة القلالى غنية بمختلف المعلومات الأثرية إلا أن هناك آثارا أخرى ذات أهمية كبرى : فزخارف الجدران و الكتابات العديدة - قبطية و يونانية - متوفرة . و هى تعطينا المعلومات المسلسلة اللازمة لمعرفتنا بنمو الحياة فيها ؛ و التلوينات الباقية على جدران القلالى تضاعف معلوماتنا عن الفن القبطى ؛ و الزخارف الملونة العديدة قد كشفت لنا عن أيقونوغرافيا أصيلة بدئ بدراستها . و بالطبع يحتل الصليب مكان الصدارة . على أن الرغبة الباطنية فى الجمال قد دفعت بالفنانين إلى رسم الكثير من الزهور و الخضروات و الحيوانات تتشابك فى تلقائية جميلة : فنرى مثلا الأسود و الغزلان و الأرانب يتلاعبون فى جنة عدن المزدهرة بالنخيل و الورود الخيالية ؛ بل إن التلوين مستعمل بحيث يعطى الناظر إليه صورة الحجر . فمثلا تبدو الأعمدة الصغيرة المصنوعة من الطوب المتراصّ كأنها منحوتة من المرمر ذى العروق المتعددة الألوان .

و معظم النصوص التى قرئت للآن ذات طابع تذكارى تطلب تذكّر راهب متنيح و الصلاة من أجله . و لكن هناك غيرها مأخوذ من الأسفار الإلهية ؛ و بعض النصوص مخطوط إلى جانب صور ملونة تهدف إلى الإطناب فى الموضوع المرسوم . و هذا الدليل المسجل فى القلالى له قيمة مزدوجة : إنه يعطينا مستندات فريدة لدراسة اللهجة التى كانت شائعة فى هذه المنطقة من مصر قبل القرن التاسع ؛ بينما تعطينا التواريخ المسجلة على نصوص الإهداء تدعيما لتسلسل التاريخ للمنطقة .

و لقد أعطتنا الحفريات فى منطقة القلالى وفرة من الآثار الفخارية و معها سجلا حافلا للذين انتفعوا بها فى مختلف المناسبات . كذلك تعطينا معلومات عن الصلات التى ربطت بين مختلف الجماعات الرهبانية : معلومات أكثر مما جنينا من أية مجموعة رهبانية أخرى . و بالإضافة فهى تعطينا المعلومات عن صلة رهبانها بعالم البحر المتوسط ؛ و تقدم لنا صورة واضحة المعالم عن حياة أولئك الرجال الذين آثروا العشرة مع الله على الحياة العالمية .

٥ ب – و ثمة مقال له أهمية خاصة إذ هو يتعلق بالفن تحت عنوان : " **الفن المسيحى فى مصر : أيقونوغرافيا تغذت من مصادر عديدة** " للمستشرقة السويسرية راسّار ديبرج [١] ، هذا بعض ما جاء فيها : إن شئنا تعريف الفن المسيحى فى مصر علينا أن نذكر حقيقتين هما : ١- إنه فى أصالته فن شعبى ، ٢- إن المؤثرات التى توالت عليه عديدة . فعلى امتداد السنوات و التغييرات السياسية ترك الحكام المتعاقبون بصماتهم على التقاليد السحيقة التى لمصر الفرعونية . فقد تلاقى على أرض مصر الفرس و اليونان و الرومان كما تلاقت الأشكال الحضارية الكلاسيكية و الشرقية . و هذه كلها تلاقت فى تضارب أحيانا و فى تناغم أحيانا أخرى ، فى تشابك حينا و فى استقلال حينا آخر . و أخيرا وصلت المسيحية . و من هذا الموقف نشأ الفن المسيحى المصرى أو بالحرى الفن القبطى – بل قد نكون أقرب إلى الدّقة إن قلنا الفنون القبطية . فالمؤثرات الغريبة كانت أقوى فى بعض المناطق منها فى غيرها ؛ بل إن الأثر فى منطقة كاد أن يكون على نقيض من المنعكس على منطقة غيرها . و مع أن الإسكندرية أخذت إسمها من إسكندر الأكبر المقدونى الأصل إلا أنه يجب أن نتيقن من البداية أنه لا الحضارة الإغريقية و لا الرومانية استطاعت أن تفرض نفوذها على هذه المدينة : فالمداخل الفنية وقفت مقابل بعضها البعض ثم كستها نكهة من الأساطير و الأبطال . و هذا هو أحد الأسباب فى أنه حتى بعد انقضاء الوثنية إحتفظت المسيحية بهذا الماضى المليئ بالغنى . . . بل إنه حتى حين تزايد عدد الرهبان و أقاموا مراكزهم الهامة فى نيتريا و شيهيت و القلالى و بويط و إسنا و سقارة ، و تضاعف عدد الكنائس ظلت المؤثرات الوثنية واضحة المعالم .

و هذا التسامح نحو الوثنية يفسر لنا وجود الأساطير القديمة إلى جانب الموضوعات المسيحية البحتة . فالفن القبطى وُلد فى مصر عريقة متشبعة بالعظمة الفرعونية و مغذاة بشتى المؤثرات الحضارية . فكان على وعى بماضيه حتى حين تخيّر موضوعاته من هذه الخلفية المتباينة . لذلك ، فمع أن العدد الوفير من الإنتاج

---

(1) ibid: M. Rassart Debergh / J. Debergh: " The Cristian Art of Egypt: an Iconography Nourished from many Sources ". pp. 24 - 29.

المعمارى قد ضاع و لا نعرف عنه إلا من النصوص ، فإننا نقف منذهولين أمام ولاء القبط لنظام معابدهم البازيليكى . كذلك حوّلوا عددا من المعابد الفرعونية إلى كنائس مما شكل صلة مستديمة بين الديانة القديمة و الديانة الجديدة . ففى الأسلوب و فى الأيقونوغرافيا تقرن الزخرفة الرموز المسيحية بالخلفية الوثنية فتستعير تذوقها و تخطيطها من الماضى الذى أنهت جدارته . . .

على أن أهمية الماضى تبدو أكثر وضوحا فى الأيقونة . . . فمثلا تجمع إيزيس كل الوظائف التى يجب أن تتصف بها إلهة : إنها ساحرة من الدرجة الأولى كما أنها ذات سمة كونية . و لكنها قبل ذلك كله أم ، و أمومتها واضحة فى الكثير من التماثيل : فهى أحيانا تقبّل إبنها و أخرى ترضعه . و هنا يجب أن نذكر أهمية الإرضاع فى العقيدة القديمة و مؤداها أن الفرعون ينال اللبن الإلهى ثلاث مرات : الأولى تعطيه الحياة (طفولته) ، و الثانية تعطيه القوة (تتويجه) ، و الثالثة تعطيه الأبدية (موته) . و هذا يوضح لنا الشعبية لأيقونة السيدة العذراء تحمل طفلها أو ترضعه التى انتشرت فى مصر أكثر منها فى أى بلد آخر . . . و هناك حورس المتطى حصانه الذى كان المؤشر الأصلى لكل القديسين الذين رسمهم الأيقونوغرافيون كفرسان : إنهم يمتطون خيولا جموحة ، و بطعنة واحدة من سيوفهم أو حرابهم يسيطرون على الشر؛ و الشر الذى يقتلونه يتخذ شكل تنين أو حية أو ملك متوج . لهذا أيضا نرى رمزا إبتكره أولا الفكر المصرى القديم : هو الصراع المستديم بين الخير و الشر ، ينتهى إلى العصر المسيحى و يفصح عن أصله على الرغم مما به من تغييرات . . .

. . . و هناك ناحية فنية أخرى لها جاذبيتها هى أن الفنان القبطى كجده الفرعونى نجح فى تصوير رشاقة النبات و تعرجات فروع الكرمة و انسياب أوراقها ، إنه نجح فى تصوير تلقائية الغزال و حيوية العصفور و جلال الأسد . . . و مع أن صور المراكب نادرة عموما إلا أنها تكثر فى منطقة القلالى : بشكل مبسط أحيانا و بتفصيلات دقيقة أخرى . كذلك تكثر صور النباتات و الحيوانات - منها ما هو واقعى و منها ما هو خيالى . و الأسلوب الأكثر شعبية فى كل الأديرة يبدو فى مناظر الحيوانات ، و على الأخص فى صلتها بالرهبان .

على أن أسمى الرسومات من الناحية الطقسية هى تلك التى تزيّن تجويفة شرقية الهيكل – و هذه محفوظة دائما للسيد المسيح فى جلاله – أو " ضابط الكل [1] " – الجالس على عرشه (أحيانا) و حوله الأربعة أحياء غير المتجسدين .

و لقد كانت للكتابة أهمية عظمى منذ العهد الفرعونى توارثها القبط عنهم و بخاصة فى الأديرة . و كانت الزخرفة فى البداية قاصرة على الحروف الأولى للفقرات أو على الهوامش . و بعدها أطلق الناسخ (أو الكاتب) لخياله العنان فزخرف الحروف و العلامات بالزهور و الدوائر الأسطوانية و أحيانا بالحيوانات . على أن رسم الأشخاص ظل قاصرا على السيدة العذراء حاملة إبنها الحبيب على ذراعها الأيسر و على الملائكة و القديسين . ثم إبتداء من القرن الثانى عشر بدأ الأيقونوغرافيون يرسمون شخصيات الكتاب المقدس بعهديه . و من هذه الوجهة فالفن السابق على القرن العاشر هو أنقى فن قبطى و أكثره أصالة .

و الخلاصة – فالفن القبطى يشهد لسمته المصرية الفرعونية و لو أنه يبيّن أيضا التأثيرات الغريبة التى تناوبت على مصر ، و هذا يفسر لنا تنوعه من ناحية و غناه من الناحية الأخرى .

• هـ – إلا أن أشيق مقال هو المقال التالى كتبه المستشرق السويسرى روبير هوتز عن " **تعاليم آباء الصحراء ؛ حكمة نسكية فى البهجة** [2] " ... لقد تضاربت التفسيرات للهدف من التنسّك فى الصحراء . و لكن خير تفسير من غير شك هو ذلك الذى قدمه آباء الصحراء أنفسهم ... و حينما نقرأ الشهادات التى ما زالت باقية نكتشف بالفعل رؤية للعالم خاصة للغاية . فبالنسبة لهم ، فما تسميه " العالم " ليس سوى " وحدة مؤقتة " ؛ أو هو انعكاس مضطرب مشوّه للحقيقة السماوية . و لهذا السبب إعتبر النساك أنفسهم غرباء على الأرض . و لما كانت

---

(١) " بيبانتوكراتور " ⲡⲓⲡⲁⲛⲧⲟⲕⲣⲁⲧⲱⲣ

(٢) Robert Hotz: : " L'Enseignement des Pères du Désert: une Sagesse Ascétique dans la Joie ", pp. 31 - 33.

الصحراء في نظرهم مسكن الشياطين فقد رموا بأنفسهم في فم الأسد ليصارعوه داخل مملكته . و من الناحية الأخرى فالصحراء في الأسفار الإلهية هي المكان حيث يسلّم الإنسان نفسه بكليّته إلى الله و يحس باليد الإلهية إحساسا مباشرا .

و الناسك في إنكاره التام لنفسه يسعى إلى استعادة التراث الإلهي كاملا ، و إلى تركيز ذاته على الله الحقيقة الواقعية الوحيدة . و الصلاة هي الوسيلة الوحيدة التي توصّله إلى هذا الهدف . و العامل الأساسي للحصول على السلام الداخلي هو ما يسمونه " الهذية " ، و لا يبلغه إلا من استطاع التحكم التام في نفسه - و هذا التحكم يتطلب الصراع المستمر : أي يحتم حمل الصليب . إذن فالإنزواء في الصحراء ليس سوى الخطوة الأولى على طريق النسك . و من العجب بمكان أنه على الرغم من قسوة المعيشة التي عاشوها و من حمميتها فالكثيرون منهم عاشوا عمرا طويلا .

و قد يتبادر إلى أذهان البعض أن هذه الحياة الشظفة المضنية جعلت من النساك أشخاصا عصبيين عبوسين مكبوتين . و هذا أبعد ما يكون عن حقيقتهم . فالمتمعن كتاباتهم يندهش أمام حكمتهم الهادئة المليئة بالصلاح و بالتعاطف الإنساني ؛ بل إنه لينذهل أمام بهجتهم الداخلية العميقة التي لا تخلو من الفكاهة . فمن الدرس الأول - على سبيل المثال - الذي قدمه الأنبا مكاري الكبير لراهب شاب ، بعد اختباره ، إنه لن يستطيع بلوغ قمة الفضيلة ما لم يصبح غير مكترث إطلاقا بمديح الناس و بشتائمهم سواء بسواء .

و هناك درس ذوقيمة عليا يعطيه لنا أبو الرهبان يتلخص فيما يلي : مر به ذات يوم صياد للوحوش و لاحظ أنه يتفكه مع رهبانه فأحس بشئ من الإضطراب . و أراد كوكب البرية أن يفسر له ضرورة تهدئة الشباب بطريقة عملية . فقال له : ضع سهما في قوسك و شده . فنفذ الصياد الأمر . قال الأب الحكيم : شد الوتر أكثر . فأطاعه . فعاد القديس يكرر طلبه بشد الوتر أكثر . فاحتج الصياد : " لو أنني شددت الوتر أكثر لانقطع " . و عندها قال الشيخ المحنك : " و هذا ينطبق تماما على العمل الإلهي . فلو طالبت الشباب بجهد مفرط لفشلوا . لذلك كان من الواجب ، من وقت لآخر ، تخفيف شد الوتر " . و تمعن الصياد هذه الكلمات

الحكيمة و تعلم الدرس . أما الرهبان فقد عاد كلٌ منهم إلى تأملاته و قد تشدد قلبه . إذن فالأب الشيخ الذى يتفكّه مع الإخوة و يحرص على تجنب الإفراط فى النسك يجب أن يكون ضمن رؤيانا للرهبنة المصرية .

كذلك يجب أن يدخل ضمن رؤيانا أنهم – حتى المتوحدين منهم – كانوا ممتلئين محبة للغريب ، فهم فى عزلتهم بالصحراء إعتبروا إضافة الغرباء و من يأتونهم فضيلة كبرى . فمثلا يوصى الأنبا أبوللو رهبانه : " يجب الإرتماء عند أرجل الوافدين فذلك ليس تكريما لهم بل هو تكريم لله . فأنت حين ترى أخاك تتفرّس فى الرب إلهك " . و من خلال مسلكهم يتكشّف لنا ضميرهم الإجتماعى ، و هم يقدمون لنا القصة التالية دليلا على ذلك : ذهب الأنبا أغاتون يوما إلى المدينة فوجد مريضا ملقى فى الشارع . فلم يهئ له مأوى فقط بل ظل يعتنى به أيضا مدة أربعة شهور إلى أن عوفى تماما . و لكى يغطى المصروفات اللازمة للمريض و له إشتغل كعامل و لم يعد إلى الصحراء إلا بعد أن أكمل وصية " تحب قريبك كنفسك " . و هذه القصة تعلمنا أن عمل الرحمة ، فى روحانية آباء الصحراء ، أهم من حياة العزلة فى حد ذاتها .

ثم أن العمل اليدوى كان من القواعد الأساسية لآباء الصحراء . و إليكم القصة التالية : حدث أن جاء رهبان ممن يطلقون على أنفسهم إسم " المصلين " لزيارة الأنبا لوسيانوس . فسألهم : " ماهى صنعتكم ؟ " أجابوه : " نحن لا نحرك و لا أصبعنا الصغير لأى عمل إذ نسير بموجب قول الرسول : « صلوا بلا انقطاع [1] » . فعاد يسألهم : " ألا تأكلون ؟ " – " نعم نأكل " – " ألا تنامون ؟ " – " نعم ننام " – " إذن من يصلى عوضا عنكم حين تأكلون و حين تنامون ؟ " فلم يستطيعوا الإجابة . قال لهم : " سأثبت لكم أنى أصلى بلا انقطاع مع أنى أعمل . فأنا أجلس بقلبى مع ربى ثم أبل السعف و آخذ فى تضفيره . و متى أتممه أقول : إرحمنى يا الله كعظيم رحمتك و حسب كثرة رأفتك امحُ معاصىّ . أليست هذه صلاة ؟ " – " نعم إنها صلاة " – " و حينما أقضى النهار كله فى العمل و فى الصلاة أكتسب قوتى

---

[1] ١ تسالونيكى ٥ : ١٧ .

و أعطى لإخوتى أيضا . و الذين أخذوا عطيتى يصلون عنى حين آكل و حين أنام . و بنعمة الله أستطيع تنفيذ الوصية بالصلاة بلا انقطاع [1] » . فمن الواضح أن النساك فى ولائهم لنذورهم كانوا للكنيسة خميرة حية إذ أن ولاءهم لربهم كان القدوة الفعالة لأنهم عاشوه بالفعل و بطريقة واضحة مباشرة .

٦- المحبة رباط الكمال

إن للتائبين و التائبات جاذبية خاصة : فهم صورة حية منعشة لمحبة الآب السماوى - فلنقف لنتنعش بالتمعن فى سيرة تاييس التائبة . ولدت من أبوين مسيحيين و قضت السنوات الأولى فى كنفهما تتعلم معنى الحياة مع السيد المسيح . ثم تنيحت أمها بسلام . و لم يلبث أبوها أن تزوج ثانية - و كانت زوجته ضمن المأخوذين ببريق العالم . و لم تمضى بضع سنوات حتى لحق أبوها بأمها . و كانت تاييس قد نضجت ، و قد منحها الله جمالا نادرا و رشاقة فى القوام و ابتسامة حلوة خلابة و لباقة فى الحديث . فرأت زوجة أبيها [2] فى هذه المفاتن وسيلة لكسب المال الحرام فدفعت بالشابة فى طريق الشر . و كلما نجحت فى صضياد الرجال زادت هبوطا فى الخطية . و ذاعت مفاتنها حتى لقد كان الراغبون فيها يقتتلون . فوصلت كل هذه الأعمال خارجا عن مدينة الإسكندرية ، بل بلغت مجاهل الصحراء حيث كان يعيش ناسك قديس إسمه بفنوتى .

و كان هذا الناسك العظيم من إهناسيا المدينة (بمنطقة بنى سويف) ، و لقد كانت لهذه المدينة أهمية كبرى فى العصور المسيحية الأولى لأن روحانية أهلها بلغت من الحد ما جعل الكثير من أبنائها يعمرّون برية شيهيت و جبل القلمون . و فى الفترة التى عاشت فيها تاييس كان شاطئا بحر يوسف يحملان مع النسيم العابر فوقهما أصوات الألحان و التراتيم ليلا و نهارا : فالمغارات المحفورة فى جبال

---

(١) لوقا ١٨ : ١ ؛ كولوسى ٤ : ٢ .

(٢) يقول السنكسار القبطى إن أمها هى التى دفعتها إلى الخطيئة . أما السنكسار القرنسى المشار إليه فى قصة القديسة كاترينا الواردة فى ف ٤ فيقول إنها زوجة أبيها ، و نحن نرجح هذا الرأى .

المنطقة حفلت بالنساك من ناحية و بالناسكات من الأخرى .

و لقد كان الإيمان النّقيّ المتأصل في قلوب المتعبدين لا يعرف كلمة " عوائق " ، فلم يكونوا يرون إلا الخير الواجب الوصول إليه فيواجهونه و يسيرون نحوه بلا شك و لا تردد . و هل هناك خير أسمى من اكتساب النفوس ؟ كما أنهم كانوا مقتنعين بأن الإنسان يستطيع كل شئ في المسيح الذي يقويه . و بهذا الإقتناع كانوا يسيرون إلى الأمام بثقة راسخة بأن الله ذاته سينفذ رغباتهم . تلك كانت أحاسيس الأنبا بفنوتي و هو قاصد إلى الإسكندرية و هدفه الواضح أمامه هو استخلاص الشابة المسكينة من الهاوية التي هي فيها .

و قصد إلى دير عند مشارف المدينة العظمى و طلب قلاية منه و في هذه القلاية إستبدل ملابسه النسكية بحُلة عالمية . ثم أخذ معه بعض النقود و خرج و استعلم عن مسكن تاييس . و حين قرع الباب فتحته هي بنفسها و أدخلته إلى حجرتها الفاخرة . فسألها : " أليس عندك ركن منفرد أستطيع فيه الحديث معك بحرية ؟ " أجابته : " عندي مثل هذا الركن و لكن لا داعي له ، لأنك إن كنت تخشى الناس فأنا أؤكد لك أنه لا يجسر أحد على الدخول هنا من غير إذني . أما إن كنت تخشى أن يراك الله فلا يوجد مكان يخفى عليه " . و بدت الدهشة على وجه بفنوتي و تساءل : " كيف ؟ كيف ذلك ؟ أتعرفين أن الله موجود و أنه في كل مكان ؟! " قالت : " نعم . أعرف تماما أن الله موجود ، و أن هناك سماء تنتظر الأبرار و جحيما للأشرار . " قال بفنوتي بحزن عميق : " يا لله من بائسة تعسة ! ما دمت تعرفين هذا كله فكيف ترتضين إسقاط العدد الوفير في الخطية ؟ إنك ستُدانين من أجلهم أضعاف أضعاف الدينونة التي ستنالينها عن خطاياك ."
و أدركت تاييس من رنة الحزن في صوته و من الإهتزاز في كلماته أن محدثها من رجال الله . و استثار هذا الرنين و هذا الإهتزاز في ذاكرتها ما كانت تسمعه و هي طفلة ثم ما كان يتراءى إلى أسماعها و هي مارة على باب كنيسة أو مدخل مدرسة مسيحية . و حين أدركت هذا و أدركت الهدف الذي جاء هذا الرجل من أجله ضمّت ذراعيها على صدرها ، و أخفضت عينيها ، و سقطت على ركبتيها ، و انهالت دموعها كالسيل ، و قالت بصوت متقطع : " أواه يا أبي ! إن مجيئك

ومضة صاعقة ! إن السماء هي التي أرسلتك . إني أطلب الرحمة . أريد أن أترك هذه العيشة المليئة بالعار التي أعيشها منذ سنوات . ضع عليّ قانونا للتوبة . و لي ثقة أنه بمعونة صلواتك الحارة سأنال المغفرة عن كل خطاياي . و لكن أرجو أن تمهلني بضع ساعات أتبعك بعدها حيثما تريد ، و أفعل كل ما تأمرني به .

و غمر الفرح قلب بفنوتي : الفرح الذي لا يمكن أن يدركه إلا أولئك الذين يظفرون بالضالين و يأتون بهم إلى الله . الفرح الذي يفيض على من أخرج نفسا من الظلام الدامس إلى بهاء النور . هذا الفرح هو الذي غمر الناسك بفنوتي حتى كاد أن يرقص . و تمالك نفسه بكل ما لديه من عزيمة . و أعلم تاييس بالمكان الذي تلاقيه فيه . و خرج و خفقات قلبه تكاد ترن في آذان المارة !

و مسحت تاييس دموعها بسرعة و بتهليل . و بسرعة أيضا جمعت كل مصوغاتها و كل ملابسها البراقة و أخفتها تحت عباءتها الفضفاضة . و ذهبت إلى الميدان الرئيسي في المدينة و الجماهير تتبعها و تتزايد مع كل خطوة . و وقفت وسط الميدان و رمت بما تحمل إلى الأرض و أشعلت فيها النيران أمام العيون المذهولة . ماذا جرى لها ؟ لقد جنت من غير شك ! فلما عملت النار عملها إنسحبت و أخذت تختار الأزقة المتعرجة كي لا يتبعها أحد . و بهدوء و خفة و تهليل داخلي وصلت إلى المكان الذي أعلمها به بفنوتي .

و بعد أيام رست مركب ذات قلاع مثلثة عند مرفأ مدينة إخناسيا ، عند سفح السلالم المؤدية إلى السوق . و نزل منها شخصان مرا بسكون و سرعة دون أن يلتفتا يمنة أو يسرة . فلم يلبثا أن بلغا الجبل المتاخم لهذه المنطقة . و وسط منحنيات الجبل و تعاريجه اختبأ دير للراهبات . و اختار الشيخ الناسك للتائبة قلاية منعزلة أغلقها عليها بمغاليق حديدية ، و لم يترك لها غير فتحة صغيرة لتوصّل منها الراهبة المسئولة الخبز و الماء اللازمين لها يوميا . و قبل أن يتركها سألته : " كيف أصلي ؟ " أجابها : " إجلسي على الأرض ، و وجهك نحو الشرق ، و كرري هذه الضراعة : أنت يا من خلقتني إرحمني " .

و ظلت تاييس على هذه الحال ثلاث سنوات . و غمرت الشفقة قلب الأنبا بفنوتى عليها . فقصد إلى الصحراء الشرقية و قابل الأنبا أنطونى ليستشيره فى الأمر . و جمع كوكب البرية رهبانه و اتفق معهم على أن يقضى الجميع تلك الليلة فى الصلاة ليرشدهم الله فيما يتعلق بالموضوع الذى جاء بالأنبا بفنوتى إليهم . و خلال تلك الصلوات رأى الراهب الأنبا بولا البسيط رؤيا ساطعة : رأى السماء قد انفتحت أمام عينيه المبهورتين ، و رأى كرسيا فخما مغطى بالأقمشة الغالية تحرسه ثلاث عذارى تلمع وجوههن بالبهاء . و فيما هو متفكر لمن يكون هذا الكرسى أيكون لمعلمه الكبير الأنبا أنطونى ؟ إذا بصوت يرن فى أذنيه : " كلا . إن هذا الكرسى هو الذى أعده الله لتاييس التائبة " .

و فى الصباح روى القديس بولا البسيط ما رآه و ما سمعه . فأدرك الأنبا بفنوتى أن الأب السماوى قد قبل توبتها . فعاد إلى دير الراهبات . و كسر الختم الحديدى للقلاية على الرغم من معارضتها . و لما فتح الباب قال لها متهللا : " أخرجى الآن يا ابنتى لأن الله قد غفر لك جميع ذنوبك " . أجابته : " منذ أن حبستنى هنا يا أبى وضعت خطاياى باستمرار أمام عينى كحمل ثقيل ، و لم أكف عن البكاء " . قال لها و الفرح يرن فى صوته : " من أجل هذا سامحك الله " .

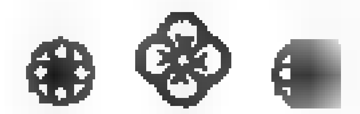
و خرجت من خلوتها و قد تجلت بنور التوبة الساطع حتى بدت أمام من رأوها كأنها ليست من هذا العالم . و كانت رؤيتهم لها هى واقع حقيقتها إذ لم تستطع أن تظل على هذه الأرض . و مر أسبوعان و هى تتضاءل فيهما يوما بعد يوم كالشمعة و هى تذوب ، أو كالزهرة النامية فى الدفء التى انتزعت إلى الصقيع . فرقدت فى الرب بعد أن قدمت المثل العظيم على فعل التوبة و على الرحمة الإلهية اللانهائية نحو الضعفات الإنسانية [1] .

و سيرة تاييس التائبة تبين لنا أيضا أن المحبة هى القوة البناءة : إنها المحبة التى دفعت بالناسك بفنوتى إلى البحث عنها ؛ إنها المحبة التى جعلت الأنبا

---

(١) " قديسو مصر " - حيث أورد جامعه بول شينو دورليان سيرة هذه القديسة فى اليوم المطابق ليوم ١٦ توت .

أنطونى و رهبانه يقضون ليلة كاملة فى الصلاة من أجلها وحدها : إنها المحبة التى أعلن رب المجد بأنها العلامة التى بها يعرف الجميع تلاميذه .



و لما كانت المحبة - كما علمنا بولس الرسول - لا تسقط أبدا ، فإنها إلى الآن ما زالت تبنى النفوس . فمقابل الأنبا بفنوتى و مسارعته إلى إنقاذ تاييس فى القرن الميلادى الثالث يقف القمص بيشوى كامل ملاك كنيسة مار جرجس بسبورتنج (الإسكندرية من ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٥٩ - ٢١ مارس سنة ١٩٧٩) . فلئن كان يفصل بينهما سبعة عشر قرنا من الزمان إلا أن محبة السيد المسيح و العمل بموجب هذه المحبة تجمعهما . و لهذا السبب قال عنه كاهن ممن عملوا معه إنه " كالنسر " فى انقضاضه على الضالين - فكان يذهب وراءهم بلا هوادة . و مع أنه نجح فى اكتساب الكثيرين ، بل إن سنة لم تمر من سنى خدمته دون أن يكتسب من يستطيع اكتسابه إلى ربه . و لكننا فى هذا المجال نقدم مثلا فيه الكفاية . و يتلخص هذا المثل فى أنه حين كان يخدم فى لوس أنجيلوس بكاليفورنيا (بأمريكا) سنة ١٩٦٩ لحظ أن شابا يداوم على حضور القداس الإلهى و لكنه يسارع إلى الخروج حالما تنتهى الصلوات . فبعد أن راقبه عدة مرات قرر أن " ينقض " عليه . ففى الأحد التالى سارع إلى باب الكنيسة و سلّم عليه و قال له : " أرجوك أن تنتظرنى " . و لما خرج الجميع إلتفت إلى الشاب فوجده يبكى . فجلس إلى جانبه فى سكون . و خلال البكاء كان الشاب مطرقا إلى الأرض . و بعد قليل سأله القمص بيشوى عن سبب بكائه . أجابه إجابة متقطعة : " ألا تذكرنى ؟ " و لم ينتظر رد أبينا بل استجمع أنفاسه و قال : " أنا فلان الذى سلب منك بعض المال من عدة سنوات " . و فى الحال كانت ذراعا أبينا بيشوى تحتضن الشاب فى حرارة و حنان و قال للباكى : " إنسَ هذا فأنت إبنى "[1] .

و غنى عن القول أن هذا " الإبن الضال " قد عاد إلى نفسه و عاد إلى بيت أبيه .

---

(١) عن كتاب : " القمص بيشوى كامل : رجل الله " للقمص لوقا سيداروس الذى هو أيضا ملاك من ملائكة كنيسة مار جرجس بسبورتنج .

٧- مع الأنبا أثناسيوس الرسولى

أ - نشر المستشرق الألمانى ديتر آهرنز مقالا بعنوان : " رسومات هندسية ذات أصل أثناسيوسى على منسوجات قبطية قديمة " - جاء فيه : إنه فى سنة ٣٣٥ م نفى الإمبراطور قسطنطين الكبير الأنبا أثناسيوس الرسولى إلى مدينة تريف (على الحدود الفرنسية البلجيكية) . و قد قضى البابا العظيم سنتين فى تلك المنطقة (التى كانت المنفى الأول له) ، و وجد بها عددا وفيرا من المناصرين له ضد البدعة الأريوسية . بل إن الروابط بينه و بين مناصريه هناك كانت وثيقة إلى حد أنه زار المنطقة مرتين متتاليتين : فى سنة ٣٤٢ م و بعدها فى سنة ٣٤٦ م . و بهاتين الزيارتين إتمام علاقات هامة بين مصر و الغاليين (الفرنسيين) . كذلك هاجم العقلانية الأريوسية و الثقافة الهللينية (اليونانية) . و هذا هو السبب فى أن يظن البعض أنه هو الذى أوحى إلى الفنانين بأن ينبذوا الأشكال الكلاسيكية و يستقوا من كنوز التأمل فى الفن الزخرفى .

و هناك تغير هام فى الأسلوب الفنى حدث من غير شك أثناء زيارة القديس أثناسيوس لمدينة تريف . فبينما كانت كتدرائيتها تُشاد ، و فى الوسط ما بين الجانبين الشمالى و الجنوبى ، أقيم جرن المعمودية بعد سنة ٣٤٠ م ، و قد تزيّن سقفه بنقوش زخرفية تتألف من خطوط فقط . و هذه النقوش تختلف اختلافا شاسعا عما سبقها . و هى مكونة من مساحات مسدسة تحيط بها مربعات و مثلثات و تتوسطها صلبان صغيرة . فهى ، و الحالة هذه ، تعبر عن الفكر المجرد . و النقوش ، فى الوقت عينه ، تتداخل معا و تتلجلج فى انطلاقة على الرغم من هندستها الثابتة فتستثير التأمل إستثارة قوية ، و تتشابه فى ذلك بالرسومات القبطية المزينة لقطعة النسيج القبطى التى حصل عليها متحف مدينة ترابر (بألمانيا الشرقية) .

و ما دمنا نربط التغيير الفنى الذى يزين كتدرائية تريف بزيارة القديس أثناسيوس ، فمن المنطق أن نعود إليه أيضا بقطعة النسيج و إلى ما تادى به من روحانية . و لقد ظلت الرسوم الطبيعية لبعض الوقت . و لكن الزخارف الهندسية

ظهرت و أخذت تتزايد إبتداءً من منتصف القرن الرابع . و الزخرفة على قطعة النسيج التي حصل عليها متحف ترابر تعطينا تتابعا من العناصر الهندسية المنسابة مع كونها جامدة ، و هي تسير في طريقها المرسوم كالكواكب . فكل نجم يتبع مساره الذي يتقاطع مع مسار النجوم الأخرى و يعود في النهاية إلى النقطة التي بدأ منها .

و هذه الطريقة في الرسومات تصور لنا وسيلة في التفكير بدلا من إعطائنا قطعة فنية - إنها تهدف إلى توجيه الفكر نحو ما هو لانهائي [1] .

ب - إن أثناسيوس الرسولي لم يقصر جهاده على الصراع ضد الأريوسية فقط بل إنه كتب الكثير من الرسائل التي ما زالت موجودة بنعمة الله و منها الرسالة التالية :

" من أثناسيوس إلى الراهب أمون أبي رهبان نيتريا : أخبرني يا صديقي المحبوب و التقي ما هي الخطية و الدنس في الإفرازات الطبيعية كأن الإنسان يعتبر مذنبا إذا نظف أنفه، أو تخلص من البصاق الذي في فمه ؟ و إذا كنا نؤمن بأن الإنسان ، كما تقول الكتب المقدسة ، هو من عمل يدي الله فكيف يمكن أن يتكون عمل نجس من قوة نقية ؟ و إذا كنا ، حسب سفر أعمال الرسل المقدس ، " ذرية الله [2] " فلا شئ نجس إذن فينا لأننا تتدنس إذا أخطأنا - و الخطية هي النجاسة الحقة . و عندما تحدث إفرازات من الجسد بدون إرادتنا فإن ما نختبره هو جانب ضروري تحتمه الطبيعة ... و أيضا يمكننا أن نقول بنفس الإدراك إنه لا يوجد إفراز بحسب الطبيعة سيقودنا إلى الدينونة . ... و الأطباء يخبروننا بأنه توجد قنوات مركبة في الجسد الحي لكي تقوم بإفراز الزائد في كل أجزاء الجسد - مثل الفضلات التي تطردها البطن و الإفراز الزائد الذي تطرده القنوات المنوية . فما هي الخطية ، أخبرني من أجل الله أيها الشيخ المحبوب من الله ؟ إذا كان

---

(1) " مجلة جمعية الآثار القبطية " المجلد ٢٥ ، سنة ١٩٨٣ ، ص ٧٧ - ٨٠ .

(2) أعمال ١٧ : ٢٨ ، راجع أيضا ما قاله رسول الأمم للعبرانيين بخصوص الشريعة القديمة و الكهنوت القديم .

الله السيد الذى صنع الجسد هو الذى شاء و خلق هذه القنوات التى تفرز هذه الإفرازات ؟ . . .

" و اتحاد الإبن بالجسد قدس الجسد . ".

أثناسيوس

أسقف بنعمة الله

واضح إذن أن مناقشة الناموس الموسوى لا مكان لها فى كتب أثناسيوس لأن الكلمة الذى تجسد ليرد الخليقة إلى ماكانت عليه قبل السقوط لا يمكن أن يحقق هذا العمل الجديد بقوة الناموس - فهو قد خلق خلقا جديدا ، و هذا الخلق الجديد يحتاج إلى سلطان لاهوت الكلمة و ليس إلى الفرائض .

و الدسقولية ، و هى القوانين الرسولية ، لا تعرف إلا حلا واحدا هو التطهير بالمعمودية الذى يؤهل الإنسان إلى حلول الروح القدس . و هذا التطهير هو بلا شك سكن الروح القدس الدائم [1] .

٨ أ - مع الأنبا ثيوفيلس - البابا الثالث و العشرين

إن الأنبا ثيوفيلس هو من كبار معلمى الكنيسة الجامعة ، بل إن الغربيين يصفونه بأنه " دكتور للكنيسة " . و مع أن أهم ما اشتهر به هو بناؤه للكنائس و الأديرة و وضعه القوانين الكنسية إلا أن هناك أعجوبة تمت فى أيامه لا يعرف عنها غير القليلين . و تتلخص هذه الأعجوبة فيما يلى : كان فى مدينة الإسكندرية

(١) إن كان الرسل الذين تتلمذوا يهودا قد رفضوا ختان الأمم و حذروا من التهود ؛ و إن كان الأنبا أثناسيوس الرسولى ثم كيرلس عامود الدين يؤكدان [illegible] هذا التعليم الرسولى و يفهماننا صراحة بالحرية التى منحنا إياها الآب السماوى فى إبنه الحبيب ؛ و إن كنا نعتز بأن السيدة العذراء الطوبية هى أمنا المحبوبة - فهل يليق بعد هذا كله أن نتمسك بالناموس العتيق ؟ و هل يليق بنا أن نظل مرددين إنتماءنا إلى حواء القديمة بدلا من الإعتزاز بانتمائنا إلى حواء الجديدة ؟ .

يهودي إسمه فيلكسينوس غنياً جداً . و كان يعمل بشريعة موسى بكل دقة . و كان يعيش على مقربة منه مسيحيان على غاية من الفقر . فوسوس الشرير إلى أحدهما بالتجديف ، فقال لرفيقه : " لماذا نتعبد للمسيح و نحن فقيران ؟ و هذا اليهودي غني جداً . " أجابه زميله : " ليس لمال هذا العالم حساب عند الله و لو كان له حساب لما أعطاه لعابدي الأوثان و للقتلة و اللصوص و الزناة . فالأنبياء كانوا فقراء و كذلك الرسل . و الرب له المجد كان فقيراً إلى حد أنه كان يعيش على صدقة المحسنين [1] . " على أن عدو الخير قسّى قلب المجدّف فلم يقبل توجيهات زميله . ثم زاد على ذلك بأن مضى إلى فيلكسينوس و رجا منه أن يقبله في خدمته . فقال له : " لا يحل لي أن أعاشر إلا من يدين بديني . فإن شئت أعطيك صدقة . " أجابه ذلك المسكين : " خذني عندك و أنا أعتنق دينك ، و أعمل كل ما تأمرني به . " فأخذه إلى مجمعهم . و هناك سأله الرئيس أمام جماعة اليهود : " أحقاً تجحد مسيحك و تصير يهودياً مثلنا ؟ " أجابه : " نعم . " و هكذا جحد المخدوع المسيح الإله أمام الجميع فأضاف إلى فقر المال عدم الإيمان . و نادى رئيس المجمع في تجهيزه و أمر بعمل صليب من الخشب . و وضعوا في يد الجاحد قصبة عليها إسفنجة مملوءة خلاً و في اليد الأخرى حربة ، و قالوا له : " أبصق على هذا الصليب . و قدّم له الخل . و اطعنه بالحربة . و قل : طعنتك أيها المسيح . " ففعل كل ما أمروه به . و عندما طعن بيده الأثمة الصليب المجيد سال منه دم و ماء على الأرض . فسقط ذلك الجاحد ميتاً يابساً كأنه حجر على الأرض . فاستولى الخوف على الحاضرين ، و آمن كثيرون منهم . و صاحوا قائلين : " واحد هو إله النصارى و نحن نؤمن به . " و أخذوا من الدم و مسحوا به عيونهم و وجوههم . و أخذ منه فيلكسينوس أيضاً و رش منه على إبنة له ولدت عمياء فأبصرت في الحال . فآمن هو و أهل بيته و كثيرون من اليهود و أعلموا البابا ثيوفيلس بكل ما جرى . فأخذ معه الأب كيرلس (الذي صار خليفته على السدة المرقسية) و عدداً من الكهنة و الشمامسة و الشعب و أتوا جميعاً إلى مجمع اليهود . و حين أبصر الدم و الماء أخذ منه و تبارك به و بارك من معه أيضاً . ثم جمع الدم و الماء في إناء للبركة . و أمر بحمل الصليب إلى الكنيسة . و بعد أن أخذ إقرار الحاضرين

---

(1) يوحنا ١٣ : ٢٩ ، لوقا ٨ : ٣ .

بإيمانهم عمدهم باسم الآب و الإبن و الروح القدس . و باركهم . ثم عاد كل منهم إلى منزله شاكرين السيد المسيح و ممجدين إسمه القدوس .

فحقا ما أرهب قوتك يا صليب الفادي الحبيب .

٨ ب - كان من معاصري الأنبا ثيؤفيلس أسقف إسمه سانيسيوس . ولد حوالى سنة ٣٧٠ م من عائلة قيروانية شريفة ربّته على الإرتباط بالماضى العظيم الذى لوطنه . و يبدو أنه فقد أبويه فى سن مبكر إذ لا يوجد بين أيدينا إلا القليل عن نشأته . و حين كان طالبا أبدى حماسة متقدة للفلسفة . و قد قضى فترة من شبابه بالخدمة العسكرية إكتسب خلالها المهارة و قوة الإحتمال . و يغلب الظن أنه ذهب إلى الإسكندرية و هو فى السابعة عشرة أو ما يزيد . و هناك تمكن من أن ينتفع بالمكتبة العظيمة و المتحف الضخم . و بهره المجتمع المثقف كما أذهلته الروحانية و الأفكار العليا .

و لما بلغ السابعة و العشرين إنتخبه مواطنوه - على الرغم من صغر سنه - للذهاب إلى أثينا لكى يدافع عنهم فيما أصاب بلادهم من قحط نتيجة لإغارة الجراد عليها أمام الإمبراطور أركاديوس . و فى تلك الأثناء استطاع أن يتصادق مع أشخاص مرموقين فى القسطنطينية . و بعد جهود عنيفة تمكن من مقابلة الإمبراطور . و يرجع ذلك إلى صداقته التى ربطت بينه و بين أوريليانوس قائد الحرس البريتورى [1] . و قد ترافع سانيسيوس أمام الإمبراطور فى حضرة البلاط الإمبراطورى بكامل هيئته ، فقدّم لظلامته بكلمة بليغة ما زالت موجودة إلى الآن . و لقد أطرى جميع المؤرخين على خطبته لما اتسمت به من الصراحة الجريئة ، و ما احتوته من مفارقات عجيبة معروفة لدى الحاكم المطلق . و أبرز ما تميزت به نغمة الرجاء التى سادتها . و قد وصل إلى نتيجة سارة فى دفاعه كما يتضح من إشاراته العديدة إليها . و لقد كانت الفترة التى قضاها فى محاولاته و دفاعه فترة عصيبة عليه مما أكسبه نفوذا متزايدا . و يبدو أنه اعتنق المسيحية آنذاك . و نحن نعرف

(١) الحرس البريتورى كان الحرس للقيصر نفسه و بالتالى كان رجاله ذوى نفوذ واسع .

من مزموره " الثالث أنه زار الكنائس أثناء سيطرة القلق عليه . و مما لا شك فيه أنه أصغى إلى ذهبي الفم .

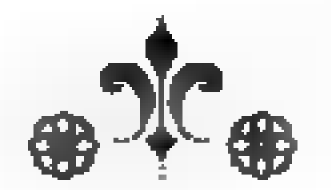
و عاد إلى القيروان سنة ٤٠٢ م . و بعد ذلك بحوالي سنة ذهب إلى مصر فاكتسب البابا ثيؤفيلس حبه و تقديره . و أغلب الظن أن بذور المسيحية و الوعي بتعاليمها و عقائدها قد تأصلت فيه نتيجة للصداقة التي ربطت بينه و بين البابا الإسكندري الكبير : و قد قضى سانيسيوس سنتين في عاصمة مار مرقس ثم عاد إلى وطنه .

و في سنة ٤٠٩ م تنيح أسقف بتولومايس فقرر الشعب اختيار سانيسيوس لهذه الكرامة . و قد فرح البابا ثيؤفيلس بهذا الإختيار و أقام شعائر الرسامة المقدسة لفوره . و يعبّر الأسقف الجليل عن عرفانه بالثقة التي أولاه إياها الشعب . و لكنه أبدى مخاوفه من أن اكتساب رضى الناس قد يؤدي به إلى الخطية . فحاول قدر إمكانه أن يهرب من الرسامة . و لكن الإلحاح المتكاثر جعله يرضى . و أخيرا رضخ معترفا في خشوع بأن هذا الرضى هو الخضوع للإرادة الإلهية التي لا بد ستؤازره فتجعله يستطيع القيام بمسئولياته .

و كان سانيسيوس يحب السلام بكل جوارحه و لكنه وجد نفسه وسط صراعات لا يرتضيها مما جعل قلبه يقطر دما على شعبه . و أمام المسئوليات الكبرى جمع مجمعه للنظر فيما اقترفه البعض من انتهاك للحرمات و من الإصرار على عدم التوبة . فاضطر – مع توجعه – إلى إصدار الحرم عليهم . و على الرغم من هذا الحكم فقد ترافع عنهم أمام البابا ثيؤفيلس كما حماهم من بطش السلطة الزمنية . و هنا صورة بهيرة لسلطة الكنيسة خارج المجال الروحي تتبين منها مدى الأمان الذي يسبله أسقف قوي على شعبه ضد التحكم المطلق .

و لقد حاصر البربر بتولومايس كما هددوا مصر . فكانت السنوات الأخيرة للأسقف سانيسيوس مرهقة له و لشعبه بما سادها من اضطراب و قلق . و من المتواتر أنه تنيح سنة ٤٢٣ م .

و لقد ظلت ذكراه تتردد بين الناس إلى حد أنه بعد قرنين من نياحته كانوا يصفونه بـ " الأسقف الفيلسوف الصالح [1] " .



السطور الأخيرة من " تسبحة للسيد المسيح " ترنم بها الأسقف سانيسيوس القيرواني :

سلام منك أيها الآب مصدر الإبن ،
سلام منك أيها الإبن صورة الآب ؛
أيها الآب - أنت الخلفية التي يقف عليها الإبن ؛
الإبن ختم الآب ؛
أيها الآب قوة الإبن ؛
الإبن جمال الآب .
أيها الروح القدس -
الروح النقى : الصلة الجوهرية
بين الآب و الإبن .
أرسل أيها السيد المسيح -
أرسل الروح القدس ،
أرسل الآب إلى أعماقي -
أغمر قلبي بهذا الندى :
أكمل هدية منك -
لكي تنتعش روحي به [2] .

---

(١) " سانيسيوس القيرواني " ترجمة المستشرق نيكول عن اليونانية إلى الإنجليزية ؛ إدوارد روشي : " مصر المسيحية " [بالإنجليزية] ص ١٠١ .

(٢) عن " السر و المثال " ، أشرف على نشره أولتشين ، ص ١٤ ، نقلا عن : " عبارات مسيحية أولى " .

٩- إيمان الأيبيريين (الإسبان) بالسيد المسيح

إن قصة قبول أهل أيبيريا للإيمان المسيحي بفضل أسيرة يسميها القبط ثيئوجنوستي معروفة لنا من مصادر عديدة : فإلى جانب المصادر اليونانية و اللاتينية نجد المصادر الجورجية [1] و الأرمنية . و من المؤسف أن المصدر القبطي ليس كاملا إذ وصلنا في أجزاء متناثرة ما بين رومية و باريس و بطرسبورج (موسكو الآن) و القاهرة . و أول هذه الأجزاء محفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس و يتضمن وريْقة تحمل ناحية منها رقم ١٣١ و لا تحمل غير إثنى عشر سطرا على وجهها و أربعة على ظهرها . و المخطوطة الثانية تتألف من وريْقتين لا يتتابع الحديث فيهما ، و هي جزء من مجموعة بورجيا المحفوظة بكلية البروباجندا برومية - و قد سجلها المستشرق زويجا . أما المخطوطة الثالثة فهي المحفوظة بمكتبة أكاديمية العلوم في بطرسبورج ، و هي ضمن مجموعة البحاثة الروسي تيشندورف ، و حالتها يرثى لها . و هي تتضمن ثلاث وريْقات : الأولى ضاعت السطور التسعة من العامود الأول لظهرها ، كما ضاعت غالبية عامودها الثاني فلم يبقَ به غير بعض حروف متناثرة . و الوريقة الثانية تشابه الأولى . بينما الثالثة في حالة لا بأس بها إذ يمكن مطالعتها على الرغم مما فيها من نقص . و هي تتضمن آخر جزء من القصة .

أما ما جاء في المخطوطة الأولى (بباريس) فهو كما يلي : الوجه - العامود الأول - سيرة المغبوطة العذراء ثيئوجنوستي المحبوبة من المسيح يسوع و التي أكملتها ... الظهر - العامود الأول - " أونوريوس و أركاديوس ولدا الملك المحب لله ثيئودوسيوس ... " . العامود الثاني " ... بوصفه الوالي ... و قد منحاها الغنى أيضا . و بعد أيام أعطياها حرية الرجوع إلى بلدهما . و بينما هم خارجون من بلاد الروم ...

---

(١) جورجيا كانت دولة مسيحية عظمى إلى أن قهرها الترك ، و هي الآن ضمن جمهوريات الإتحاد السوفييتي ، أنظر أيضا ما جاء عن على بك الكبير بصدد جورجيا في جـ ٤ لهذا الكتاب ص ١٥٣ - ١٥٥ .

المخطوطة الثانية (فى رومية) : بعد أن يذكر آميلينو - المستشرق الفرنسى - أن الصفحات غير متتابعة يسرد جهاد الأسقف ثيئوفانيوس ، ثم ينتهى على النحو التالى : و قد عاد المغبوط ثيئوفانيوس إلى بلاد أبيبريا فوجد الكنيسة التى بنوها بعناية فائقة و بذخ أيضا . و قد قصروا عليه الآيات التى تحققت بصلوات القديسة العذراء ثيئوجنوستى و على الأخص بقوة السيد المسيح و بالصليب المقدس . (الظهر ص ١٦٢) " ففرح فرحا عظيما . و لفوره أعلم الملك و رئيس الأساقفة بخطابات على هذا النحو : ثيئوفانيوس الحقير يجسر أن يكتب إلى أولئك الذين وثقوا فيه و ائتمنوه على أسقفية بلاد أبيبريا . إعلموا أن الوعد الذى نطق به مخلصنا الصالح لرسله المكرمين حين قال لهم : « إن كان لكم إيمان تقولون لهذا الجبل إنتقل من هنا فينتقل » قد منحه لخادمته القديسة العذراء ثيئوجنوستى . فالعامودان المرمريان الكبيران اللذان كانا يزيّنان معبدا قديما إسمه " ماتنيس " و المعبود الذى يسمونه أبوللو كان العمال ينوون رفعهم (أى العامودان و التمثال) ليضعوهم فى الهيكل بحجة جعلهم قاعدة للمذبح ، فأعدوا الآلات الكبيرة لانزلاقهم و لكنهم لم يجدوا الوسيلة . . . .

المخطوطة الثالثة (فى بيترسبورج) : الوريقة الأولى - الوجه - العامود الأول : " . . . لقد أرسلنى أبى أستاثيوس لأقول لك أيتها المرأة أن تأتى و تعتنى بأجسادنا . فإن شئت إصنعى معروفا معى و إلا فإنى أطالبك . . . " . العامود الثانى - " أجابت قائلة . . . " . الظهر - العامود الأول " . . . " العامود الثانى - " إذا ما احترقت أجسادنا بالنار تقبلها إليك كذبيحة مرضية أيها الرب . إعطِ إذن النعمة يا سيدنا لكى إذا ما تذكرنا أحد على الأرض بإيمان ينال الراحة فى ملكوتك . . . " . الوريقة الثانية - الوجه - العامود الأول - " . . . و النار لم تستطع السيطرة على أجسادهم و لم تحرق حتى شعور رؤوسهم . . . " . العامود الثانى - " و حينما وضعوهم خارجا و أوقفوهم على الأرض وجدوا أنهم أكملوا جهادهم . و تملك الخوف على كل أولئك (الذين كانوا هناك) لأن النار لم تمسهم و لأن شعور رؤوسهم لم تكن محروقة فى حين أن أجسادهم كانت تلمع كالثلج . . . " . الوريقة الثالثة - الوجه - العامود الأول - " . . . القديسة ثيئوجنوستى أرسلت عبيدها فأخذوا الأجساد المقدسة و لفوها بالحرير و وضعوها

داخل توابيت و دفنوها ... " . العامود الثانى - " فى ذلك اليوم كسيت ... من النفس ... " . الظهر - العامود الأول - " ... " العامود الثانى - " أيها الرب يسوع المسيح إصنع رحمة مع الأخ الذى اهتم بهذا الكتاب و وضعه فى كنيسة الأنبا تزما . و كذلك الإخوة الذين من مدينة بيوم (الفيوم) آمين . و اذكرنى أنا أيضا الشماس يوسف التلميذ و الخادم لله و للأنبا تزما . صلوا من أجلى لكى يتراءف الله علىّ آمين . " .

" تبعا لزمان القديسين الشهداء ... " .

و لقد جاء فى السنكسار بتاريخ ١٧ توت : لقد حفظت لنا الكتب الأثيوبية ملخصين لسيرة القديسة ثيئوجنوستى : الأول جاء فى السنكسار الأثيوبى فى ١٧ من شهر موسكرام ، و الثانى مسجل فى التاريخ الذى كتبه يوحنا النيقيوسى . و تبعا للترجمة عن الكتاب الإخير يقول الملخص : " بعد وفاة (قسطنطين) تعلم أهل اليمن أن يعرفوا الله و صاروا مستنيرين ببهاء مجد سيدنا يسوع المسيح له المجد بجهود سيدة قديسة إسمها ثيئوجنوستى " .

و يعلق أميلينو على الإختلاف بين المخطوطات بأن هناك شخصيتين متباينتين بهذا الإسم . ثم يضيف بقوله : " إن هذه ليست سوى ميمر للبنات - و هذا فن أتقنه القبط منذ زمان [1] " .

١٠ - مع كيرلس الأول عامود الدين

أ - لقد كانت رسالة البابا كيرلس الأولى إلى نسطوريوس مليئة بالمحبة و الإعتبار إذ يلقبه بـ " الأسقف عميق الدين المحبوب من الله " . و مع ذلك فنسطوريوس أحس بأن هذه الرسالة جرحته ، فأبدى تظلمه فى رده مدّعيا بأن كيرلس عامله

---

(١) إن التهمة التى ألصقها بنا أميلينو شائعة بين عدد من الكتاب الغربيين . على أن الذى يهمنا هنا أن المرأة قامت بنصيبها فى الكرازة . و لو افترضنا جدلا أنه على حق لتضاعف زهونا نحن النسوة إذ نجد أن أحد الآباء الرهبان حين أراد أن " يؤلف " قصة عن الجهاد الكرازى جعل بطلتها إمرأة .

بغير رقة . و لقد كان الأنبا كيرلس في موقف يستطيع منه أن يعي كل عثر كما أثبت ذلك في رسالته الثانية إلى نسطوريوس – هذه الرسالة التي كانت دراسة لاهوتية كشفت عن دقائق التلاعب اللغوى الذى أبداه المبتدع .

و لقد وصف بعض الأشخاص حماسة الأنبا كيرلس بأنها متناهية . و الواقع أننا نجد مثل هؤلاء الداعين إلى الإعتدال في كل وقت و مكان . و الواقع أيضا أنهم لا يدركون الإيمان في عمقه . و لا الواجبات التي يحتمها هذا الإدراك ، فهم لذلك يقابلون الحكمة الراعية بشئ من اللامبالاة . و لقد أجاب البابا الكبير على أحد معاتبيه قائلا : " أنت تعرفني و تعرف تماما أنه لو كان الأمر يتعلق بأمورى الخاصة لضحّيتها بلا تردد إرضاء لأخ أو صديق . و لكن الأمر يتهدد الإيمان ذاته . " و الملحوظ على البابا كيرلس في كل كتاباته أنه كان يستهدف توضيح الموضوعات المطروحة للمناقشة و الإبتعاد عن تسميم النقاش بالتعجل في الحكم على الأشخاص . و انشغل بصفة خاصة في الكشف عن السفسطة التي كان يتستر بها النسطوريون ليخفوا بها آراءهم الخاصة الخاطئة . و لهذا الهدف عينه وضع كتابه عن التجسد الإلهي [(١)] .

و حين اجتمع الآباء في أفسس (المجمع المسكوني الثالث) رأوا أن يتدارسوا المسألة العقيدية و يوضحوها بالتقليد الرسولي . فقرأوا سلسلة من الأقوال مأخوذة عن آباء الكنيسة عبروا فيها بوضوح تام عن الإيمان الأصيل باتحاد اللاهوت و الناسوت في السيد المسيح . و هذه الأقوال أخذوها من كتابات بطرس خاتمة الشهداء و أثناسيوس الرسولي و ثيئوفيلس الإسكندرى . و قد علّم جميعهم أن الكلمة صار جسدا فعلا . فقد قال الأنبا بطرس الشهيد الموقر : " إن الله الكلمة قد وُلد و أخذ جسدا من الحشا البتولي . " في حين أن الأنبا أثناسيوس كرر إستعمال كلمة " ثيئوتوكس " بكل ثقة و علّم شعبه " أن الكلمة أصبح إنسانا بالحقيقة و بكل دقة المعنى . و بغير هذا ما كان يمكن أن يكون مخلصنا ." بينما أكد الأنبا ثيئوفيلس : " إن الله قد وُلد و قد مات . " .

---

(١) جيتى : " تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) جـ ٤ ص ٣١٥ .

و بعد انفضاض المجمع و التصالح مع أنطاكية أعلن البابا كيرلس فى دفاعه عن هذه الحقيقة هذا التصريح : " إن ذاك الذى كان منذ الأزل و الذى ظهر على الأرض فى الأزمنة الأخيرة هو الواحد بعينه : و هو بوصفه الله من جوهر الله الآب ، و بوصفه رجل فهو مولود من إمرأة . و نحن نعلن أن هناك إتحاد بين الطبيعتين و نعترف اعترافا صريحا بالمسيح الواحد هو الإبن الوحيد للآب [١] . " .

ب - و لما كا إبن الله قد جاء مولودا من إمرأة ، و لما كان موضوعا علينا نحن المسيحيين أن نداوم على السعى وراء الكمال الذى وضعه لنا فادينا الحبيب ، يليق بنا أن نتمعن تعليم الأنبا كيرلس الكبير فى ناحية برزت أهميتها بإزاء البلبلات التى شوهت جمالها . و هذه الناحية هى : كيف يفهم البابا الكبير الزواج و كيف يراه فى إطار معجزة قانا الجليل - إنه يقول : " إننا لا نعبد حسب الناموس و إنما حسب الروح : " تعبد بالروح و الحق " . و الحق معناه أن كل الأشياء جديدة فى السيد المسيح . و النص المقدس فى يوحنا يدعونا إلى أن نبتعد عن الناموس و العادات القديمة [٢] . بينما يكتب بولس الرسول : « لقد إنفصلتم عن المسيح أنتم الذين تريدون أن تتبرروا بالناموس [٣] » . و السيد المسيح هو رأس الخليقة الجديدة الذى أعاد الخليقة إلى ما كانت عليه قبل السقوط - أى قبل الناموس . " . . .

" كان عرسا و وليمة " . و يوحنا الرسول يهدف إلى أن يقول لنا إن هذا فى حد ذاته شئ مقدس حضرته أم المخلص : و هو أيضا جاء إلى العرس مع تلاميذه . جاء بالأكثر لكى يقدس الجنس البشرى . و أنا أعنى بشكل خاص أن يقدس ما يخص الجسد . و كان من اللائق أن الذى جاء لكى يجدد طبيعة الإنسان و يعيد خلقها من جديد و بالكامل إلى ما هو أفضل أن لا يقصر منح بركته على من دعاهم من العدم إلى الوجود فقط ، بل أيضا يهيئ نعمة للذين

---

(١) هيفيليه : " تاريخ المجامع " [بالفرنسية] جـ ٢ ص ٣٦٤ .

(٢) كما يتضح من الحوار الساخن بين السيد المسيح و السامرية - يوحنا ٤ : ١ - ٢٦ .

(٣) غلاطية ٥ : ٤ .

سيولدون فيجعل مجيئهم إلى العالم مقدسا . و هناك سبب جذري : لقد قيل للمرأة من الله : « بالوجع تلدين أولادك [1] » . فكم كانت الحاجة ماسة إلى أن تخلص من هذه اللعنة أيضا – و إلا فكيف يمكن أن تهرب من الحكم على الزواج بأنه لعنة ؟ و لأن المخلص محب البشر فهو قد رفع هذه اللعنة أيضا إذ هو مسرة و فرح الكل . و هذا ما جعله يكرّم الزواج بحضوره شخصيا لكي يطرد العار القديم عن الحبل و الولادة .

و زيادة في التوضيح يقول الأنبا كيرلس [2] : " إن أشياء كثيرة تمت معا في وقت واحد في أول معجزة : الزواج المكرّم صار مقدسا . اللعنة التي وُضعت على المرأة رُفعت – فلم يعد مجال للكلام عن " بالحزن تلدين الأولاد " ، لأن السيد المسيح بارك بداية ولادتنا و مجد المخلص أشرق مثل الشمس . و لقد تم الزواج في قانا الجليل : لم يكن في أورشليم و لا في اليهودية و إنما في الجليل مقاطعة الأمم كما يقول أشعياء " جليل الأمم [3] " . "

إذن فعلينا أن ندرك أننا لا نستطيع وضع تشريعات العهد القديم مع التدبير الإلهي . و لكي نصل إلى هذا الإدراك علينا أن نتأمل بعض النصوص الخاصة بالسيدة العذراء عند المدافع الأول – كيرلس الكبير – عن لقب " ثيئوتوكس " : والدة الإله . إسمعوه يقول :

" لم يكن التجسد عبثا . و لم يكن حدثا خاصا بشخص واحد هو يسوع . إنما كان تحولا في الطبيعة الإنسانية . و هذا التحول ذو موضوعين أساسيين : ١- اللعنة التي لحقت بالمرأة ، ٢- تقديس المرأة .

---

(١) تكوين ٣ : ١٦ .

(٢) في شرحه ليوحنا ٢ : ٧ و ١٠ .

(٣) أشعياء ٩ : ١ .

" و الموضوع الأول يعلن لنا أنه قبل مجئ السيد المسيح كانت المرأة تحبل و تلد الأطفال للموت . فكانت الحياة بابا يؤدي إلى الموت . هذه هي اللعنة التى حلت بالمرأة . و لقد تجسد الله الكلمة لكي يبيد اللعنة التي حلت بالمرأة الأولى [١] . و قد رفع التجسد اللعنة بأمومة السيدة العذراء للجنس البشرى . فإن امرأة ولدت عمانوئيل بالجسد - ولدت ذاك الذى هو الحياة . و بذلك أزال قوة اللعنة عندما وضع نهاية للموت و أزال معها الحزن الذى كان قد أثقل الأمهات . و اللعنة هى الحزن . و الحزن مصدره الموت و ليس إفرازات الجسد .

و حين ظهر الرب للنسوة قال لهن : « سلام » . و هذه الكلمة صادرة عن نفس الإله الذى أصدر الحكم باللعنة ، و هى كلمة تعنى للنسوة جميعا الخلاص من اللوم و نهاية اللعنة . و هذا ما جعل بالضرورة أن تنال النسوة نعمة الكرازة بالقيامة قبل الآخرين . لأن المرأة الأولى ، فى القديم ، أغوت آدم لكى يعصى معها ، فأضافت إلى إغراء الحية إغراء جديدا و بالتالى صارت هى نفسها مصدرا للموت . ألم يكن من الضرورى إذن أن الذنب الذى أحاط بالمرأة يُرفع عندما تلتقى بالسيد المسيح القائم و تنال نعمة الكرازة للرسل أنفسهم ؟ لأنه « حيث كثرت الخطية إزدادت النعمة جدا [٢] » . و لقد أعطيتْ البشارة بإنجيل الخلاص للنسوة ، و هن كن خادمات للموت ، و قال لهن السيد المسيح « سلام » - و هى عبارة ضرورية صادرة من الذى أصدر حكم اللعنة فى البدء . و هكذا انقُذيت النسوة ، مما حدث فى القديم .

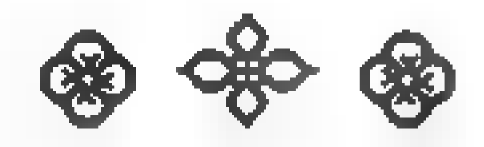
أما الموضوع الثانى فيعلق الأنبا كيرلس الكبير على ما قيل عن ذبيحة الخطية : " كل من مس لحمها يتقدس [٣] " كما يلى : " هل حدد الناموس رفض

(١) فى تفسيره لمتى ٢٨ : ٩ و لوقا ٢٤ : ٩ .

(٢) رومية ٥ : ٢٠ .

(٣) لاويين ٦ : ٢٧ .

رفض المرأة فى البركة ؟ ألا يتقدس جنس النساء معنا ؟ و الحق أن كل ما جاء فى الناموس كان رموزا وظلالا – إذ أنه فى السيد المسيح لا ذكر و لا أنثى . تأملوا حديث الرب مع السامرية لتتيقنوا أنه ليس للرجال فقط وهب الإيمان . إنه صياد ماهر يمسك أيضا بالنساء فى شبكته . و يا ليت حديث الرب مع " إمرأة من السامرة " يصبح نموذجا للمعلمين فى الكنيسة فلا يرفض أى منهم خدمة النساء ، لأنه على الإنسان أن لا يخدم وفقا لرغباته بل من أجل بشارة الإنجيل . " .



هـ – تركيد لتعاليم البابا الكبير الأنبا كيرلس الأول

إن الباحثين لا يجدون إشارة واحدة عند الآباء الذين شرحوا سفرى اللاويين و التثنية إلى التزام الكنيسة المسيحية باعتبار الأم نجسة لمدة أربعين يوما فى حالة ولادة ذكر و ثمانين فى حالة ولادة أنثى . فليس لدى الآباء جميعا نصا واحدا يبين أن الكنيسة أخذت بهذه الممارسة ... و كل ما لدينا من نصوص يهودية أو وثنية لا يشير إطلاقا إلى قصة السقوط أو علاقة غواية حواء بفترة التطهير بالمضاعفة فى حالة الأنثى .

و من المؤكد لدينا أنه لا توجد إشارة واحدة إلى علاقة الأم بالجنين أو إلى فترة تطهير فى الخمسمائة سنة الأولى للمسيحية : لا فى التشريعات القانونية للمجامع المسكونية و لا فى قوانين الرسل و لا فى التقليد الرسولى .

و إذا ما تذكرنا أن عيد القيامة المجيدة كان مناسبة التعميد فى الكنيسة الأولى ، و أنه من المستحيل أن تلد النساء قبله بأربعين يوما أو بثمانين أمكننا أن ندرك أن هذه القاعدة لم تكن معروفة فى زمان الآباء : ليس بسبب تحديد

المعمودية فقط ، بل أيضا لأنها لم تكن معروفة فى القوانين الكنسية على وجه الإطلاق .

و بدراسة المخطوطات التى تحتوى الصلوات الخاصة بالمعمودية يتكشف لنا أن القسم الخاص بالصلاة على الأم بعد أربعين يوما (أو ثمانين) من الولادة و التى تسبق خدمة التنصير فى الكتب المطبوعة لدى الكنيسة القبطية لم يكن معروفا حتى نهاية القرن الثالث عشر . و أول ما نراها فى كتب " مصباح الظلمة " لإبن كبر ، فى الفصل الرابع من الجزء المعروف بـ " قوانين الملوك " - و هو الإسم العربى لمجموعة القوانين الرومانية [1] . و هو يقول إن هذه القوانين مأخوذة من العهد القديم ، و هى تنظم العلاقات المدنية بين السادة و العبيد [2] . ثم يأتى القانون 18 فيقول : " تطهير المرأة من دم النفاس الخاص بالذكر و الأنثى " . و لقد دس ابن العسّال هذا القانون ضمن " المجموع الصفوى " . و لكن كيف ؟ و متى دخلت قوانين الملوك ؟ إنها دخلت عن طريق مجمع " إن ترولو " .

و يقول المثل : " شر البلية ما يضحك " ، و ينطبق هذا المثل تماما على كنيستنا العريقة فى العصر الحالى من تطبيق الشريعة الموسوية فيما يتعلق بتطهير المرأة من دم النفاس الخاص بالذكر و الأنثى الذى قال عنه إبن كبر إنه من " قوانين الملوك " . فلقد تمسك الأباء الأوائل بحرية الكنيسة و رفضوا رفضا قاطعا أن يخضعوها لأحكام الملوك ، و لولا إصرارهم هذا لوافقوا على قرارات مجمع خلقيدون المشئوم ! و مما يضاعف الوجع أن مجمع " إن ترولو " الذى قرر العمل بمقتضى الشريعة الموسوية قد تسمى بهذا الإسم لأنه انعقد تحت قبة القصر الملكى سنة 692 م . و لنتمعن هذا المجمع لندرك مدى طغيانه على كنيستنا : لقد دعا إلى عقده الإمبراطور يوستينيانوس الثانى و رأسه شخصيا زعما منه أنه رئيس الكنيسة بالضبط كما أنه إمبراطور الدولة ! و لقد تجاهل الخليفة الشرعى لمار مرقس

---

(1) لقد استبد بنا الرومان و اضطهدونا و ما زالوا بلاهوتنا يتمسكهم حتى فيما يتعلق بالقانون الكنسى .

(2) لقد زالت العبودية تماما فما ورد عنها فى القانون قد طُوِىَ طى النسيان - إذن فهذا قانون إنقضى به العمل تماما .

فوجه دعوته إلى عميله الذى فرضه قهرا على الكرسى المرقسى حتى بعد أن كانت إمبراطوريتهم قد تقلصت و انسحبت بقوة السلاح من الشرق الأوسط كله . فالإمبراطور الذى ظلمنا و المجمع الذى لم نحضره – هذان بعينهما هما اللذان يحكمان على كنيسة مار مرقس و خلفائه الأماجد باتباع الناموس الموسوى فيما يتعلق بمعاملة المرأة – هذه المرأة التى أكرمها آباؤنا الأصيلون كما رأينا من كتابات عامود الدين ، بل كما قرأنا من كتابات إبن المكين [1] الراهب القبطى الذى عاش فى القرن الثالث عشر . و هنا يحق لنا أن نتساءل أليس من العجب بمكان أن راهبا عاش فى فترة نصفها بـ " الفترة المظلمة " يدرك عمق النظرة المسيحية إلى المرأة أكثر من بعض الآباء العائشين فى قرننا العشرين الذى نتباهى به بأنه " عصر النهضة [2] " ؟!

د – و لو رجعنا إلى ما قبل عهد الأنبا كيرلس الكبير : إلى الفترة التى جلس فيها الأنبا ديونيسيوس [3] على السدة المرقسية لسمعناه يقول : " إن المناداة بوجوب إمتناع المرأة من حضور الكنيسة و من التناول المقدس تكاد تعنى أن السيد المسيح كان يجب عليه أن يقيم حياة عدم الفساد على الأرض . لأن كل ما يحيط بالإنسان من أمراض و تعب و عرق و وجع الولادة هو مثل بقاء الجسد بعد المعمودية ، و مثل بقاء كل القوانين الخاصة بحياة الجسد بعد الإتحاد بالسيد المسيح فى سر الإفخارستيا . " .

١١ – مع رئيس المتوحدين

أ – لقد تمكن الأثريون الفرنسيون من أن يحصلوا على عدة مخطوطات من الدير الأحمر الذى كان يرأسه أولا أنبا بجول ثم خلفه فى الرياسة إبن أخته الأنبا شنودة الإخميمى . و قد إستثارت هذه المخطوطات الرغبة فى الإستزادة : فواحدة

---

(١) راجع حـ ٢ من هذا الكتاب ص ٣٢ ، حـ ٣ ص ٢٥١ – ٢٥٧ .

(٢) راجع كتاب " المرأة المصرية فى مواجهة المسيح " للمؤلفة .

(٣) وردت سيرة هذا البابا الجليل فى حـ ١ من هذا الكتاب ص ٨٢ – ١٠٠ تحت عنوان " معلم مسكونى " .

منها على الرغم من صغر حجمها و مع ما فيها من تمزق تتضمن ما يمكن اعتباره تاريخا عن السيد المسيح بقلم مجهول . و ترجمتها الفرنسية عن القبطية هي ما يلي : " ... في ألف جهة من المسيح ... إن ما يجب قوله هو هذا - إن لم تستطيعوا تطهير نفس الإنسان الخاطئ لتمكينه من معرفة الله ، فعلى الأقل لا تنجسوا نفوس الأتقياء بأن تملأوا آذانهم بتعاليم ملتوية ... فيا أيها الإنسان ما هي قيمة هذه الكلمات لك ؟ هذه الكلمات القادرة أن تجمع الآلاف في أنشودة واحدة - أي الكلمات الأسفار الإلهية . إذن فلماذا تحفرون آبارا مشققة ؟ عظيمة هي الأعماق التي يتفجر منها ينبوع الحياة ، و هذا الينبوع يتدافع و يتناثر كالشلالات ... أكرموا الرسول الذي قال : أحب خمس كلمات يرددها قلبي أفضل من عشرة آلاف كلمة لا تصدر إلا عن لساني . فالخير أن نتكلم قليلا من أن نتصارع مع السامعين بسيل من الكلمات . لأن مثل هذه الكلمات لا ترتد عن القلوب فقط بل تقرع الأسماع قرعا فارغا أيضا . و الملهمون بالروح القدس يتكلمون تبعا للأسفار الإلهية و يتركون جانبا الكلمات الموجودة في الكتب الغريبة . فموسى النبي الكبير لم يحمل للشعب غير عشر وصايا ، و هذه الوصايا العشر و كل ما تبعها لم تأتِ إلا من الله الكلي القدرة الذي عمل في نبيه الذي كانت روحه عاجزة لأنها ليست سوى روح إنسان . و لكنها تمكنت بفاعلية الروح القدس من أن تتكلم بأسرار مقدسة - أي أن تتنبأ عن جسد السيد المسيح و دمه الأقدسين . و ليس من غير الممكن على الإنسان أن يقول : إن السر المقدس هو الجسد و الدم الأقدسان اللذان للسيد المسيح إبن الله الوحيد . و لكن لن يستطيع أن يقول هذا ما لم يكن الروح القدس حالًا فيه ... " .

ب - و المخطوطات المصرية تستثير الدهشة : فهذه المخطوطات الإخميمية يتضمن بعضها نصوصا قبطية بينما ينفرد البعض الآخر باليونانية . و إلى جانب الموضوعات الدينية نجد موضوعات أدبية و تاريخية و فلسفية . على أن الأدهش من هذا كله العقود و كشوف الحسابات التي تكشف عن الحياة اليومية و الإقتصاد الإجتماعي و الفردي في عهود مختلفة . ثم تأتينا مفاجأة فريدة هي مخطوطة في شكل كتاب مجلد تتعلق بالعلوم الرياضية . و صفحات الكتاب أنيقة ، و الخط كبير منمّق مرتّب في أعمدة : بعض الصفحات بها خمسة أعمدة و بعضها بها

ستة . و الهامش يحيط بكل صفحة كأنه إطار . و يبدأ الكتاب بجداول للقسمة تتبعها مجموعة من المسائل . و ليس هناك أي دليل على تاريخ كتابته و لكن المؤلف مسيحي من غير شك لأن الصليب مرسوم فوق بعض المسائل و تحت البعض الآخر .

و قد قسم المترجم حديثه و ترجمته إلى الأقسام التالية : ١- موضوعات عامة ، ٢- كيفية الخط ، ٣- جدول القسمة : أ - محتويات الجداول ، ب - تكوين الجداول ، حـ - استعمال الجداول ، ٤- النصوص و المخطوط ، ٥- المسائل و حساب الكسور [١] .

حـ - و ما دمنا في إخميم تحملنا الذكرى إلى ما قدمته هذه المدينة العريقة في المسيحية : فهي ليست عريقة بأديرتها و بآبائها الصالحة فقط بل هي أيضا موطن الشهداء . فقد نال ثمانية آلاف و مائة و أربعون من أبنائها أكاليل المجد خلال ثلاثة أيام متتالية على يد الوالي أريانوس [٢] . و من نعمة الله أن كاتب سير هؤلاء القديسين هو الأنبا ديوجانوس أول أسقف لهذه المدينة المحبة للسيد المسيح . و لقد نال الكرامة الأسقفية على يد الأنبا ألكسندروس [٣] . و السيرة العطرة مكتوبة في شكل ميمر خاص بالقس ديسقوروس و الشماس اسقلابيوس معلمي هؤلاء الشهداء و مرشديهم . و هذا بعض ما جاء في هذا الميمر : إن المجوس قدموا ذهبا و لبانا و مرا ، و الشهداء الذين نحن بصددهم قدموا أجسادهم و دماءهم و أرواحهم . و كانوا كمن ينتقل من وليمة إلى وليمة ، بل لقد أعلنوا هم أنفسهم " إننا منتقلون من فرح إلى فرح و من نور إلى نور ! . " . ثم يقول الأسقف ديوجانوس : " إني لثابت الجنان و العزم ببركاتهم . و إن الكثير من الشابات كن يطلعن إلى عندهم (في الجبل) و بمجرد أن يشاهدن نسكهم و زهدهم ترجع إليهن

---

(١) " مذكرات البعثة الفرنسية للآثار " حـ ١ ، ص ٣٩٥ ، لأوريان بوريان ، حـ ٢ المقدمة .

(٢) لقد شابه هذا الوالي رسول الأمم إذ قد بدأ مضطهدا للكنيسة و انتهى بالإستشهاد - راجع سيرته في ٨ برمهات من السنكسار .

(٣) وردت سيرته في حـ ١ من هذا الكتاب ص ١٦٢ - ١٨١ تحت عنوان " الإيمان الراسخ " .

عقولهن و يحفظن بتوليتهن للسيد المسيح . "

و لقد أقام القس ديسقورس و الشماس أسقلابيوس و أولادهم الروحيون فى البرية الجوانية خمسا و أربعين سنة ميناء خلاص لكل من يأتى إليهم و هم فى فرح و تهليل كأنهم يعيشون فى الفردوس . و يا لعجب الدعوة الإلهية إذ شملت من جاءوا فى الساعة الحادية عشرة و أخذوا أجرة النهار كله ! فبهذا العجب أنعم على هؤلاء الوثنيين نعمة الإيمان بإسمه القدوس ثم بالإستشهاد على هذا الإسم المجيد .

و من عجب الله فى قديسيه أن الجلادين تعبوا من عملهم الباطش بينما ظل المصارعون أقوياء ! و عندها خرج الوالى و أكابر الدولة إلى محلة المعسكر شرقى المدينة يصحبهم الجند و المتقدمون و معهم بانوديون أسقف أنصنا و ديسقورس و اسقلابيوس و اثنان و عشرون راهبا و أوقفوهم قدام أريانوس . فوجه الحديث إلى ديسقورس قائلا : " قد بلغنى أنك أنت الذى غير قلوب أهل هذه المدينة من عبادات الآلهة فتسببت فى أننا سفكنا هذه الدماء الكثيرة . فطاوعنى و أنا أقيمك رئيس كهنة على البربة [1] العظيمة التى لإله مدينتك . " فأجابه : " أطعنى أنت يا أريانوس لترث الملك المعد فى دهور النور . و هذا لا بد من أن يكون لك قريبا . فتندم على ما فعلت و تؤمن بالسيد المسيح . " .

ثم وعظ القديس القائد أولوجيوس و جنده . و حالما انتهى أجابه القائد : " إن قلوبنا لثابتة على الإيمان بربنا يسوع المسيح . " ثم قال لأريانوس هو و جنوده بفم واحد : " مهما أردت فافعل بنا . " فنالوا أكاليل الشهادة .

و اشتد غيظ أريانوس فأمر بخلع عينى ديسقورس فقلعوهما فورا أمامه . و كان الملاك ميخائيل قائما عن يمينه فأخذ حدقتيه من يد الجندى و وضعهما فى مكانيهما و صح نظر القديس أكثر مما كان أولا . فقال للوالى : " هأنذا صحيح أمامك . و أقول لك بأنى سأظهر لك بعد أن تقطع رقبتى من المجد الذى سيهبه

(١) " بربة " هى الكلمة القبطية ⲡⲓⲉⲣⲫⲉⲓ أى الهيكل .

لى ربى لتبصر قوة ذلك المجد العظيم . " .

و قد نال ديسقوروس و اسقلابيوس و العشرون راهبا أكاليل المجد فى الساعة السادسة من يوم الجمعة الأول من طوبة . ثم دخل الوالى مقصورته بمفرده ليستريح من الهم الذى اعتراه و إذا بالقديس ديسقوروس يعبر عليه بمجد لا يوصف ، و جلس إلى جانبه ، و قال له : " إنهض يا أرياتوس و أبصر سيدك . و شاهد جمال مجد الزى الذى به جللنى . و ها أنا أظهر لك كما قلت بالأمس لأبشرك بالبشارة الحسنة و هى إنك سوف تُستشهد على إسم ربنا يسوع المسيح فيتوجك بتاج المجد و البهاء . " .

و فى مساء اليوم عينه ظهر القديس للرجل الأمين بطرس الذى تركوه ليتولى حراسة معبدهم و قال له : " لا تحزن و لا تكتئب لكوننا قد تركناك . لأن الله العالم بالخفايا لم يؤخرك عن الإستشهاد إلا لكى يجعل لك نسلا كثيرا فى هذه البرية إذ ستكون أبا لرهبان كثيرين . و الآن قم و اخرج إلى الحاجر لنريك الموضع الذى تبنيه لإخوتك الشهداء . " .

و يستكمل الأسقف ديوجانوس : " و من بعد بنيان دير الشهداء و تكريسه صعدنا للمركز البحرى منه و كرسناه على إسم رئيس الملائكة ميخائيل لأنه كان قد تولى حراستهم . ثم أنشأنا كنيسة فى المعسكر و كرسناها على إسم والدة النور . و قد صارت هذه الكنيسة عامرة بالراهبات الناسكات . " .

١٢ - مع مريم التائبة : " على ضفاف الأردن "

أ - لقد عاشت هذه القديسة - مريم التائبة - خمسا و أربعين سنة فى برية الأردن دون أن يعرف أحد عنها شيئا . و فى السنة الخامسة و الأربعين عثر عليها القديس زوسيما عن غير قصد . و هناك مخطوطة قبطية كتبها هذا الكاهن قال فيها : إننا حين تقابلنا ركع كل منا أمام الآخر طالبا بركته . إلا أنها صممت على أخذ بركتى بوصفى كاهنا . فلما ألححت عليها قالت : " بركة الثالوث الأقدس الآب و الإبن

و الروح القدس فلتكن معك [1] . " ثم رجت منى أن أباركها . و بعد نوال البركة أخذت تسأل عن حال المسيحيين . فلما انتهينا من الحديث وقفت و وجهت نظرها نحو الشرق ، و رفعت عينيها و ذراعيها نحو السماء ، و أخذت تصلى فى صمت فترة طويلة ، بينما وقف القس زوسيما لا يلفظ بكلمة و عيناه مرتخيتان إلى الأرض . و لما طالت المدة رفع عينيه إليها فأصابه الذهول إذ رآها مرتفعة عن الأرض بمقدار ذراع ، كأنها معلقة فى الهواء . و حين سرد اختباره على الرهبان إتخذ الله شاهدا على قوله . و قد ملأ هذا المنظر قلبه دهشة و خوفا إلى حد أنه ألقى بنفسه على الأرض و العرق يتصبب من كل جسمه . و أخذ يردد " يا رب ارحمنى " . ثم لم يلبث أن استولت عليه الهواجس : ألا يمكن أن يكون ما يراه خيالا ؟ ألا يمكن أن يكون الشيطان خادعه بتصوير شكل امرأة واقفة أمامه تصلى ؟ و التفتت إليه آنذاك و أجابته على هواجسه (دون أن يلفظ بكلمة) و أكدت له بأنها ليست سوى إمرأة من لحم و دم . ثم أضافت أنها نالت الصبغة المقدسة (المعمودية) فى طفولتها فهى مسيحية . و لكى تثبت له قولها رسمت علامة الصليب المقدس على جبهتها و عينيها و شفتيها و بطنها . و بهذه الأقوال و البراهين هدأت نفسه المضطربة . و عندما طلب إليها أن تقص عليه اختباراتها منذ دخولها البرية ، فأجابته إنها خلال السبع عشرة السنة الأولى ظلت فى قلق من محاربة الشيطان و تجاربه . و كلما واجهت محارباته قرعت صدرها و بكت بدموع سخينة . ثم ذكرت نفسها بالعهد الذى تعاهدته مع السيدة العذراء و عاودت وضع نفسها تحت حماية أم النور ؛ و كررت رجاءها إليها بأن تكون شفيعتها و ضمينتها . ثم اسكملت حديثها بقولها : " و هكذا كنت أرفع عينى و قلبى باستمرار إلى تلك التى اتخذتها حصنى متضرعة إليها أن تقف إلى جانبى فى وحدتى و فى توبتى . فاختبرت على الدوام العون و المؤازرة من تلك التى ولدت لنا مصدر كل طهارة . و بهذه المساندة جزت بسلام كل المصارعات و المخاطر التى اجتاحتنى مدى السبع عشرة سنة . و مذاك و إلى الآن لم تتركنى قط والدة الإله القديسة ، بل إنها أرشدتنى و عاونتنى فى كل شئ . " و كانت خلال حديثها تردد الآيات المقدسة من المزامير و غيرها . فسألها القس زوسيما متى تمكنت من حفظها . أجابته : " إنى لا أعرف القراءة . و لكن

---

(1) ألا ترى هنا تقدير الكاهن لامرأة وصلت بتوبتها إلى قمة من القداسة !

الجدير بالمعرفة هو أن كلمة الله قوية و فعالة ، و هي تعلم فهم الإنسان و تنيره باطنيا . " .

و لما انتهت من الحديث و قام زوسيما لينصرف طلبت إليه أن يعود إليها السنة التالية و معه الأسرار المقدسة . و في موسم الصوم الأربعيني التالي أراد أن يذهب إلى البرية كما وعد . و لكنه أصيب بمرض اضطره إلى البقاء في ديره . على أنه استجمع قوته يوم خميس العهد و ذهب فوصل إلى الضفة الغربية من نهر الأردن بعد المغيب . و وقف عند الشاطئ يتأمل بدقة الناحية الأخرى و يتساءل إن كانت ستأتي أم لا ، و كيف ستتمكن من العبور إن هي جاءت . و فيما هو متحير إذ به يراها مقبلة على ضوء القمر . و حين وصلت إلى الحافة رسمت النهر بعلامة الصليب و مشت فوقه كأنه اليابسة . و ذهل إلى حد أنه كان على وشك الركوع لولا إنها منعته قائلة : " ما الذي ستفعله يا أبي ؟ أذكر أنك كاهن العلي و أنك الآن تحمل الأسرار المقدسة . " .

ثم صلى كلاهما . و تناولها الأسرار المقدسة . و ما إن استمتعت بالخبز السماوي حتى رفعت عينيها نحو السماء و قالت : " الآن تطلق عبدتك بسلام يا إلهي ." . ثم التفتت إلى زوسيما و رجت منه أن يعود إليها السنة التالية من غير أن تطالبه بشئ . فلما عاد إليها وجدها متمددة على الأرض و يداها على صدرها على شكل صليب ، و وجهها متجه نحو الشرق . فركع إلى جانبها و فاضت دموعه بكثرة حتى غسلت الجسد الراقد . ثم وجد ورقة مكتوبا عليها : " أعد إلى التراب ما هو للتراب و صلِّ من أجلي – في التاسع من أبريل ، في يوم آلام ربنا ، و بعد التناول من العشاء السري . " . و تحير الكاهن فيمن عسى أن يكون كاتب هذه الكلمات . و في الوقت عينه ذهل كيف استطاعت أن تصل إلى هذا المكان خلال ليلة واحدة بعد أن تناولت الأسرار المقدسة و ودعته لأنه هو نفسه قضى عشرين يوما ليقطع المسافة عينها !

و يتضح من الجملة التي وجدها أنها انتقلت من هذا العالم على أثر عودتها من مقابلته مباشرة . فاستمع الله لرغبتها و أطلقها بسلام [1] .

ب – و من نعمة الآب السماوي أن أيقظ انتباه عدد متزايد من الدارسين لقديسي كنيستنا المحبوبة و قديساتها . ففي " الحوار الثاني عشر " الذي انعقد بروسيليا (فرنسا) في يناير سنة ١٩٨٢ : دار الحديث عن " حياة القديسة ماريا المصرية التائبة " المترجمة إلى الفرنسية بقلم المتصوف الفرنسي أرنو دانديه سنة ١٦٣٣ م عن صفرونيوس بطريرك أورشليم للروم الأرثوذكس قبيل الفتح العربي . و لقد ترجمت هذه السيرة العجيبة إلى اللاتينية ثم إلى الفرنسية للمرة الأولى سنة ١٢٠٠ م توالت بعدها عشر طبعات ، ثم نظمها شعرا الأديب الفرنسي روتبوف . و هناك نافذة من الزجاج الملون في كندرائية بورج (فرنسا) للقديسة التائبة ترجع إلى سنة ١٢١٥ م . و الترجمات الفرنسية شهادة على تفتح الأذهان نحو الروحانيات و إلى التوقير الذي تبديه الكنائس الأرثوذكسية نحوها .

و واضح أن سيرة القديسة ماريا المصرية تنتصب وسط مجموعة كبرى من سير أولئك الذين وهبوا حياتهم بكليتها لفاديهم الحبيب ، لأن كتاب دانديه يقع في جزئين ضخمين . فهو أورد أولا سير نساك مصر تليها سير عدد من الأرامل ثم عدد من العذارى و يختتم كتابه بسير التائبات . و يقول الكاتب الأرثوذكسي جابرييل ماتزنيف : " ليس هناك بين كل الأدب المسيحي نص يعبر تعبيرا أقوى من نص هذه السيرة للإنقلاب ، للتحول ، للمطانية [٢] . " .

و تروي هي سيرتها بنفسها للقس زوسيما معترفة بكل صراحة بما اقترفته

---

(١) عن مخطوطة محفوظة بمكتبة المتحف البريطاني رقم ٤٨٠٧ ، أأأ – ٢٦ ، " الحياة و التوبة العجيبة لمريم المصرية " [بالإنجليزية] ، و لم يذكر المترجم إسمه .

"The Life and Miraculous Conversion of Mary of Egypt ", Brit. Lib., 4807 aaa 26.

(٢) Gabriel Matzneff: " Il n'y a pas dans toute la Littérature Chrétienne de texte qui exprime avec plus de force que celui-ci le renversement de la conversion, la metanoia.".

و كيف أنها فى القدس حين اشتاقت أن تدخل كنيسة القيامة أحست بقوة قاهرة تسمرها مكانها . و فى الحال أدركت هوة خطيتها فأجهشت بالبكاء . و إذ بالسيدة العذراء تظهر لها فجأة فتستشفع بها لتفك رباطها و تتعهد لها بالتوبة . فأوصتها والدة الإله بالذهاب إلى برية الأردن بعد عيد القيامة المجيدة . و يا لعجب النعمة الإلهية التى منحت مريم التائبة بركة الصلوات ذات الروعة لأسبوع الآلام . و منحتها أيضا أن تتناول الأسرار المقدسة فى كنيسة يوحنا المعمدان .

و يقول القديس يوحنا كليماكوس : " لقد رأيت نفوسا على غاية من العنفوان الشيطانى تحولوا تحولا تاما ، و بفعل التوبة و النعمة حلت المحبة الإلهية فى أعماقهم محل الحب الدنيوى . " .

و المذهل فى ماريا المصرية أن تحولها نحو الباطنية كان تلقائيا ؛ إنها تحولت من نفسها و بنفسها من حب " الأنا " إلى الإشتعال بالمحبة الإلهية إذ قد غمرتها قوة إلهية إستجابت روحها لها - فصعدت من هوة الخطية إلى قمة عليا من القداسة [١] .

١٣ - مع الأنبا ثيئودوسيوس : البابا الثالث و الثلاثين

أ - إن الفترات الأولى للمسيحية فى جزيرة فيلة قد أصبحت معروفة بالأكثر من نشر " تاريخ رهبان مصر العليا " و " حياة الأنبا هرون " اللذين كتبهما الأنبا بفنوتى الناسك العظيم . فقد قام بعدة رحلات إلى الصحراء ليعرف بالتدقيق و على الطبيعة كيفية الحياة النسكية . و نعرف مما كتبه أنه وصل لغاية المؤسسات الرهبانية القريبة من الشلال الأول ، كما وصل إلى الجزر الواقعة بين أسوان و فيلة . ثم بلغ ديرا قريبا من دير القديس سمعان (بأسوان) يقع على الضفة الشمالية من النيل مقابل فيلة حيث

---

(١) محاضر للحوار الثانى عشر الذى انعقد فى مرسيليا فى يناير سنة ١٩٨٢ ، مجلة " المركز الأوسط للإلتقاءات عن القرن السابع عشر (بالفرنسية) ، العدد الصادر سنة ١٩٨٣ ص ٤٠٣ - ٤٠٧ ، و المقال نشره الأستاذ جان شرشيرا ، أستاذ التاريخ الكنسى بجامعة الآداب و اللغات بمدينة جرينوبل (فرنسا) .

استقبله راهب إسمه پيلوسيوس أشبع حب استطلاعه بأن قص عليه الكثير من الحوادث الخاصة بالقديسين زيولون و سيراپامون و متياس و زكا و حنانيا و پولا و غيرهم . و أخيرا أتحفه بسيرة الأنبا إسحق الشيخ تلميذ الأنبا هرون . ثم قاده إلى مقر خلوته في جزيرة عند الشلال الأول . فاستقبله الناسك بكل حرارة و عرفه بسيرة الأنبا مكدونيوس الذى انتشرت المسيحية بواسطته في جزيرة فيلة أيام باباوية الأنبا أثناسيوس الرسولي . و قد كان مكدونيوس هذا مفتشا عسكريا في مصر العليا . فكان يتفقد كل المدن الواقعة تحت تفتيشه و منها فيلة . و بينما هو هناك ذات مرة أراد أن يتناول الأسرار المقدسة فلم يجد أية كنيسة ، و إنما كان رهبان أسوان يخدمون فيها مرة أسبوعيا . و عند عودة مكدونيوس إلى الإسكندرية روى للأنبا أثناسيوس ما جرى و أبدى له استعداده لأن يوصّل ذاك الذى يرسمه إلى الجزيرة بنفسه . أجابه البابا القديس إنه سيرسل أسقفا و إن هذا الأسقف هو مكدونيوس . و على الرغم من معارضته الرسامة خضع في النهاية لحكم باباه . و منذ أن دخل فيلة بكرامته الأسقفية عاش في تواضع و محبة . و هاله أن يرى الناس يتعبدون لصقر في قفص . فذهب أثناء غياب كبير كهنة المعبد و قطع رأس الصقر و رمى به في النار الموقدة فوق المذبح و خرج . و دخل إبن رئيس الكهنة إلى المعبد ففزع مما رآه و هرب إلى الصحراء على الضفة الأخرى من النيل . فلما جاء رئيس الكهنة في اليوم التالي قصت عليه إمرأة عجوز كل ما جرى إذ كانت قد شاهدته عيانا . فغضب و خرج قاصدا إلى أن يقتل إبنه و يقتل معه الأسقف مكدونيوس . و كان أحد المسيحيين حاضرا فجرى و أخبر الأسقف الذى اعتزل في ركن قفر ليصوم و يصلي . فأرشده الروح القدس إلى أن يدخل الصحراء ليلتقي بولديّ كبير الكهنة إذ كان الأخ الأصغر قد لحق بأخيه : و كان كل منهما إناء مختارا . و بعد فترة قصيرة قابل الأسقف أحدهما في حالة شديدة من الجوع و العطش فأسعفه . ثم وجد أخاه و عاد بهما إلى فيلة و علمهما و عمدهما باسم الآب و الإبن و الروح القدس و أعطى للواحد إسم مرقس و للثاني إسم أشعياء . ثم آزرته النعمة الإلهية فنجح في صبغ أبيهما بالصبغة المقدسة و دعاه يعقوب . و بعد نياحة الأنبا مكدونيوس تعاقب الأخوان على الكرامة الأسقفية . و لقد رسمهما الأنبا أثناسيوس الرسولي كليهما . و بعدهما نال پيلوسيوس هذه الكرامة على يد خليفة حامي الإيمان القويم الأنبا تيموثيئوس الأول . و مع أن الجزيرة محيطها كيلومترا واحدا إلا أن بها خمس كنائس : إثنتين منهما داخل المعبد الفرعوني و ثلاث خارجه – و أهمها

هى التى عند مدخل معبد إيزيس . و ثمة بعض الرسومات المسيحية الباهتة فى تجويفة العامود الثانى تنبئ الداخل أنه أمام كنيسة . و على اليمين إلى فوق صورة لمدينة القدس تعلوها أيقونة للسيد المسيح بين ملاكين . و الجزء الداخلى ما زال به مذبح مصنوع من الجرانيت مكعب الشكل ، و على جزئه الأمامى صليب محفور . أما الهيكل فهو تجويفة فى الجدار الشرقى . و عند مدخله صورة لصليب ترفعه إمرأة كأنها تدعو إلى تمجيده . و المرأة أصلا ضمن الرسومات الوثنية أضاف إليها المسيحيون الصليب . و على ناحيتى باب الهيكل كتابة يونانية : التى من اليمين تقول : " هذا العمل تم بنعمة الله تحت رعاية أسقفنا المحبوب من الله الأنبا ثيئودوروس " ، و تضيف تلك التى على الشمال : " أطال الله حياته " .

ب - ثم حدث سنة ٥٧٧ م أن حوّل الأنبا ثيئودوروس مدخل معبد إيزيس إلى كنيسة على إسم استفانوس أول الشهداء بين الكارزين [١] . و مما يجدر ذكره أن الأنبا أثناسيوس الرسولى قد أشار إلى أسقف فيلة فى رسالته التى كان قد بعث بها إلى مؤمنى أنطاكية ليعلمهم بانعقاد المجمع الإسكندرى [٢] .

ثم إن البابا ثيئودوسيوس قد رسم أسقفا على النوبة بإسم بوليانوس . على أنه ما كاد هذا الأسقف الجليل يتسلم مهام إيبارشيته حتى أرسل الإمبراطور يوستينيان بعثة تبشيرية إلى تلك البلاد . و أغلب الظن أن هذا الإمبراطور أراد بهذه البعثة أن يظهر بمظهر الغيرة على نشر الكلمة ، و أن بعثته هذه كانت مجرد تغطية للرغبة الإمبراطورية فى السيطرة حتى على الأمور الكنسية أكثر مما كانت عاملة بالفعل . لأنه من المعروف أن الكنيسة النوبية من بدايتها كانت خاضعة للبابا الإسكندرى كما كانت قوة مساندة للقبط على مدى طويل خلال العصور الوسطى .

على أن الذى يجب أن نذكره هو جهاد كنيستنا المحبوبة جهادا تخلل عصور الضيق أيضا . ففى سنة ٥٤٣ م - بينما كان البابا ثيئودوسيوس مسجونا فى

---

(١) إذ قد عرفنا أن ردامون الأرمنتى قد سبقه إلى الإستشهاد .

(٢) " قاموس الآثار و الليتورجيات المسيحية " جـ ١٤ ، القسم الثانى ، عامود ٢٤٦٥ - ٢٤٦٦ .

القسطنطينية – قام برسامة ذات أهمية كبرى : فلقد طلب إليه الأمير الحارث (و هو أمير عربي) أن يرسم أسقفا لقبائله المسيحية . فرسم لهم إسقفا يقظا إسمه ثيئودوروس . و انتهز هذه الفرصة المواتية فرسم أسقفا على أديسا [1] صار معروفا في التاريخ بإسم يعقوب البرادعي اشتهر بنشاطه و رعايته الساهرة .

أما جزيرة فيلة فقد انتعشت روحيا تحت رعاية أسقفها الأنبا ثيئودوروس الذى منحه الآب السماوى أربعين سنة فى هذه الخدمة الأبوية . فقد انهمك فى عمله الراعوى إلى حد أنه هو و شعبه قد عاشوا فى هدوء و إستقرار بعيدا عن الأنواء العاصفة التى تعرضت لها الإسكندرية طيلة القرن السادس . و كان عمل هذا الأسقف مثمرا تمكن به من القضاء على الوثنية نهائيا .

و كانت الواجبات الرئيسية الملقاة على الأسقف آنذاك : ١- تأدية الشعائر الكنسية و أهمها القداس الإلهى ، ٢- الإشراف على الكهنة و الشمامسة ، ٣- تنشئة شعبه التنشئة الروحية الأدبية ، ٤- حمايته من مضطهديه قدر الإمكان .

ج – و هناك رنة من فرحة المعركة فى الرسائل الراعوية التى ما زالت بين أيدينا مما كتب الأنبا أبرآم أسقف أرمنت . ففى إحداها يعلن الحرم على من يطلّق لغير علة الزنا و على من يقبل التعامل معه أيضا أو يكتب له الأسانيد القانونية تبريرا له . ثم ينتهى بقوله : " ليست هذه الكلمات كلماتنا بل هى صادرة من الله . فمن أراد أن يخلّص نفسه فليحفظها . " . و بنفس العزيمة يبدأ رسالة دورية أخرى : " بما أنه قيل لى إن بسادة يسئ معاملة الفقراء ، و هم قد قالوا لى إنه يستهين بنا ، فإن كل من يسئ معاملة قريبه يُخرج من الوليمة إذ هو شبيه بيهوذا الذى قام من العشاء مع ربه و خرج ليسلمه ... " . و يتضح لنا أن هذه الرعود كان لها أثرها المطلوب من رسالة دفاعية بعث بها صاحب أرض إلى أسقفه يبرر فيها موقفه ممن يتعامل معهم .

---

(١) مدينة فى شمال العراق إسمها بالعربية " الرها " .

و هناك أسقف جليل إسمه أنبا إيبفانيوس كانت تصله أيضا مثل هذه الرسائل الدفاعية ، بل كانت تصله رسائل شخصية للغاية : إحداها من رئيس شمامسة تقدمت به الأيام قد قاسى طيلة حياته الآلام على أيدي الحكام ، فكتب يرجو أباه الأسقف إيبفانيوس أن يضع له قانونا يعيش بمقتضاه لعله يقضي بقية أيامه في سلام .

و الأسقف يبدي اهتماما خاصا بالفقراء ، و هو يتعاون مع كهنته و شمامسته في إدارة ممتلكات الكنيسة لكي يستطيعوا بحسن إدارتهم أن يساعدوا المعوزين . و كثيرا ما كان يتناول الطعام مع شعبه لكي يكون على صلة وثيقة به . و كثيرا ما كان يتجول في القرى و الكفور فيدخل إلى بيوتهم و يستمع إلى أحاديثهم . بل كثيرا ما كان يدعو العلمانيين إلى الإجتماع معه و مع كهنته حين يعقد مجمعه المحلي [1] .

د - و إن الشواهد كلها لتشير إلى أن المسيحية دخلت النوبة أصلا على يد المصريين ، و تشير أيضا إلى أن دخول السودان إلى دين السيد المسيح كان نتيجة لكرازة مار مرقس الرسول في الإسكندرية .

و حين انشغل رجال الآثار بإنقاذ المعابد الفرعونية في النوبة من فيضان مياه السد العالي عثروا على عدد من الكنائس مطمورة تحت الرمال . ثم وجدوا في كنيسة مدينة " قصر إبريم " عددا من المخطوطات إحداها مخطوطة قبطية و معها ترجمتها العربية هي عبارة عن طقس رسامة الأسقف ديماترس على يد البابا غبريال الرابع سنة ١٠٨٨ ش [2] .

و لقد اضطر المماليك إلى الإنسحاب من النوبة تحت ضغط البطش التركي . فكان دخول الأتراك نذيرا بالخراب و الدمار لأنهم دمروا في أسابيع قصيرة إنتاجات

---

(١) إدوارد روتشي هاردي : " مصر المسيحية - الكنيسة و الشعب " [بالإنجليزية] ص ١٤٢ - ١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٦٩ - ١٧٠ ، و هذه " شهادة من الذين هم من خارج " تصور لنا شعبية كنيستنا المصرية و مدى تعاطف الشعب مع أسقفه .

(٢) هو البابا الـ ٨٦ ، سنة ١٣٦٣ - ١٣٧٠ م .

حضارية على مدى قرون طويلة - و كان ذلك فى القرن السادس عشر .

أما فى أسوان فما زالت للمسيحيين كنائسهم ، بل لهم أيضا أسقفهم بنعمة الله . و هناك دير معروف باسم " الشايب " و هو فى واقعه باسم القديس سمعان . و أطلاله باقية للآن و قد تناولها الترميم .

و ثمة دير باسم رئيس الملائكة ميخائيل ما زال قائما غربى مدينة إدفو عند طرف الصحراء . و يرجح أن الكنيسة التابعة له لا ترجع إلا إلى القرن التاسع عشر . و هذه الكنيسة مزيج عجيب : فهى رشيقة على الرغم من فقرها الواضح ، و نوافذها كبيرة ذات زجاج أصفر و أزرق و أحمر - و كلها ألوان فاقعة . و يقول زائر إنجليزى عما رآه من محاولة لتجميل الكنيسة : " يؤسفنى أن أعلن بأن " رجسة الخراب "[1] الفنى دخلت مع الأوربيين[2] . " .

و فى الوقت عينه تزخر أسوان بآثارها المسيحية إذ يوجد على الضفة الشمالية من النيل دير مهجور : هو دير غاية فى الضخامة ، به ممرات طويلة على كل من جانبيها قلالى متراصة تتخللها الكنائس . و جدران هذه الكنائس عليها الكثير من الكتابات ؛ و إحداها مزخرفة زخرفة عجيبة - لأنه على ثلاثة من جدرانها الأربعة سلسلة من الأيقونات عددها أربعة و عشرون أيقونة وضع تحت كل منها حرف من الحروف الأبجدية . و كل قديس يرتدى زيا خاصا ، و قد كتب تحته الصفات المميزة له - كوصف مريم المصرية بالسائحة الثانية .

---

(١) متى ٢٤ : ١٥ .

(٢) هذا الزائر هو مصرولوجى إسمه سومرز كلارك ، ألف كتابا بعنوان : " الآثار المسيحية فى وادى النيل " ، طبعته له مطبعة جامعة أكسفورد سنة ١٩١٢ ، و قد أورد تعبيراته عن أسفه على ص ٨ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٠ - فما أجدرنا أن نصغى إلى شهادته و شهادة الكثيرين من الأجانب عن تدهور فننا الأصيل نتيجة لتقليدنا الفنون الغريبة علينا . راجع أيضا كتاب " الفن القبطى " لباهور لبيب ، القاهرة سنة ١٩٧٨ ، " فن الأيقونة " للمؤلفة طبعته مكتبة المحبة سنة ١٩٨٣ .

هـ – و بالطبع حيثما وجدت بقايا كنائس و أديرة عثر المنقبون فيها على مخطوطات . و من الغرابة بمكان أن يبقى هذا العدد الضخم من المخطوطات على الرغم من كل عوامل التخريب . و هناك عدة مخطوطات محفوظة بمكتبة المتحف البريطاني أسوانية الأصل . يحوى البعض منها رسائل شخصية و البعض الآخر عقود بيع و شراء و إيصالات و مخالصات . على أن غالبيتها تتعلق بسيَر القديسين ، و أهمها تلك التى تروى سيرة الشهيدين دميان و قزمان [١] و ما جرى على أيديهما من عجائب . و يقول مترجم هذه المخطوطة : إن الخط ذو طابع قبطى واضح ، و النص يتميز بمصريته الصميمة . و يبدو أن هذه الأبيات المخطوطة قد كتبها أكثر من شخص لتغير أسلوب الكتابة . و كل أعجوبة تبدأ بحرف (ⲘⲘ) مزخرف بزخارف هندسية و نباتية و ملون بالأحمر و البنى . و فى البعض منها يتدلى صليب أو حلية أخرى من كل من زاويتى الحرف الداخليتين . كذلك تتزين بعض الحروف الأخرى الواردة فى بداية الصفحة أو الفقرة بأشكال و ألوان مماثلة .

و المخطوطات المصرية تتميز غالبيتها بالتركيز على سير القديسين تشجيعا للمؤمنين على اقتفاء أثرهم . و النص فى المخطوطة المذكورة ينتهى بتمجيد الله و بشكره على القديسين دميان و قزمان . و تأتى بعدها تسبحة لرئيس الملائكة ميخائيل بخط يختلف تماما عن كل الخطوط الواردة فيها [٢] .

و من أهم ما عثر عليه المنقبون عن الآثار القبطية فى منطقة إدفو مجموعة من الكتابات : سواء منها المحفورة على الحجارة أو المكتوبة على أوراق و رقوق . و هذه كلها مزخرفة بزخارف هندسية متعددة الأشكال . و لقد أكثر الفنان القبطى من استعمال هذه الزخارف لاقتناعه بأنها خير وسيلة للتعبير عن اللازمنى .

و ليست الزخارف الفنية بالميزة الوحيدة التى تتميز بها هذه الكتابات بل يضاف

---

(١) هما الأخوان الكبيران من الخمسة الذين استشهدوا مع أمهم .

(٢) روبرت دى رستاليبل : " الناحية المضيئة لمصر " ص ٨٦ – ٩٨ . و المرجو من القراء أن يتصفحوا هذه الناحية و يتمعنوا معها ما ورد عن الكهنة و الكهنوت .

إليها إن كاتبيها قد تذكروا الأعمال التى أداها الذين ورثوا عنهم هذه الفنون . و الجدير بالذكر أن معظم هؤلاء الكتاب هم كهنة و رؤساء كهنة و رهبان . فهناك إثنا عشر أسقفا وردت أسماؤهم عاشوا خلال القرنين الخامس و السادس ، كما وردت أسماء ثلاثة كهنة ممن خدموا فى تلك الفترة . و مما تجدر الإشارة إليه أنه لا يوجد فى الشرق الأوسط خارج مصر أية نصوص عن الكهنة . كذلك تجدر الإشارة إلى أن الكتاب و الفنانين ركزوا اهتمامهم على رجال الدين لمقهنهم بأن الكهنوت لا ينتهى بانتهاء حياة صاحبه على الأرض و إنما يمتد إلى الأبدية . و ذلك على العكس من الوظائف المدنية التى تسقط عن صاحبها حالما ينتقل من هذه الأرض [١] .

و هناك بحاثة إنجليزى إسمه روبرت دى رستافيبل إستطاع أن يشترى عددا من المخطوطات كان قد عثر عليها فلاح صدفة و هو يحرث أرضه بالقرب من دير خارج إدفو مباشرة . و بدراسة هذه المخطوطات إتضح أنها موقوفة على دير بإسم أبى سيفين " فوق جبل إدفو " ، و قد قيل إن هذا الإسم تحول فى وقت ما (لا يعرف بالضبط) إلى " الدير الأبيض الجديد " . و مع أنه لم يبقَ فى الدير سوى خرائبه فما زالت هناك بعض أعياد للحصاد تقام داخله . فيذهب كاهن من إدفو يتبعه الشعب طبعا و يتجمعون داخل الأطلال ليقيم لهم الكاهن الصلوات الشعائرية .

و يبدو أن الدير كان واسعا كبيرا كما تدل عليه الجدران السميكة و الأعمدة المترامية .

و من المخطوطات المذكورة آنفا مخطوطة تتضمن سيرة يوحنا " صاحب الإنجيل الذهبى ، و هى مهداة إلى دير القديس مرقوريوس بجبل إدفو " ، و كاتبها إسمه بقطر ، و هى تحمل تاريخ سنة ٧١٩ ش (سنة ١٠٠٣ م) . و لا توجد نسخة أخرى مماثلة كاملة غير هذه [٢] .

---

(١) " مجموعة من كتابات يونانية فى مصر " لجوستاف لوفيبر (بالفرنسية) ص ٢٨ و ٣٦ .

(٢) عن كتاب : " الناحية المضيئة لمصر " ... ص ٤ - ٦ و ١٣٨ .

١٤ - مع الأنبا بيسينتيوس أسقف قفط

أ - من البرديات التى عثر عليها المصرولوجى الإنجليزى فليندرز بيترى فى الفيوم سنة ١٨٨٩ و حملها إلى مكتبة المتحف البريطانى ، ثم درسها " كروم [١] " كشف لمكتبة أحد الأديرة . و يحتوى هذا الكشف على عدة نسخ من العهد الجديد : البعض منها بالقبطية و البعض الآخر باليونانية ، و بالمثل المخطوطات المتضمنة للمزامير . و هناك عدد من الكتب اللاهوتية و القانونية ، و من بين الأخيرة قوانين الأنبا بطرس خاتمة الشهداء . هذه بالإضافة إلى مخطوطات عن الأسرار الروحانية بالقبطية و السريانية . و إلى جانب هذه نجد كتبا للقراءة يغلب الظن على أنها القراءات الكنسية .

أما المستشرق الفرنسى بوريان فقد عثر سنة ١٨٨٨ م على شقفة جيرية تتضمن كشفا آخر لدير ما . و لا يعرف أحد للآن الدير الذى ينتمى إليه هذا الكشف ، و لو أنه يمكن الإستنتاج أنه كان ديرا صغيرا غير معروف ضمن العدد الكبير الذى زخر بها الصعيد الأعلى فى القرون السابقة على سقوط الإمبراطورية البيزنطية . و يرتكن هذا الإستنتاج إلى ضآلة الكشف . غير أن الكتابين رقمى ٤٩ و ٥٠ يذكران التعليم الدينى و منهجه فى قوص . فيمكن القول بأن الدير كان ضمن إيبارشية هذه المدينة . و يميل بوريان إلى القول بأن هذا الدير المجهول هو دير الأنبا إيلياس الذى كان فى منطقة قوص أو حتى داخلها . و لكنه فى الوقت عينه يظن أنه قد يكون ديرا على الضفة الغربية من النيل عند بلدة قصر الصياد . و كشف الكتب يحمل إسم رئيس الدير " إيلياس " ، بينما الكتاب رقم ٥١ يذكر إسم شهيد يحمل الإسم نفسه . و لا نستطيع التأكد من شخصية هذا الشهيد إذ أن هنالك ثلاثة شهداء يحملون الإسم عينه : " إيلياس " من المنطقة ذاتها . و يستكمل بوريان دراسته لهذه الشقفة التى عثر عليها عن غير قصد بقوله : " **إن أمين المكتبة قد اتبع فى ترتيبها نظاما مطابقا للنظام الحالى** : فقد قسم الكتب إلى قسمين رئيسيين - القسم الخاص

---

(١) Crum - من أساطين الباحثين فى اللغة القبطية ، وضع قاموسا ضخما " قبطى - إنجليزى " إستبعد منه الكلمات ذات الأصل اليونانى . و كلمة " كشف " معبر عنها بالقبطية بكلمة " ⲗⲟⲅⲟⲥ " .

بالعهد القديم و القسم الخاص بالعهد الجديد ... " .

و بصدد الحديث عن المخطوطات ، فمن الشيق أن نذكر خطابا ضمن المراسلات العديدة الخاصة بالأنبا بيسينتيئوس أسقف تفط . و هذا الخطاب ضمن المخطوطات العديدة المحفوظة بمكتبة المتحف البريطاني - محفوظ فى أصله القبطي و معه ترجمته الإنجليزية . و هو مرسل لنيافته بخصوص طرد خباز من الدير و استبداله بغيره ، و كاتب الخطاب يستعطف الأسقف لاستبقاء الخباز . و مما يؤسف له أننا لا نعرف للآن نتيجة هذا الإستعطاف [١] .

و هناك مخطوطة واحدة باللهجة الصعيدية تقع فى تسع عشرة ورقة تتضمن عظة للأنبا بيسينتيئوس . و هى الإنتاج الأدبى الوحيد المتبقى باللغة القبطية لهذا الأسقف الجليل . و من توجيهاته فى هذه العظة : " إن حياة القديسين هى قدوة لنا ... و الصوم من الضروريات . و يجدر بالصائم أن يقرن صومه بتناول الأسرار المقدسة . و من الواجب على من يصوم و يتناول ، حين يعود إلى بيته ، أن لا يندفع فى الأكل و الشرب بشراهة بل عليه أن يذكر إخوته الفقراء . " .

و يعلق المترجم على هذه العظة بأنها فريدة فى نوعها و تتضمن الكثير من التفصيلات [٢] .

ب - و من مخلفات القرن السادس أيضا الكشف عن كتابات منقوشة على أطلال دير فى منطقة الدخيلة . و أغرب ما فيها أنها تحمل تاريخا هو سنة ٥٢٤ - ٥٩٠ م . و هى سجل دقيق تام لنشأة الدير و وظيفته و تبعيته الروحية للشخص المدفون داخل محوره . و مما يلفت النظر أن مسجل هذه الكتابات يتجاهل الحالة الإنسانية الأرضية و يركز كل تعبيراته على " العرى المزعج الذى لليوم الأخير [٣] " .

---

(١) " قاموس الآثار و الليتورجيات المسيحية " جـ ٢ ، القسم الأول ، عامود ٨٧٨ .

(٢) روبرت دى رستاليل ... ص ١٠٣ .

(٣) " مجموعة كتابات يونانية مسيحية عن مصر " [بالفرنسية] لجوستاف لوفيبر ، التمهيد .

و يخبرنا البحاثة الفرنسى ليكلير بأن كل فروع العلوم و الآداب ظلت مزدهرة فى مصر أجيالا طويلة إذ يبدو أن الإسكندرية إحتفظت بمدرسة للطب ذات صيت بارز . فهنالك رسائل طبية كاتبها كاهن إسكندرى - حوالى القرن السادس - باللغة السريانية . كذلك حدثنا زكريا الميتيليني [١] عن طبيب إسكندرى للبلاط الإمبراطورى فى القسطنطينية تعلم الطب و اللاهوت فى الإسكندرية ، و كان يتكلم السريانية و اليونانية بطلاقة [٢] .

هـ - و هناك قصة ذات قيمة خاصة تتلخص فى أن زوجا أصيب بالغيرة إلى حد دفعه إلى اتهام زوجته بالخيانة و طردها من بيته . و بعد أن فشل كل أهل القرية فى إقناعه ببراءتها و براءة الرجل الذى يمس الظن به إشتكوه إلى الأنبا بيسينتيئوس . على أن الرجل أصر على عناده و رفض الذهاب لمقابلة الأسقف . و فى الليل أصيب بوجع شديد فى بطنه ظن معه أنه سيموت . فألح على أهله أن يحملوه إليه . و حين وصل أكد له رجل الله بأن زوجته بريئة و أن العلامة التى سيعطيها له على براءتها أنها حامل و ستضع له إبنا . و مع هذا كله كان سيسمح له بالتجوء إلى ما قررته الشريعة الموسوية . و لكن الرجل أعلن ثقته فى كلام الأسقف الذى نال الشفاء على يديه و استرجع زوجته . و بالفعل وضعت ولدا دعاه بيسينتيئوس . و يختتم كاتب القصة بهذه الكلمات : " لقد حقق الأسقف القديس ثلاث آيات : لقد أنقذ المرأة من تشويه سمعتها ، و حرر الرجل المفترَى عليه من الذنب ، و نقى قلب الزوج من سوء الظن . و هكذا أعاد السلام و التناغم بين من جمعهما سر الزواج المقدس [٣] . " .

١٥- مع الأنبا بنيامين البابا الثامن و الثلاثين

يحدثنا عدد من الباحثين أن قورش عميل القسطنطينية كان قوقازى المولد ، و لهذا أصبح معروفا لدى العرب بإسم المقوقس . و لقد أخذ على عاتقه شخصيا أن

---

(١) نسبة إلى ميتيلين من مدن آسيا الصغرى .

(٢) " قاموس الآثار و الليتورجيات المسيحية " جـ ٤ ، عامود ٢٤٧٦ .

(٣) " مصر بلاد المسيحية [الصالحين] " [بالإنجليزية] ، نشرة برنارد لويس مطبعة هارفيل لندن سنة ١٩٤٩ .

يقدم للإمبراطور القسطنطيني شروط المسلمين للإتفاق الذى تم فعلا بينه و بينهم . و عندها اكتفى الإمبراطور هرقل بأن يقدمه للمحكمة التى لم تأمر إلا بنفيه ! و يسجل المؤرخ الإسكتلندى آدينای هذا الحديث بقوله : " لقد أثبت هرقل أنه من أعجز الحكام و أكثرهم تخبطا و أسوأهم إدارة لإمبراطورية عظمى . . . و هناك شخص يحيطه الغموض معروف لدى الكتاب العرب بإسم ' المقوقس ' هو المتهم الأول بخيانة الدولة المسيحية فى ذلك العصر . و يرى المؤرخ بطلر أنه ليس سوى قورش ، و أن تسميته بـ ' المقوقس ' مشتقة من القوقاز موطنه الأصلى [1] . " .

١٦ - أخت وفية

أ - إنه حدث فى بداية دخول العرب إلى مصر أن عاش فى الإسكندرية رجل إسمه ديسقورس ، تعرض فى وقت ما إلى ضيقة جعلته ينكر فاديه و يعتنق الإسلام . و قضى عدة سنوات بعيدا عن ربه و مخلصه . و كان لديسقورس أخت متزوجة فى الفيوم . فلما وصلتها أخباره بعثت إليه بخطاب تقول فيه : " لقد كنت أشتهى أن يأتى إلىّ خبر موتك و أنت ثابت على إيمانك لنلتقى فى الفردوس و نفرح بالحياة مع

---

(1) " Heraclius proved to be one of the most incompetent, blundering rulers who ever mismanaged a great empire.. Cyrus, his nominee for the Melkite Patriarchate at Alexandria was the very worse man to select. ". p. 578: " ... A mysterious personage known to the Arab writers as ' the Mukawkas " has been accused as the chief traitor to Christianity at his juncture . ".

p. 597: A.J. Butler advocates that he is no one else than Cyrus. ... Mukawkas is derived from the word ' Kaukasios ', and indicates ' Cyrus ' who came from Phasis in the Caucasus.".

أنظر كتاب آدينای : الكنيسة اليونانية و الكنائس الشرقية " [بالإنجليزية] ص ٥٧٥ و ٥٧٨ - ٥٧٩ ؛ " الفتح العربى لمصر " لبطلر [بالإنجليزية] ملحق ٣ ؛ " الكنائس المسيحية الشرقية " لدونالد آتووتر [بالإنجليزية] جـ ٢ ص ٢٠١ ؛ الباترولوجيا أورينتاليا - مجلد ١ عاصره ٤ .

ربنا و مخلصنا ؛ و خبر موتك كان سيقع عليّ أهون من جحودك . فاعلم أن هذا الخطاب هو آخر صلة بينك و بيني - فلا تحاول أن تريني وجهك ، و لا حتى أن تكاتبني . " . فهذه الأخت سلكت مع أخيها مسلك القديسة دميانة مع أبيها - و لو أننا لا نعرف إسمها . و لقد نجحت في استعادته إلى الفادي الحبيب - و هنا بالطبع عمل النعمة في القلوب - النعمة التي حولت بنات حواء إلى بنات لوالدة الإله المطوبة من جميع الأجيال .

و لما وصل الخطاب إلى ديسقورس بكى بكاء مرا إذ قد صحا ضميره . فقام مسرعا و شد وسطه بزنار ، و صلى متضرعا بحرارة ؛ و رسم نفسه بعلامة الصليب المقدس ؛ و خرج يتمشى في شوارع المدينة لابسا صليبا على صدره . فاقتاده البعض إلى الوالي الذي قال له : " أما دخلت في ديننا ؟ فماذا أصابك ؟ " أجابه : " بالحقيقة أني ولدت مسيحيا و أريد أن أموت مسيحيا . " . فضربه و ألقاه في السجن . ثم أرسل إلى حاكم مصر يعرض عليه الموضوع . فرد عليه الحاكم بقول : " إن لم يعد إلى دين الحكام فيجب حرقه . " . فاستحضره الوالي و أبلغه أمر الحاكم . قال ديسقورس : " لقد سبق أن قلت لك إنني ولدت مسيحيا و أريد أن أموت مسيحيا . " . فصدر الأمر بإحراقه . فأخذه الجند خارج المدينة ، و حفروا حفرة عميقة أوقدوا فيها النار . فلما علا لهيبها طرحوه فيها . فنال الإكليل الذي لا يضمحل و سبق أخته إلى الفردوس [١] .

تحية إعزاز لهذه الأخت الوفية التي وضعت ولاءها للفادي الحبيب فوق كل اعتبار ، و التي سارت على نهج المرأة المصرية في حملها للشعلة المقدسة .

٣ - و في الفترة عينها التي عاد فيها ديسقورس إلى نفسه و نال إكليل الملكوت ، لحق به شهيد آخر إسمه شنودة عاش في النصف الثاني من القرن السابع . نشأ هذا القديس نشأة مسيحية حقة . فداوم على العمل بوصايا الرب و أحكامه . و لم يكتف بالصوم و الصلاة و المواظبة على حضور القداسات ، بل زاد على ذلك بصدقاته و بزيارته

---

(١) وردت سيرة هذا الشهيد في السنكسار يوم ٦ برمهات .

للمرضى و المسجونين و المستورين . فاغتاظ منه بعض إخوان السوء و وشوا به إلى الوالى بأنه سخر من دينهم . و للوقت استدعاه الوالى و استجوبه . فأعلن أمامه صراحة بإيمانه بالسيد المسيح الذى أوصى من يتبعونه بأن يحبوا جميع الناس ، فهو عملا بهذه الوصية لا يسخر من أى دين . على أن الوالى لم يقبل عذره و زاد على ذلك بأن أمره بأن ينكر الفادى الحبيب و ينضم إلى دين الحكام . فرفض شنودة فى إصرار معتزا بأن السيد المسيح قد افتداه بدمه الثمين و حرره من ربقة الشيطان - فكيف يتنكر له بعد ذلك ؟ و استشاط الوالى غضبا و أمر بتعذيبه . و احتمل شنودة التعذيب برضى و سرور . و أمام هذا الصمود صدر الأمر بقطع رأسه .

فانضم إلى الآلاف الذين سبقوه منتظرا معهم الآتين من بعده إلى الفردوس[١] .

✠

و بما أن مسيحنا فوق الزمان نورد هنا كلمة قالها ستة من النساك و هم فى السجن انتظارا للتعذيب و الإستشهاد : قالوها لضابط فى الجيش ذى رتبة مرموقة ، و هى : " إن من يريد أن يحصد فى الموسم الحلو عليه أن يكون قد بذر البذار وقت الشتاء . و إكليل الشهادة لا يمكن أن يكون وشاح الجبان . فتشجع إذن و كن رفيقنا فى رحلتنا إلى الأبدية . " .

و هذا الضابط إسمه ثاروس فى جيش الإمبراطور دقيوس فى بداية النصف الثانى من القرن الثالث . و قد أصغى بالفعل إلى قول النساك إلى حد أنه سبقهم إلى الفردوس[٢] .

---

(١) راجع السنكسار يوم ١٣ أبيب .

(٢) السنكسار ١٤ هاتور ، راجع أيضا ما جاء عن الإمبراطور دقيوس فى جـ ١ من هذا الكتاب ص ٨٥ -٨٦ و ٩٠ - ٩١ .

١٧- قطعة من مخطوطة عن موضوع طبى

لو أننا سمحنا لأنفسنا باستنتاج شخصية مؤلف هذه المخطوطة القبطية لاتجه تقديرنا إلى أنه كان عضوا فى إحدى المجتمعات الرهبانية التى أسسها فى مصر العليا القديس الأنبا أنطونى أو القديس الأنبا باخوم - لأن اللهجة المكتوبة بها المخطوطة هى اللهجة الصعيدية . ثم أن استدارة الحروف و دقتها و كتابتها بانحناءة خفيفة - كل هذه تدفع إلى الظن بأنها كتبت ما بين القرنين الثامن و التاسع .

و هذه المخطوطة الطبية موضوعة بنظام غاية فى الترتيب : فكل فصل فيها يتعلق بنوع معين من المرض . فمثلا يتحدث كاتبها فى البداية عن الأورام المختلفة تليها وصفات لعلاجها . و فى الفصل المائة و السادس و الثلاثين - و هو الفصل الأخير - يتحدث عن الهرش و الجروح و البثور . و قد قسم الهرش تبعا لأجزاء الجسم التى يصيبها كالأصابع و الأيدى و الأرجل ... أما فى القسم السابع لهذا الفصل فيتحدث عن البرص ثم عن الصفراء و أمراض الكبد ، يليها الحديث عن أمراض الكلى فى القسم الثامن . و ينتقل بعد ذلك إلى الحديث فى القسم التاسع عن الهرش الناتج عن شرب الماء [غير النقى] و عما يؤدى إليه من آلام تصل من الرأس إلى القدمين . و ينتهى به الأمر إلى تقديم العلاج الذى يراه ناجعا لكل ما ذكر من الأمراض [١] .

١٨ - عن الأنبا ساويرس إبن المقفع أسقف الأشمونين

يقول الكاهن المارونى الأب شيلى فى مقدمة الجزء الثالث من " الباترولوجيا " ما يلى : إن ساويرس كاتب مبدع و مؤرخ مطلع . و تاريخ البطاركة الذى ترجمه إيفيتس و الذى نقدم له اليوم و كذلك كتبه الأخرى التى يستهدف ناشرو الباترولوجيا تقديمها لدائرة العلماء تفسح له مكانا ممتازا بين الكتاب الشرقيين الذين عاشوا فى القرن

---

(١) قطعة من دراسة طبية باللغة القبطية تؤلف جزء من مجموعة المخطوطات المحترقة لدى الكاردينال بورجيا ، طبعها زويجا مع ترجمتها الفرنسية .

العاشر . و إن ساويرس ليكتب بلغة واضحة تماما . أما الجزء المترجم فى هذا المجلد فهو كتابه عن المجامع . و يتضمن نقض الأسقف الأشمونى لبدعة أوطيخا [١] . ثم ينتهى بملحق عن موعد ميلاد ربنا يسوع المسيح إرتكانا على أبقطى الشمس .

و يذيل الأنبا ساويرس كتابه عن قوانين الرسل كما يلى : " كمل نقل هذا الكتاب فى ليلة يسفر صباحها عن نهار الجمعة التاسع و العشرين من شهر طوبة من سنة أربع و ستين و ألف للشهدا الأطهار . و ذلك بحارة الروم العليا بجوار كنيسة الجليل ميخائيل المعروفة بالقهّادين بالقاهرة المحروسة . و ناقله الحقير بخطاياه لنفسه يوحنا عُرف بالنقّاش من نسخة بخط الأب القديس شمس الرياسة إبن الشيخ النفيس كاتب الجيوش المنصورةكنيسة الشاهد العظيم مرقوريوس [٢] بمصر المحروسة . و هذا نص النسخة المنقول منها نقلت من نسخة بخط الشيخ الرييس الحكيم الفاضل تاج الرياسة أبو اسحق إبن النجيب فضل الله نيح الله نفسه . و ذكر أنه ترجمها من القبطى إلى العربى . و ذكر أنه ترجمها من نسخة قديمة مكتوبة لأنبا قزما بطريرك الإسكندرية [٣] مؤرخة بسنة ثلثة و أربعين و ستماية للشهدا . " .

و من طريف ما جاء فى الباب الخمسين من هذا الكتاب ما يلى : " ليس كل من يتنبأ هو خادم لله و ليس كل من يخرج الشياطين هو قديس . لأن بلعام بن فاغور العراف [٤] قد كان غير متأله و كان يتنبأ . و قايفاس يسمَّى رئيس كهنة و هو إسم كاذب عليه . إبليس و شياطينه الذين هم من قبله يبتدئون و يقولون أشياء كثيرة و ليس فيهم خدمة الله و هم يرضون نفسهم وحدهم بغير معرفة لأجل الشر الذى يفعلونه . الأمر ظاهر أن إذا تنبأ المنافقون فما يقدرون يخفون نفاقهم بنبوءتهم . و لا إذا أخرج الشياطين الشياطين فإنهم لا يكونون أطهارا لأنهم إذا فعلوا هذا فإنهم يضلون بعضهم بعضا مثل قوم يستعبدون لأجل هزؤ و هم ضالون و يضلون محتمليهم ... "

---

(١) راجع ما ورد عنه فى الفصل الأول من ص ٢ لهذا الكتاب .

(٢) هذا كاهن جمع بين خدمتى الكنيسة و الدولة .

(٣) هو البابا الإسكندرى الـ ٥٨ .

(٤) راجع حادثته فى عدد ٢٢ ، تثنية ٢٣ : ٤ - ٥ .

و يعلق المترجمان لقوانين الرسل على الجملة الأخيرة بقولهما إن التعبير عنها فى اللغة القبطية هو : " إنهم يتصلون فى جهلهم بالشر الذى يقترفون عمله [1] . " .

١٩ - مخطوطة قبطية تتضمن بعض قصص للقديسين

تشتمل هذه المخطوطة على ما يأتى : قصة عثور الملكة هيلانة على خشبة الصليب المقدس جاء فى نهايتها : " فليجد كاتب هذه القصة رحمة و القارئ فهما و السامع توبة . " ؛ سيرة القديسة الشهيدة بربارة ؛ سيرة يوحنا الدمشقى ؛ سيرة يوحنا الرحوم [2] ؛ و مما ورد فى الكراس الحادى عشر من هذه المخطوطة سيرة القديس سيرابيون الذى " أعطى كساه صدقة و بعد ذلك لقيه رجل عريان فدفع إليه ثوبه و بقى هو عريانا فعندما سئل من عراك أخرج الإنجيل و قال هذا عرانى و انه بعد ذلك باع الإنجيل و أعطاه صدقة و عندما سأله تلميذه عن خروج الإنجيل قال له الكلمة التى ينبغى أن تحفظ حقا أقول لك يا إبنى ان الذى يقول لى بع كل ما تملك و اعطه للمساكين إياه بعت و أعطيته للمساكين ليكون لى فى الدينونة زيادات ادلال عند المسيح ... " ؛ سيرة القديس نيقولاوس ريس أساقفة ميراليكيا العجايبى [3] ؛ ميمر للذهبى الفم عن يوحنا السابق الصابغ قال فيه : " ... و ان يجعلوا مناهج قلوبهم مستعدة لقبوله ... يرن الصوت فى قفر النفوس المقفرة من الأعمال الصالحة المعشبة عشب آلام الخطية المخرجة شوك الرذايل ... تتنبأ لها الطفل بالبشارة الإلهية التى لم يسمعها غيره و هذا المقدس بالروح القدس فى احشا أمه و هذه الأمور المجيدة فى التبشير به و الحبل العجيب الذى حل عقرية الوالدة و الإرتكاض المتنبى بلسانها ... فهو خاتمة الأنبيا كلهم و أجل الكهنة و أكرمهم بما أنه وضع يده على هامة الرب ...

---

(1) كتاب الباترولوجيا جـ ٣ أشرف على طبعه بالفرنسية جرافين ونار ، باريس سنة ١٩٠٩ : " ساويرس بن المقفع - نقضه لسعيد بن بطريق ، ترجمه الأب شيلى المارونى . و فى نفس المجلد سنكسار عربى لشهرى هاتور - كيهك ترجمة رينيه ، و يحتوى جـ ٨ من نفس السلسلة على النص العربى لقوانين الرسل مع ترجمته إلى الفرنسية بقلم الأخوين جان و أوجوست بريبه .

(2) البطريرك المفروض من القسطنطينية فى بابارية الأنبا أنستاسيوس البابا الـ ٣٦ .

(3) هو المعروف بسانتا كلوز .

و هو رييس الشهدا و أشجعهم لجسارته على العدل ... يعيننا الله على التمال وصاياه إلى آخر نسمة عقلنا و حسنا ... يا أكرم الكهنة و الشهدا كما حللت بحلولك عقربة والدتك تشفع لنفوسنا العواقر أن تلد الأفكار الصالحة و النتايج الحسنة و كما أطلقت لسان والدك ابتهل لعقولنا الخرس أن تنطق دايما بتسبيح الله و شكر نعمته السابغة (١) ... " .

و ثمة مخطوطة أخرى مع سابقتها جاء عنها ما يلي : " تم و كمل هذا الخولاجي الذي هو قداس القديس باسيليوس و غريغوريوس و كيرلص و ترتيب عشية و باكر بسلام في يوم الأربعاء الذي هو السادس و العشرون من برمهات في سنة ٥٢٧ قبطية . و لله الشكر دايما أبديا . المهتم بهذا الكتاب و المصرف عليه من ماله و صلب حاله أجل المخاديم الكرام و أشرف عمدة طايفة المسيحيين العظام العالم العامل برضاة الله الحبر الكامل ذو العز المنيف و المحل الشريف و المثال الحسن الأرشيدياقن الموقر الأرخن المبجل وحيد دهره و أوانه و فريد عصره و زمانه شيخ العلم المعلم حنين أبو غطاس الحلال . عمل هذا الكتاب المبارك و قانيه لنفسه ... و الناسخ الحقير الذليل المهين الكسلان الذي لم يقدر أن يذكر إسمه بين الناس من اجل كثرة خطاياه الذي عليت على راسه احقر الناس حنا سليمان (٢) ... " .

و مما يجدر ذكره أن أحد الغربيين يعلق على الأواشي الواردة ضمن القداس الإلهي بقوله : " من المعالم المصرية الصلاة من أجل المسافرين في البر أو البحر أو الأنهار أو البحيرات أو الطرق المسلوكة ؛ تتبعها الصلاة من أجل الأمطار و الأهوية و كل شجرة مثمرة و فيضان النيل (٣) . " .

---

(١) مخطوطة رقم ٥٢٧٩ بالمكتبة الخاصة بالكتب الشرقية بالمتحف البريطاني .

(٢) مخطوطة رقم ٢١٩ بمكتبة المتحف البريطاني .

(٣) روتشي : " مصر المسيحية ... " [بالإنجليزية] ص ١٢٧ .

٢٠ – نسخة من كتاب سمعان ابن كليل ابن مقارة [١] المترهب بدير أنبا يؤنس بيرية شيهيت ، محفوظة بالمكتبة الخاصة بالكتب الشرقية بالمتحف البريطاني :

و الكتاب عنوانه : " **روضة الفريد و سلوة الوحيد** " – جاء فيه : خير المبادئ ما زيّن بالشكر لواهب القوة على شكره – إن الجوامع التي يحتاج فهمها و الحاجة إليها في كل كتاب سبعة ، و هي غرض الكتاب و منفعته و مرتبته و سمته و نسبته و أسناده و فصوله . فالأول – **الغرض** : و غرض هذا الكتاب أن يوطد أمر الإنسان على السيرة التي خلق من أجلها ، و ذلك أن الذي يطالعه و ينظر ثم يبحث عن معانيه بحثا شافيا يكتسب من فوايده ضياً الحسن و صفاء الذهن و حسن الخلق و تهذيب العقل و شرف النفس و السلوك في السيرة الفاضلة و الإعتماد في جميع أحواله على قوانين الآحكام المقسّطة العادلة . و **الثاني – منفعته** : و منفعة هذا الكتاب ظاهرة بينة لذوي الألباب بما أوضح فيه من ترتيب خلقة الإنسان و كيفية حصول نفسه في البدن و اتحادها به و تمكنها من تصوّر المعقولات و ما هي المنفعة بالحواس الباطنة و الظاهرة و ما هي المنفعة بالقوة النطقية التي بها عظمت همت الانسان و ما هي الامور التي خلق الانسان لاجلها بدلايل واضحة و براهين راجحة . و **الثالث – مرتبته** : و مرتبة هذا الكتاب فهي مقصورة على استعمال الانسان فضايل القوة العاقلة الناطقة بالتمييز الصالح الذي به يفرق بين الحق و الباطل في المعتقد و بين الخير و الشر في الفعل و بين الصدق و الكذب في القول و به أيضا يكون النظر في عواقب الأمور ببصيرة و حكمة و التمني ما يرضاه و اجتناب ما يكرهه و يشناه و الارتياض بالعلوم الصادرة عن العلمآ المقبولين و الاداب المدونة عن الفضلآ المسعودين و التمسك بالعوايد الجميلة و الاخلاق الحسنة الجليلة و اقماع القوانين الغضبية و الشهوانية الى أن يدخلها تحت طاعة الفضايل و يبعدها عن طريق الرذايل . و **الرابع – سمته** : و هي النعت و نعت هذا الكتاب روضة الفريد و سلوة الوحيد كما قال القايل الرشيد من خلا بالعلم لم توحشه خلوة و من تسلا بالكتب لم تفته سلوة . و **الخامس – النسبة** : و نسبة هذا الكتاب إلى أحد الرهبان بدير القديس أنبا يوحنا القصير ببرية الأسقيط . و **السادس – الاسناد** : و هو لاى امر يصلح و لاى نوع من انواع

(١) راجع ما جاء عنه في جـ ٣ من هذا الكتاب تحت عنوان " عالم نادر " ، ص ١٦٦ .

الحكمة يقصد و اسناد هذا الكتاب و النوع الذى يقصده هو أن يكون الانسان مجتنبا للنقايص القباح مجتهدا فى تحصيل المناقب و الصلاح التى يقضى أمره الى التنارة و الاستعداد و التهيؤ لقبول الفيض الالهى و الاتصال بباريه لتكون نفسه دايمة البقا فى جوارى من له الأمر و الحق و هذا القصد أفضل المطالب و أشرف المراتب و المناقب .

و **السابع – فصوله :** و فصول هذا الكتاب فهى مرتبة على إثنى عشر قولا و ذلك أن عدد الاثنى عشر عددا شريفا فى العتيقة و الحديثة . و ذلك أن عدد قبايل بنى اسرائيل اثنى عشر سبطا و عدد الحجارة التى قال عنها الله ليشوع ابن نون أمر اثنى عشر رجلا من بنى اسرائيل لياخذوا اثنى عشر حجرا من وسط نهر الاردن حيث جزتم فيحملوها لكيما يكون لكم شهادة و اية موضوعة الى الابد حتى اذا سالك ابنك ما هذه الحجارة تقول ان الرب يبس بين ايدينا نهر الاردن اذ جزناه فاخذنا هذه الحجارة من وسطه شهادة بذلك . و عدد الانبيا الكبار اثنى عشر نبيا و عدد الانبيا الصغار اثنى عشر نبيا و عدد الرسل اثنى عشر رسولا و عدد الانوار التى خلقها الله فى فلك السما ليكون ايات و أوقات و ايام و سنين اثنا عشر كوكبا و هذه لمجرى الشمس و القمر و بها يعرف الفصول و الازمنة و عدد شهور السنة اثنا عشر شهرا و عدد ساعات الليل اثنى عشر ساعة و عدد ساعات النهار اثنى عشر ساعة فمن اجل هذا اوضحنا بديا ان فصول هذا الكتاب مرتبة على اثنى عشر قولا . **القول الأول** من اجل خلقة الانسان و الامور التى خلق لاجلها و **القول الثانى** من اجل الايمان بالواحد القديم المنان و **القول الثالث** من اجل التجريد و التقوى الى طلب الخلاص و النجوى و **القول الرابع** من اجل الصلاة القايمة بالخشية الدايمة **القول الخامس** من اجل الصيام الذى هو سجن عن جميع الشهوات المانع من النظر الى مستطرفات اللذات **القول السادس** من اجل الصبر اساس لكل الحسنات و قايد الى جميع الخلال المستحسنات **القول السابع** من اجل المحبة التى هى ام الوصايا الثابتة الراسية و مرققة القلوب الغليظة القاسية **القول الثامن** فى العفة و هى الفضيلة التى لا يشوبها شئ من الفجور و تمنع مالكها الانفة من جميع الفواحش و الشرور **القول التاسع** فى التواضع و هو التباعد عن شر التعاظم المتصلة و الافتخار بالسبح الباطل المائن الكاذب المنتحلة **القول العاشر** فى الصفح و هو ترك مجازاة المذنبين و مقاصصة المجرمين و الانتقام من العصاة المارقين مع وجود القدرة و الظفر و العزمة الخطر **القول الحادى عشر** فى القناعة و هى التى تغنى الفقير و قليلها كثير **القول الثانى عشر** من اجل الارتياض بالسنن العادلة

و السيرة الحسنة الفاضلة .

و بعد هذا الملخص توسع ابن كليل في الحديث عن كل قول ، و ختمه بقوله :

" تم كتاب روضة الوحيد و سلوة الفريد بلطف الله و منته و فضله و كرمه و كتبه العبد الاثيم تلجه ابن المرحوم الخورى حوران ابن القس موسى فى مدينة حماه المحروسه و ذلك بتاريخ يوم الثلثا العشرون شهر اذار المبارك سنة سبع آلاف مائة و سبعه لكون العالم و ابونا آدم [1] . " .

٢١ أ - مآثر أرخن جليل

كان القرن الثانى عشر فترة برز فيها عدد من الأراخنة ، و أحدهم هو الشيخ شرف الرياسة سعيد بن هبلان [2] . و من مآثره أنه اهتم إهتماما بالغا بكنيسة القديس الشهيد " أبو سيفين " بمصر العتيقة ، فلم يرممها فقط بل جدد أيضا القبة الخشبية التى تعلو المذبح كما غطى المذبح بلوحة خشبية . و لقد تفنن صانع القبة فزخرفها بدقة و رشاقة ، و ركزها على أربعة أعمدة رقيقة من المرمر . و لقد اشترك أبو البركات بن سعيد بن هبلان مع أبيه فى الإنفاق على هذا العمل العظيم و استعان كلاهما بثلاثة من أعظم المهندسين المعماريين لإتمامه [3] .

---

(١) واضح أن هذه النسخة نقلها كاهن سورى عن كاتبها المصرى مما يبين لنا سريان تعاليم آبائنا إلى خارج حدود مصرنا .

(٢) كان السلاطين يطلقون على أصفيائهم من القبط الأسماء الدالة على تقديرهم كما نرى فى إسم هذا الأرخن - راجع جـ ٣ من هذا الكتاب ص ٢٣٥ .

(٣) " الأخشاب المحفورة فى الكنائس القبطية " [بالفرنسية] لإدمون بوتى ، ص ٩ - ١٠ . و مما يؤسف له أننا لا نعرف أسماء هؤلاء المهندسين ، فهم بذلك ضمن العدد الوفير من الجنود المجهولين ، فحق عليهم قول الشاعر :

هذه آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

٢١ ب - مع أولاد العسّال

فى المكتبة الأهلية بباريس مخطوطة عربية (قبطية) رقم ٢٤٩ نعرف من قراءتها أنه كان لأولاد العسّال دار فى القاهرة . و كلمة " دار " معناها بيت فسيح أنيق . و أغلب الظن أن هذه الدار كانت بيت العائلة تبعا للعادة الشرقية القديمة التى بمقتضاها كانت تعيش مختلف فروع الأسرة معا فى مبنى واحد [١] .

و إلى جانب هذه المخطوطة مخطوطة عربية (قبطية)أخرى بالمكتبة عينها تحمل رقم ١٩٩ تبدأ بالكلمات التالية : " هذه فصول مختصرة من التثليث و الاتحاد عملت بالقاهرة لطالبها فى اخر سنة تسع و ثلاثين و ستمائة للهجرة (سنة ١٢١٩ م) ، تصنيف الشيخ الفاضل الفيلسوف المسيحى أبى الفضايل بن العسال قدس الله روحه . "

أما فى " سلّمه المقفّى فيقول أبو اسحق (ابن أبى الفضايل) : " لما كنت بدمشق المحروسة و ضعت سلّما مثل هذا السلّم فنُهب فيها فى جملة كتبى فى حادثة حدثت لأهلى و زمرة نحلتى جميعها . "

و يستنتج القارئ من حديث أبو اسحق أنه كان قد هرب إلى دمشق من وجه الاضطهادات التى أثيرت بسبب حروب الصليبيين . و مع أنه تجنب الاضطهاد بهربه إلا أن كتبه سرقت بدمشق [٢] .

٢٢ - وقفة أمام الإنتاج الفنى

إن الإكتشافات الحديثة أعطتنا رؤية عجيبة . فلم يكن الأثريون يعرفون - قبل

---

(١) من هنا تدعمت روح الترابط بين أفراد الأسرة و بالتالى بين أفراد الشعب لأن الأسرة هى الخلية الأصيلة للمجتمع .

(٢) " إبن العسّال " [بالفرنسية] نشره ألكسيس مالون فى " الجورنال أزياتيك " ، عدد نوفمبر - ديسمبر سنة ١٩٠٥ ، ص ٥٠٩ - ٥٢٩ . أنظر أيضا هـ ٣ من هذا الكتاب ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

هذه الرؤية – غير قطعة واحدة من النسيج ترجع إلى القرن الحادى عشر . و كانت الرسومات القيمة على آثار بلدة بنى حسن القديمة تشهد لاستمرار هذا الفن . فتصوير الصناعات المختلفة و الكلمات المتناثرة هنا و هناك كأنها ملقاة بالصدفة قد مكنت الباحثين من الإستنتاج بوجود نسيج يتألف من سلسلة من الخيوط الحلزونية المتداخلة فى لحمة هذا النسيج قبل أن يكتشفوه . ثم أوصلهم التنقيب إلى اكتشاف القطع العديدة من النسيج فى سقارة و الفيوم و أنصنا و إخميم. و ثبت أنها ليست ستائر و لكنها زخرف للملابس . و النماذج المتبقية تمتد من القرن الثانى إلى القرن الثالث عشر . و تبين منها أن استعمال الحرير لم يبدأ إلا فى القرن الثامن . على أن الصوف كان فيه الكفاية للنساجين القبط لأن ينتجوا نسيجا غاية فى الرقة و الدقة . و ليس من شك فى أن النسيج – منذ العصور الأولى – أدى دورا أهم مما نظن . فهو كان ضروريا لتزيين المذابح و لتغطية الصينية و الكأس و للستائر و كذلك للملابس و للأكفان .

و تكنيكية النسيج وسهلة للتعلم . " و النسيج القبطى المطرز يتطابق و نسيج " الجوبلين " مع فارق بسيط فى التفاصيل الثانوية مما مكننى من إنتاج قطع قبطية بواسطة تلاميذ من مدرستنا للنسيج [1] " . و لقد كان النساج القبطى يستعمل ألوانا منتظمة ما عدا بعض القطع التى يتضح فيها هدف النموذج من تدرج ألوانه . و بوجه عام فألوان الخلفية هى الأرجوان و البنى المائل إلى البنفسجى و الأحمر بتدرجاته المختلفة ؛ أما تلك المستعملة للزخرفة فهى اللبنى السماوى و الأزرق و النيلى و البنفسجى و الأصفر و الأصفر المذهّب و البرتقالى و الأخضر الزرعى بكافة تدرجاته و الكحلى . و هذه الألوان ذات مقاومة عجيبة لأنها ثابتة للآن . أما التى أصابها تغير فهذا نتيجة عوامل خارجية كالتصاق الجسد المتحلل بكفنه . كذلك تتجلى دقة الصنع فى أن لون الظهر كلون الوجه تقريبا . و الكثير من القطع المكتشفة تعرضت للشمس و ظلت على صفائها فى حين أن هناك إنتاجات حديثة فى مختلف البقاع بهت لونها .

---

(١) عن جرساخ : " النسيج القبطى " ، باريس سنة ١٨٩٠ ، ص ١٠ و الجوبلين " gobelin " أدق نوع من النسيج الفرنسى للطرز الحديث .

و كلما تقدمنا نحو العصور الحديثة وجدنا أن الزخارف أشبه بكابوس تحقق . و العجب العجاب أن هذا الكابوس الذى يصور لنا مخلوقات خيالية مبهمة قد تحول تدريجا نحو الزينة . و فى تتبعنا لما تبقى من هذا الفن ندرك مدى الغنى و الفخامة التى تميزت بها الملابس المدنية و الدينية .

و توجد بمتحف فكتوريا و ألبرت (بلندن) أجزاء من قطع نسيج تصور لنا البشارة : نرى فيها مريم تغزل بمغزلها يواجهها الملاك غبريال الذى ينادى عليها بكلمة " ماريا " . و ثمة قطعة أخرى فى المتحف عينه تصور لنا الميلاد المجيد : فيها اضطجعت مريم على أريكة ، و قد حولت وجهها لتتحدث إلى ملاك متجه نحوها ، و من المستطاع رؤية المذود و الجاموسة و الحمار . أما القطعة الثالثة الموضوعة إلى جانب السابقتين فتتضمن أربعة موضوعات هى : جبل سيناء ، إعطاء الوصايا العشر لموسى ، المرأة نازفة الدم تلمس هدب ثوب الرب ، مرمياء لعازر . . .

و على جدران مسكن قريب من وادى سرجة (بجوار أسيوط) نجد رسما له جاذبية خاصة : إنه يصور الفتية الثلاثة فى أتون النار و بصحبتهم ملاك الرب . و يقف على مقربة منهم القديسان الشهيدان قزمان و دميان ، و تحتهما إخوتهما أنثيموس و ليونتيوس و يوبريبوس و إلى جانبهم ملاك مرسوم بشكل مختلف عن الملاك المصاحب للفتية الثلاثة . و تحت الجميع ثلاثة سطور بالقبطية جاء فيها : " شهداء أسيوط الثلاثة و تذكارهم فى ١٢ أمشير : هوركيتى الأصغر ، و أخى و مينا الصغير ، و معهم الرب يسوع المسيح [(١)] " . . .

و مما يجب ملاحظته نشاط القبط و براعتهم . . . إذ من الواضح أنه حين فقدت الفنون كمالها القديم فى كل مكان وقف القبط على رأس الحضارة فى مصر لغاية القرن الحادى عشر . ففى إخميم قطعة تلفت النظر لما فيها من توجيه إلى تاريخ الرموز : نرى فيها حملين يأكلان من الأغصان المنخفضة لشجرة وقفت فوقها حمامتان .

---

(١) " قاموس الآثار و الليتورجيات المسيحية " مجلد ١٥ ، القسم الثانى ، أعمدة ٢٤١١ ، ٢٤١٣ ، ٣٢٣٧ (مطبوع سنة ١٩٥٠ م بباريس) .

و تتجلى فيها عناية القبط بالبيئة و الإطارات : فالفتحات و الخطوط و الحلزونيات و الحجارة الكريمة كلها مرتبة بمهارة بالضبط كالرسم و الألوان . و هي تبين لنا أهمية الموضوع عند الرسام الذي نفذه . و هذه المهارة تضفي على الإنتاج سمة الثبات و الأناقة معا [1] .

و لقد شاء رب الكنيسة أن يكشف المنقبون عن آثار عديدة في أماكن مختلفة . فإذا ما تركنا الوادي و انتقلنا إلى البجاوات [2] تنتصب أمامنا الجبانة عند حدود الصحراء كأنها المعقل الأخير لجبل الطير . و في هذه المنطقة يزيد رسم " مفتاح الحياة " على رسم الصليب مبينا لنا الصلة التي لم تنقطع بين مصر الفرعونية و مصر القبطية . و تتكون الآثار المكتشفة من : ١- الجبانة ، ٢- مبنى كبير ، ٣- كنيسة مزدانة بمناظر من الكتاب المقدس ، ٤- أنصبة تذكارية .

و مما يلفت النظر أنهم جسدوا كلا من السلام و الصلاة و العدالة على شكل امرأة . فالسلام مصور في شكل امرأة منتصبة تماما واقفة في ثقة واضحة . و الصلاة امرأة في موقف الضارعة تواجه الناظر إليها ، و ساقها الأيمن إلى الوراء قليلا و منثن عند الركبة ، و هي ضخمة الجسم . أما العدالة فهي أيضا امرأة ممتلئة الجسم قصيرة القامة ، تبدو كأنها سائرة لأن قدمها الأيسر متقدم عن الأيمن ، و ذراعها الأيمن عار لغاية الكتف و قد مدته إلى الأمام و حملت في يدها ميزانا يتدلى كل من طبقيه بثلاث سلاسل . أما يدها اليسرى فتمسك بقرن مفرغ تبرز من فوهته الزهور و الفاكهة . و الكتابة على هذه الرسوم باليونانية و القبطية و العربية [3] .

---

(١) " قاموس الآثار و الليتورجيات المسيحية " ، و المقال للمستشرق الفرنسي كابرول ، المجلد ١ ، القسم الثاني ، أعمدة ١٠٤٩ - ١٠٥٠ .

(٢) على بعد خمس كيلومترات شمالا من مدينة الخارجة بالواحة الكبرى .

(٣) كابرول : " قاموس الآثار و الليتورجيات المسيحية " ، أعمدة ٣١ و ٤٧ و ٥٧ - ٦٠ ، و مما يدعو إلى الزهو أن اتخذ الفنانون القبط من المرأة رمزا إلى هذه القواعد الخيرية العليا . و مقابل هذا التقدير الحلو البادي في الفن منذ حوالي تسعمائة سنة نواجه العكس منه الآن !!!

٢٣ - من جيل إلى جيل

أ - صحيح أن التاريخ يحدثنا عن وقائع لها زمنها المحدود ، و لكن تاريخ الكنيسة كثيراً ما يجعل المتتبع له يستشعر كأن الزمن لم يعد له وجود . ذلك أن الكنيسة مثل ربها تعلو فوق الزمن - أليست امتداداً لملكوت الله على الأرض ؟ و هنا الإستشعار بتلاشى الزمن ينقلنا من الحديث عن الفن إلى التمعن فى أقوال المستشرق الفرنسى بوجيه عن بعض بلاد الصعيد ، و هى : " يقولون إن الصحراء ليست غريبة على ذلك الإنشغال بالأبدية الذى سجله المصريون على آثارهم القديمة . فيمكننا القول إذن أنها يسرت النمو المذهل للحياة الرهبانية فى أرض مصر منذ العصور المسيحية الإولى . فهذه الصحارى الشاسعة الصامتة الماثلة أمام عيون سكان وادى النيل تبدأ حيث تنتهى حقولهم : إنها تحتضنهم بل تضيق عليهم . و فى رؤيتهم لها يومياً ، يرون فى محاذاتها لنهرهم الخالد و لواديهم الأخضر محاذاة الموت للحياة . و هذه المحاذاة فى نظر العمالقة الذين اختطوا طريق الحياة فى الصحراء هى تحدى الحياة للموت . و هم - فى تحديهم - قد برهنوا على أنه فى مقدورهم أن يعيشوا الأبدية فى هذا العالم ، و بهذه المعيشة أثبتوا أن الحياة قد قهرت الموت .

و من العجب بمكان أنهم فى انتصارهم هذا قد أضفوا سمة الخلود حتى على الأماكن التى عاشوا فيها . و نظرة واحدة إلى " بقايا " الأديرة و القلالى المتناثرة داخل الصحراء و على طول الوادى تبين لنا مدى هذا الإنتصار الذى يظنه البعض انكساراً .

. . . و لنبدأ بدير أبوفانا - فى منطقة ملوى - لنزور كنيسة صغيرة . و الفنان الذى زينها قد وضع الصليب فى كل مكان . و رسوماته من أعجب الإنتاجات الفنية : ألوانها ما زالت صاحية زاهية . و هى فى واقعها - مجموعة بديعة من الصلبان الباهرة فى رقتها . فالجدار الداخلى تزينه صلبان كبيرة الحجم ، و إلى جانب كل منها الكفن و أدوات التعذيب للآلام المحيية . أما الجدران الأخرى فتزينها صلبان صغيرة متشابكة متداخلة بحيث تكوّن صلباناً أكبر ، و هذه بدورها تتماسك لتؤلف صلباناً ضخمة . فليس هناك شبر من الجدران خال من هذه العلامة المحيية ، مما يدل

على الوعي العميق بقيمة الصليب و رهبته . و الصلبان مرسومة في تنوعات و تدرجات متناغمة الألوان و كأنها ترنيمة .

و إلى الجنوب من هذا الدير البهير دير فريد في نوعه – هو دير السيدة العذراء بالجنادلة : إنه تجويفة محفورة في عمق الجبل الصخري . و واضح أنه منحوت على هذا النحو من العصر الفرعوني . ثم جاء بنو الفراعنة ، و قد اعتنقوا المسيحية ، و اتخذوا من هذه التجويفة كنيسة . ثم اخترقوا الصخر بدورهم لإقامة القلالي حولها ، و وضعوا لها النوافذ و الأبواب ، فأصبحت ديرا . بل إن هناك حلقات حجرية تتكون من ثقبين مائلين غائرين في الصخر . و أغلب الظن أنها كانت مربضا للدواب و الخيول الزائرين [1] . و للآن يرى من منحه الآب السماوي نعمة زيارة هذا الدير (الذي تقام الصلوات في كنيسته إلى اليوم) كثافة الصخر المنحوت . لأن آباءنا لم يحاولوا تسويته من الداخل و لا حتى تبييضه ، فيبرز جزء منه عن غيره و تظهر ألوان الصخر على طبيعته . و عندها لا يمجد رب الكنيسة على رهبانه فقط بل يمجده أيضا على بديع صنعه . ففي هذا الصخر المنحوت تلاقت محبة الإنسان بعظمة خالقه – هذه المحبة التي دفعت بآبائنا أن يعيشوا فعلا قول بولس الرسول : " ... تائهين في براري و جبال و مغاير و شقوق الأرض ... [2] " .

و مقابل هذا الدير المنقور تحت الجبل تبتهج بدير منقور فوق الجبل – هو دير السيدة العذراء بجبل أسيوط المعروف بدرونكة . ففي الأول ينزل الزائر السلالم الصخرية الوفيرة ليدخله ، و في الثاني تصعد به السيارة على الطريق الممهد لتوصله إلى فوق . و هنا أيضا كنيسة داخل قلب الجبل ما زالت جدرانها على الطبيعة الصخرية . و تحيط بالكنيسة قلالي جديدة أقامها نيافة الحبر الجليل أنبا ميخائيل مطران أسيوط و رئيس دير أنبا مكاري بوادي النطرون – أطال الله حياته . و بعد أن أتمها بدأ بعض من الشباب الحياة فيها . و ليس ذلك فقط بل إن هناك أيضا عددا من المكرسات يخدمن أهل درونكة و يؤدين بعض الأعمال اليدوية لبيعها . فنيافة المطران الجليل أعاد نظامي

(١) شارل برجيه : " عبور بصر العليا " [بالفرنسية] ص ١٨٠ ، ١٨٥ و ١٨٦ و ١٩٢ – ١٩٥ .

(٢) عبرانيين ١١ : ٣٨ .

النسك الرهبانى و التكريسى إلى هذا الدير . و هو أيضا قد وجه اهتمامه إلى الشعب - فبنى على الصخرة القائمة خلف الكنيسة سلسلة من الشاليهات ليجد فيها الزائرون الهادفون إلى قضاء فترة صوم السيدة العذراء أو غيرها من الفترات المقدسة أماكن يستريحون فيها . و تزداد النفس انتعاشا حين تمتد بالبصر إلى آخر الأفق . فالإحساس بالأبدية فى هذا الموقع إحساس توحى به الصحراء و الصخور كما يوحى به به الوادى الأخضر الممتد إلى اللانهاية .

و الجدير بنا أن نتأمل انسياب تاريخنا فى كل تعرجاته و منحنياته : فهو شاهد حى على قول رب المجد : « فى العالم سيكون لكم ضيق و لكن ثقوا أنا قد غلبت العالم [1] - و كنيسته غالية به و فيه و معه .

ب - و من المعلوم أن الأديرة لم تكن معاقل للروحيات فقط بل كانت أيضا منارات العلوم و الآداب . و لم يقتصر الرهبان نشاطهم التعليمى فيما بينهم بل امتدوا به ليشملوا كل من يحيط بهم أو يأتى إليهم . و ابتداء من القرن الثانى عشر بدأت اللغة العربية تتخلل اللغة القبطية . و يبدو هذا الواقع من مذكرة الفنان ثيئودوروس بالدير الأبيض سنة ١١٢٤ م ، و النقوش المتبقية فى أسوان سنة ١١٧٣ م ، و كلمات الفنان مركوريوس بالدير الأحمر سنة ١٣٠١ م ، و النقوش على جدران دير القديس سمعان سنة ١٣١٨ م . فى حين أن الكتابة المخطوطة فى دير كوم أمبو هى قبطى - عربى بتاريخ سنة ١٣٣٧ م . و هناك إهداء قبطى - عربى أيضا فى دير الأنبا بولا سنة ١٧١٣ م .

و جدير بنا أن نعرف أن أديرة البنات كانت هى أيضا محاريب العلم . و لا تزال هناك أسماء لعدد من الأمهات اللواتى رأسن الأديرة و علمن الراهبات . فنقرأ أسماء أمّا سيبيل [2] و أمّا سوسنة و أمّا ترتية و أمّا آنى فى سقارة ؛ و أمّا أغابى فى تهنا ؛ و أمّا هيّورا فى الفيوم ، و أمّا راحيل رئيسة دير بويط و تشاركها فى رئاسته

(١) يوحنا ١٦ : ٣٣ .

(٢) " أمّا " لقب كنسى يوازى لقب " أنبا " .

أما ثيئودوتى .

و يليق بنا أن نلحظ أن فى كنيسة بويط رسما رمزيا للكنيسة يصورها فى شكل امرأة كتب تحتها : " HAΓIA ЄKKΛHCIA" . و فى الكنيسة عينها أيقونة لراهبتين تتبعان رئيس الملائكة سوريئيل . إذن فالدير الضخم فى بويط كان يضم ديرا للراهبات أيضا [1] .

هـ – و هناك واقع فى تاريخنا الكنسى فريد به – هو أنه يتضمن العدد الوفير من الجنود المجهولين الذين لا نعرف غير أعمالهم . و من هؤلاء الجنود المهندس الذى بنى الدير الأبيض – فنحن نجهل حتى إسمه . و لكن المسجل عنه هو أنه قضى ثمانية عشر شهرا فى العمل ، يعاونه جيش من قاطعى الحجارة و البنائين و النجارين و غيرهم من العمال فى شتى المجالات . كذلك ورد عنه أنه رفض أن يتقاضى أجرا ، بل إن الأجر الذى كان من حقه بالإضافة إلى ماله الخاص أنفقه على عمل إكليل فخم علقه داخل القبة التى تعلو المذبح إعلانا للجميع عن تقديره و محبته لرئيس المتوحدين و تمجيدا لإسم الفادى الحبيب .

و يروى أبو المكارم قصة عن اثنين من الولاة هما الريان و القاسم (فى القرن الثامن) عرفا بالإختبار مرارة النتيجة لمحاولة اعتدائهما على هذا الدير . كذلك يروى لنا المؤلف نفسه أن أرمنيا إسمه بهرام كان وزيرا للخليفة الحافظ إعتزل الوزارة و قصد إلى الدير الأبيض حيث ترهبن سنة ١١٣٧ م . و من الأدلة الطريفة على هذه القصة وجود كتابة أرمنية على تجويفة فى الجدار الشرقى تاريخها سنة ١١٢٣ م . و يلخص المقريزى حديثه عن هذا الدير بقوله : " إنه دير قديم جدا تخرب الآن و لم تبق غير كنيسته . و يقال إنه كان يغطى مساحة قدرها أربعة فدادين و ربع بينما لا يغطى الآن غير فدان واحد فقط . " . و مما يؤسف له أنه لم يخرب إلا فى المعارك التى دارت رحاها بين المماليك و الفرنسيين فى أواخر القرن الثامن عشر .

---

(١) " قاموس الآثار و الليتورجيات المسيحية " ، المجلد الثالث ، القسم الثانى ، أعمدة ٢٧٦٢ ، ٢٨٢٧ ، ٢٨٥٩ – باريس سنة ١٩١٤ م .

و على شمال الباب (للداخل) فى الجزء الأسفل من وسط الكنيسة نقوش بالقبطية مرسومة بالأحمر يرجح أنها من القرن الثانى عشر ، هى الأسماء التالية : " هرون نجار ، بقطر نجار ، فيلوثيئوس و بشادى و استفانوس و أولاده و خايبل - فليغفر لهم الرب خطاياهم آمين " . و ليس من شك فى أنها أسماء بعض من ساهموا فى البناء .

أما المكتبة الضخمة فقد تسلى على سحب كتبها جماعة الفرنسيسكان فى القرن الثامن عشر حين وفدوا بحجة التبشير ، ثم تبعهم الطليان . و منها خرجت المخطوطات التى ترجمها زويجا و غيره من العلماء الغربيين الذين توالوا من بعده . و لم يبق الآن من هذه المكتبة غير غرفة صغيرة استطاع مندوب المكتبة الأهلية بباريس سنة ١٨٨٣ م أن يسحب منها أربعة آلاف ورقة من الرقوق الأنيقة التى تتباهى بها تلك المكتبة للآن [١] .

٢٤ - مع الأنبا متاوس الكبير البابا الـ ٨٧ [٢]

أ - أخضعت كل شئ تحت قدميه

عاش هذا البابا الجليل فترة من رهبنته سائحا فى البرية المتاخمة للصعيد الأعلى . و حدث ذات مرة أن صحبته ضبعة و هو سائر فى البرية و أخذت منه " البقجة " التى تحتوى على كل مقتنياته . فاستشعر بأن لها طلبا و سار معها إلى أن وقفت أمام صخرة مجوفة . و لما نزل إلى قاع التجويف وجد به جرو الضبعة . فحمله على كتفه و صعد به إليها . و تعبيرا له عن شكرها أخذت تلعق يديه و قدميه . ثم حملت بقجته و أوصلته إلى المغارة التى شاء أن يقطنها آنئذ . و تكملة لهذا اللقاء العجيب بين السائح متاوس و بين الضبعة نروى لقاء أكثر عجبا . ففى صباح

---

(١) " قاموس الآثار و الليتورجيات المسيحية " ، المجلد الرابع ، القسم الثانى ، عامود ٢٤٧٠ (باريس سنة ١٩٢١ م) و ليلاحظ القارئ أنهم تخفوا فى زى المبشرين .

(٢) وردت سيرة هذا البابا الجليل فى جـ ٣ من هذا الكتاب ص ٢٣٠ - ٢٥٢ .

اليوم التالى سمع خربشة على بابه . فلما فتحه وجد ضبعة الأمس و معها ضبعة أخرى تحمل جروا أعمى فركع على الأرض و بلل قبضة من الرمل بلعابه ثم طلى بها عينى الجرو فانفتحتا . فأخذت الضبعتان تلعقان يديه و قدميه ، و ظلتا تحرسانه طيلة الفترة التى قضاها بتلك المغارة .

فما أعجب عمل الله فى قديسيه .

ب - شهيد بغير سفك دم

إن الأحداث العظيمة التى جازتها مصرنا قد تسببت فى ضياع الكثير من تراثنا الروحى و العلمى و الأدبى . و من نعمة الله أن هناك ومضات سطعت هنا و هناك . و هذه الومضات تربنا أن محبة الآب السماوى مفتوحة لكل من يفتح قلبه لها . وإننا لنرى شمولية هذه المحبة فى سير الشهداء و القديسين : فهم من كل الطبقات و هم يجتمعون كلهم فيه له المجد .

و من السير القليلة التى وصلتنا عن العصور الوسطى [١] سيرة موجزة لرجل إسمه خريستودوللوس (أى عبد المسيح) . و كان صائغا يتقن صنعته . فجاءته امرأة ذات يوم جميلة حلوة اللسان . و تحدثت معه بكلمات فيها الكثير من الإغراء . و ساوره القلق فاحتج بأنه مريض فى حاجة إلى الراحة و رجا منها أن تأتى إليه فى يوم آخر . و حالما تركته قام لفوره و جمع كل أدواته و مصوغاته فى حقيبة و عاد إلى بيته . و هناك خلا إلى نفسه و قال بعزيمة : " من أنت ؟ أتزعم أنك أقوى من التجارب التى يشنها العدو ؟ تأمل القديسين العمالقة الذين هجروا العالم و عاشوا فى البرية . " . و بعدما ناقش نفسه بهذه الكلمات روى لأمه ما حدث له . ثم استعطفها بدموع غزيرة أن تسمح له بالذهاب إلى الصحراء . قالت له : " ما دمت تريد أن تترك العالم فخذنى إلى دير أعيش فيه . فأنت وحيدى و ليس لى غيرك . " . و فى الحال باع كل ما عنده و وزع نصيبه مستبقيا نصيب أمه . ثم استصحبها إلى دير و سلمها

---

(١) يرجح بعض المؤرخين أن خريستودوللوس عاش حوالى القرن الخامس عشر .

لرئيسته و أعطاها المال الذي استبقاه . ثم قصد إلى الجبل .

و سار على غير هدى ثلاثة أيام . و فجأة رأى أمامه ثلاثة رجال بيد كل منهم صليب يشع منه نور أبهى من نور الشمس . فذهب إليهم و نال بركتهم . ثم أخبرهم بهدفه و طلب إليهم أن يرشدوه إلى المكان الذي يستطيع أن يخلو فيه للعبادة . فساروا به إلى واد به أشجار مثمرة و عين ماء عذب ، و هناك تركوه . فعاش لسنوات عديدة يشغل نفسه بتلاوة المزامير و بالصوم و الصلاة . و غنى عن القول أن عدو الخير داوم على محاربته . فلما عجز عن التغلب عليه وسوس إلى قوم أشرار بأن في الوادي كنزا ثمينا عثر عليه شخص مقيم بجواره . " فتعالوا معي لأريكم إياه . " . و تبعوه و لكنهم كانوا على مرتفع من الجبل لم يتمكنوا من النزول منه . و أمام هذا الفشل تراءى الشيطان للقديس خريستودوللوس في زي راهب ، و قال له : " لقد ضل بعض الرهبان الطريق . و هم في أعلى الجبل و قد عجزوا عن النزول لأن الجوع و العطش أنهكاهم . و أنت لا ترضى بتركهم يموتون . فتعال معي لترشدهم إلى الطريق صونا لحياتهم . " .

على أن خريستودوللوس كان قد عود نفسه على الإستعانة بعلامة الصليب و بالأخص متى واجه طلبا يتشكك فيه . فحين سمع هذه الكلمات رسم نفسه بالعلامة المقدسة الغالية . و في الحال تلاشى الشيطان من أمامه .

و كان كلما تقدمت به الأيام يزداد تقشفا و تعبدا حتى لقد اعتبره بعض الآباء شهيدا لمصارعته نفسه بلا هوادة . و لما دنا يوم انتقاله جاء إليه الرجال الثلاثة الذين كانوا قد أرشدوه إلى مقره - و كانوا سواحا . فاجتمعوا معه و اشتركوا في الصلاة معا . و بعدها قال واحد منهم : " إن الرب الإله قد أرسلنا إليك لتخبرنا بسيرتك كي نسطرها بنيانا للآخرين . " . فروى لهم كل ما جرى له . و لما انتهى من حديثه أخبروه بقرب انتقاله إلى الفردوس . ففرح فرحا عظيما . و بالفعل تنيح بعد أيام قليلة بشيخوخة صالحة .

٢٥ -إنعكاس التعاليم الأبائية

أ - إن الله الذي حدد الأوقات و الأزمنة قد شاء أن تُطبع نسخة (و لو أنها موجزة) من قوانين الرسل الأطهار في أصلها القبطي مع ترجمتها الإنجليزية . و هذه النسخة هي الوحيدة الباقية في أصلها [١] :

قال يوحنا : " أيها الرجال الإخوة نحن نعلم أننا سنؤدي حسابا عما نسمع و عما أوصينا به . لذلك لا يليق بنا أن نتغاضى عما يقترفه صديقنا [٢] . بل إن سمع أحدنا صديقه يتكلم بكلام غير نافع عليه أن يرده مباشرة بقوله : يا صديقي إن ما تقوله غير صالح . " . و إذ سمع الرسل هذا الكلام سروا أن يكون يوحنا هو المتحدث الأول [٣] . . .

قال صفا : " فلتعيَّن ثلاث أرامل : إثنتان تقضيان كل انتباههما للصلاة عن كل من يكون في تجربة ، و لرفع الشكر إلى ذاك الذي يخدمانه . أما الثالثة فتستمر مع النسوة المجرَّبات من المرض و تخدمهن بالصلاح ، و تراقبهن ، و تخبر الكاهن بكل ما يحدث . و لتكن غير محبة للمال و لا للشرب . لكي تستطيع السهر و الخدمة بالليل . و إن شاءت أخرى أن تعاونها في عمل الخير فلتفعل ذلك حسب مسرة قلبها . لأن هذه هي الصالحات التي أوصانا بها الرب . . . **أيها الإخوة إن السلطة ليست لواحد** . و لا بالإضطرار . بل بالتراضي كما علمنا الرب [٤] . " .

لتصم الأرامل و العذارى كثيرا . و **دعوهن يصلين في الكنيسة** .

---

(١) الدساتير الرسولية أو قوانين الرسل ، بالقبطية و معها ترجمتها الإنجليزية قام بها هنري تاتام أرشيدياكون بدفورد ، لندن سنة ١٨٤٨ م ⲚⲒⲔⲀⲚⲰⲚ ⲚⲦⲈ ⲚⲈⲚⲒⲞϮ ⲈⲐⲞⲨⲀⲂ ⲚⲀⲠⲞⲤⲦⲞⲖⲞⲤ و الخطان القبطي و العربي مكتوبان بدقة و جمال .

و هذه النسخة و ترجمتها محفوظة في مكتبة المتحف البريطاني (لندن) رقم 5 e 14003 .

(٢) و من له أذنان للسمع فليسمع .

(٣) أين أولوية بطرس ؟ بل إنه مذكور بإسم صفا في هذه القوانين .

(٤) نسمع هنا من صفا إعلانا صريحا بأن السلطة ليست لواحد .

و على المؤمنين جميعا ، حالما يستيقظون ، و قبل أن يضعوا أيديهم في أي عمل ، أن يصلوا . و على هذا النمط يؤدون أعمالهم . و ليسارعوا إلى الكنيسة : المكان الذي يحييهم الروح فيه .

و من كانت له زوجة فليصليا معا . و أنت أيها المتزوج لا تكف عن الصلاة لأنك طاهر [١] .

و من الضروري عدم الإفتخار بالمواهب و بالرسامات . لأنه بالحقيقة لن تكتب أسماؤنا في السماوات عن طريق إخراج الشياطين لأن مشيئتنا و تدقيقنا هما من الله كما يظهرهما هو فينا . و الآيات لا تؤدي إلى الإقتناع إطلاقا بل تقديرها وحده هو المقنع . و لقد منحها الله لوكلاء أمناء لتكون قوة العقيدة ليست من الإنسان بل بمشيئة الله . و لقد صرحنا بهذه الأمور لكي لا يتعالى من نالوا هذه العطايا و هذه النعم على من لم ينالوها .

حذار أن يرفع إنسان نفسه على إخوته و لو كان نبيا .

ب - و من المخطوطات القديمة التي تزخر بها مكتبة المتحف البريطاني نسخة (غير السابقة) لقوانين الرسل [٢] جاء في جزئه الثامن :

الشماس

عيِّن الشماس أيها الأسقف بوضع يدك عليه بينما يقف حولك الكهنة و الشمامسة ، لتصلي عليه قائلا : يا الله ضابط الكل - أنت هو الحق الذي لا غش

---

(١) هنا تركيد لقدسية الزواج و بالتالي لوجود الكاهن المتزوج . و العجيب أن الكنيسة التي تحرم الزواج على كل الكهنة هي الكنيسة التي تلتصق ببطرس الرسول الذي كان متزوجا .

(٢) الدساتير الرسولية : الكتاب الثامن الذي وصفه المترجم بأنه " الترتيبات المصرية " : " The Egyptian Ordinances " .

فيه ، الغنى نحو الجميع الذين يطلبونك بالحق . أنت هو المخوف فى المشورة . الحكيم فى الفهم . القدير العظيم . أصغ إلى صلواتنا يا رب . و لتدنُ توسلاتنا إليك . دع وجهك يشرق على عبدك هذا الذى هو معيَّن للخدمة (أى الشماسية) . إملأه من الروح القدس و من القوة كما ملأت استفانوس أول الشهداء الذى تمثل بآلام مسيحك . إمنحه بعد أن يخدمك خدمة مرضية بلا لوم و لا حيدة قيد شعرة أن يُحسب أهلا لدعوة أعلا : بيوم إبنك الوحيد الجنس الذى يليق به معك مع الروح القدس المجد و الإكرام و العز و الإجلال إلى انتهاء الدهور - آمين .

الشماسة

أيها الأسقف ضع يدك عليها بينما يقف الكهنة و الشمامسة و الشماسات حولك . لتصلى عليها قائلا : يا الله الأبدى أبا ربنا يسوع المسيح . خالق الرجل و المرأة . الذى ملأ من الروح القدس مريم (أخت موسى) و دبورة و حنة و خُلدة . أنت لم تجد غضاضة فى أن يتجسد إبنك الوحيد الجنس من امرأة . أنت الذى عينت فى خيمة الإجتماع و فى الهيكل نسوة لحراسة أبوابك المقدسة [1] . تطلع الآن إلى أمتك هذه التى هى معيَّنة للخدمة (أى الشماسية) . إملأها من الروح القدس . طهرها من كل أدناس الجسد و الروح لتستطيع أن تؤدى خدمتها و العمل المؤتمنة عليه و تكمله لمجد مسيحك و تسبيحه . هذا الذى يليق به معك مع الروح القدس المجد و الإكرام و العز و الإجلال إلى انتهاء الدهور - آمين .

و منذ القرن الرابع للميلاد نجد القديس ابيفانيوس - أسقف قبرص - يعتبر الشماسات ضمن الطغمات الكنسية . بينما يتحدث القديس باسيليوس عنهم بوصفهن مرسومات [2] .

---

(١) خروج ٣٩ : ٨ ، عزرا ٢١ : ٦٥ ، نحميا ٧ : ٦٧ ، مزمور ٦٨ : ٢٥ .

(٢) المرأة المصرية فى مواجهة المسيح - للمؤلفة ، ص ١٨٦ - ١٨٩ ، ١٩٢ - ١٩٣ .

و لقد كان عمل الشماسة يتضمن :

١- الإفتقاد : فكان عليها زيارة الوثنيات لتوصيل البشارة إليهن . فلما زالت الوثنية كانت تفتقد العائلات المحددة لها لتحثها على وجوب الصلاة و الصوم و المواظبة على الذهاب إلى الكنيسة و التناول من الأسرار المقدسة . و خلال هذه الزيارات تتعرف على احتياجات من تزورهم ، ثم تقدم تقريرا شاملا عنهم إلى الكاهن أو الأسقف تبعا لمن عينها و جعلها مسئولة أمامه .

٢- زيارة المرضى ثم القيام برعاية الناقهات من غسل أجسامهن و ملابسهن و إعداد الطعام لهن .

٣- الوقوف إلى جانب الكاهن أو الأسقف حينما يقوم بصبغ امرأة بالصبغة المقدسة . و حين تخرج المصطبغة من جرن المعمودية فالكاهن (أو الأسقف) يدهن رأسها بالميرون المقدس ، ثم يجعل الشماسة تدهن بقية أجزاء الجسم . و عليها أيضا أن ترشد المصطبغة إلى وجوب الحرص على الصبغة المقدسة بالحياة في طهارة و قداسة و في سعي لبلوغ الكمال الذي وضعه السيد المسيح هدفا للمؤمنين به .

٤- الإشراف على النساء و الأطفال في الكنيسة ، و إرشادهن إلى ما يجب مراعاته من احترام و احتشام في بيت الله .

و يتحتم على الشماسة أن تكون عذراء ، أو أن تكون أرملة لم تتزوج إلا مرة واحدة . و إذا كانت أرملة يجب أن تكون في الستين من عمرها على الأقل ، كما يجب أن يكون مشهودا لها من الجميع . أما العذراء فلم يُشترط فيها سن معين .

و أشهر شماسة في العصر الرسولي هي تلك التي اختيا أثناسيوس الرسولي في

بيتها ست سنوات تجنبا للبطش الأريوسي . و لم يعرف إنسان مخبأه خلال هذه الفترة . تحفظت حياة حامي الإيمان القويم و خدمته بأمانة و صمت . و هو قد شهد بنفسه أنه اختبأ عند تلك التي هي فوق الشبهات [1] .

هـ - عرش الحكمة

وإن الأسفار الإلهية تقدم لنا الأدلة الفائضة على الحركات التي ظلت ملازمة للأمومة حتى بعد السقوط . فمن سفر التكوين إلى النبوات و حتى إلى سفر الرؤيا نجد البداية مطابقة للنهاية . و المتمعن للأسفار الإلهية يجدها كلها تتحدث عن " الزوجة " التي سقطت فرفعها الله و أحبها و جعلها مجيدة : أورشليم الجديدة تُبتلع إلى الفردوس فنراها و قد بناها الله بنفسه فتزداد سماتها الشخصية وضوحا . و هذه الحقيقة الملازمة لبداية الزمن و نهايته تتركز في شخص واحد فيراها النبي امرأة في بؤس تبكي موت وحيدها . و فجأة تتحول أمامه فترمي بثوب حزنها و تسطع بالمجد [2] ...

و يرى الشرقيون الحكمة على أنها فن تنسيق الحياة و بالتالي تنسيق الحكم بين الناس . و الحكماء - خارج إسرائيل - أقروا بأنه ليس هناك حكيم ما لم يضع القداسة في الصدارة . و تدريجيا تتحول الحكمة من حكم مملكة أرضية إلى التأمل في طرق الوصول إلى السماويات . و في النهاية تبرز الفكرة بأن الله هو الحكيم الأوحد [3] . أما دانيال فيطابق الحكمة التي يطلبها الإنسان و لا يستطيع بلوغها على استعلان الأسرار : أي الأسرار العظمى التي يتبلور فيها تدبير الله [4] . ثم يحتضن بولس الرسول النمو في شامله بإعلانه أن حكمة الله ، جهالة في أعين الناس ، في نهايتها

---

(1) هـ ١ من هذا الكتاب ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

(2) قارن بين هذا الوصف و ما جاء في رؤيا ١٢ .

(3) أيوب ٢٨ : ١٢ - ٢٨ .

(4) الأصحاح الثاني .

السر الفريد كلى الاستعلان الذى هو المسيح ، أو بالحرى صليبه [1] . ثم يوضح فيما بعد أنه فى بنيان الكنيسة بوصفها جسد الرب الميت المقام تُستعلن أعمق خفايا الحكمة الإلهية .

و المرأة شريكة الرجل فى بركاته و فى سقوطه تبرز من البداية على أنها حامل وعد الفداء . و يضع لنا متى البشير الحجر الأول فى بنيان " المريمية " . و بتوجيهنا إلى مكانة مريم فى النبوات المسيانية نراه أول من يؤكد بتوليتها و يبين أنها توضيح بطريقة غاية فى العجب للأصحاح السابع من أشعياء . و نجد فى تسبحة مريم العذراء استهلالا لملك التطويبات . و نشوتها و هى فرحة جميع المتواضعين الذين لا سند لهم غير إيمانهم . و هى تستعرض الإثمار الروحى للإختيار الحر فى صلة إرتكانه على الله .

" القدوس المولود منك " - هنا يكمن أساس الإرتفاع الشاهق لطبيعتنا الذى نشاهده فى سيدتنا و هو يتضمن ما هو أعجب : عجب تنازل الله فى جعل نفسه إبن حواء . فالله الذى ينزل بنفسه إلى هذا الحد يرفع مريم فى تواضع إيمانها الكامل و طاعتها المطلقة إلى الفداء . و كما رفّ روح الله قديما على وجه المياه هكذا حل على السيدة العذراء و بذلك منح الإنسان رتبة ملكية جعلته أعلا من الملائكة . و كلمة " الرب معك " ليست شكلا عاديا للبركة ، لأن الإنسانية الجديدة التى بدأت فى مريم إنسانية متصالحة مع الله الآب . و حضرته جاءت لتبقى مع الإنسانية . و البركة المكررة للمرأة على الرغم من اللعنة قد تحققت فى مريم . و هكذا فى العذراء القديسة تحررت المرأة - و الرجل أيضا - من اللعنة القديمة فلم تعد بنت حواء بل بنت حواء الجديدة . (و من له أذنان للسمع فليسمع) .

و كلمتها " لقد فرغ الخمر " تؤكد أنه عن طريقها يأتى السيد المسيح للناس . إنها تهئ الفرصة لعمله ، و إيمانها مُلهِب للآخرين .

---

(١) ١ كورنثوس ٢ .

... " هو ذا إبنك " - هنا نرى عملية امتداد أمومة العذراء و تستجلى صورة المرأة المتوجة بإثنى عشر كوكبا . إنها أولا أم المسيا ملك الآلام ، ثم بعد ذلك الأم التى تلد جميع أولادها فى آلام مستديمة إلى انقضاء العالم .

... و كان بالضرورة أن التأملات المسيحية تنتهى إلى أن كل صفات الحكمة تجعل منها شخصا معينا : شخصية ذات صلة فريدة بالله [1] . فمن هى تلك الشخصية القريبة من الله من غير أن تكون الله ، مترابطة معه بصفتها أما للعالم كله ، **تلك الشخصية الأنثى التى تحقق تدبير الكمال ؟** و لقد رأى الآباء فى الأصحاح الثانى عشر من سفر الرؤيا أن هذه الشخصية هى مريم . و حينما تقترب من الواقع المذهل - واقع الميلاد العذراوى - يتحتم علينا أن نردد صلاة أحد الآباء و هى : " لن أحاول يا إلهى أن أصل إلى علياتك إذ لا أجسر أن أقيسها بعقلى ، و لكن رغبتى هى أنه بقياس ما أفهم حقيقتك أقمنها لأن قلبى يؤمن بها و يحبها . " .

و ليس هناك من يستطيع تجنب الخطر لو أنه تقدم بمفرده . و من يهدف التفتيش فى مغزى أعمال الله عليه أن يلتزم بدقة بتقاليد الكنيسة و قداسها الإلهى و تعاليم آبائها . و الكنيسة تعطينا درسين عن الميلاد البتولى : ١- تجنب الخطية الجديدة ، ٢- الخلق خليقة جديدة . فيقول غريغوريوس النزنيزى : " **إن ميلاد السيد المسيح يقدس فى آن واحد البتولية و الإخصاب .** " . و اقتداء السيد المسيح إيانا هو وحده الذى يمنح النسك فاعلية لأن كل قوته مستقاة من النعمة . و الفقراء بالروح ليس لديهم شئ إطلاقا غير الله . و هذا الواقع نراه فى المرأة التى وعد الله أن يتم خلاصه عن طريقها . فقد وافقت بملء إرادتها على الفقر التام بتكريس بتوليتها لله . فيجب عليها أن تكون فقيرة ، ليس فيما يتعلق بالخيرات الخارجية فقط ، بل فقيرة أيضا فى الحياة بعينها . و عندها نزل إليها الكلمة الإلهى فظللها الروح القدس لتلد إلى العالم ما يفوق الفرد الإنسانى . و بتقديمها نفسها و إيمانها لله ، و بتسليمها بتوليتها ولدت للعالم المخلص الأوحد الذى يتحقق فيه تجميع كل أولاد الله المبعثرين . فهذه العذراء ، عن خلال كل ما تعنيه بتوليتها و كل ما تتضمنه من ولاء للتدبير الإلهى الفدائى صارت أما للخليقة الجديدة . إنها لم تشته

---

(١) عبرانيين ١ : ٣ ، ١ كورنثوس ١ : ١٧ - ٢ : ٧ ، كولوسى ٢ : ٣ ، أفسس ٣ : ١٠ .

إلا أن تكون أمة للرب و منها وُلد " العبد " . و الميلاد البتولي لا يعني تحقير الجنس إذ قد أتى إلى العالم بأمر فريد أكثر إخصابا و أعجب عجبا من أي شئ في تاريخ الإنسان : إنه أتى بالفردية الشخصية . إنه لم يأت ليضع إنسانية مفدية بموازاة إنسانية ضائعة ، بل إنه « جمع كل شئ فيه ما في السموات و ما على الأرض [1] »- أي أن تاريخ الإنسانية من بدايته إلى نهايته قد تجمع فيه . فالميلاد البتولي إذن شئ فريد ، لأنه بدلا من استمرار التقطيع الذي يحتمه التناسل الطبيعي ، هو مصدر لإعادة تجميع أولاد الله . فيعلمنا كيرلس عامود الدين : " إننا جميعا كنا في المسيح : الشخصية الإنسانية الأصيلة تعيش فيه . " . إذن فبتولية العذراء صارت آية لقوة الله . لأن البتولية تحتم التضحية بأغلى ما في الإنسان . على أنه يجب أن نؤكد أن المعنى المتسامي للبتولية المسيحية لا يمكن تفهمه إلا على ضوء العظمة الحقيقية للزواج المسيحي . فرب المجد نفسه ، بعد أن رفع الزواج و أعاده إلى معناه الكتابي الأصيل امتدح البتولية [2] .

و السيدة العذراء لم تتقبل الأمومة من الله فقط بل إنها تقبلت فوق ذلك الأمومة لوحيد الآب الكائن منذ البدء فهي كانت ستصبح هيكلا للاهوت و لذلك تربّت في الهيكل . و سر مريم هو سر النعمة . سر العطية . عطية الله الحرة التي يعطينا بها حياته ذاتها لتكون حياتنا . و أمومة السيدة العذراء تنعكس خلالها علينا أبوة الله في صلته بنا . . . و الأبوة هي استعلان أن الله عطية بل بالحرى هو العطاء . و هذا العطاء يحقق أثره مباشرة في معطى : في ذاك الذي لا يتقبل كمال العطية فقط بل إنه هو هذا التقبل لها : و هو الإبن . و كما أن الإبن يتقبل ما يعطيه إياه الآب فإنه هو بعينه بتقبله يعطي نفسه . و العطية الموهوبة من الآب الذي هو واحد و متطابق مع العطية هو الإبن - و في تقبله يعطي الآب . و هذا العطاء المنعكس هو الروح القدس المنبثق من الآب : و الآب و الإبن و الروح القدس هم المحبة : محبون ، محبوبون .

---

(1) أفسس ١ : ١٠ .

(2) متى ١٩ : ١٠ ، و تمشيا مع هذا التقدير لكل من البتولية و الزواج تعيّد كنيستنا بعرس قانا الجليل و تذكار الست دميانة في يوم واحد .

و الأمومة على المستوى الإنسانى هى فى واقعها الصلة الشخصية التى فى مقدورها أن تصل إلى المكانة الممتازة ذات القيمة العليا . فإبن الله بصيرورته إبنا لأم قد قبل ذلك الإرتكان على الإنسان الذى رفضه الإنسان نحو الله . إنه قبل الطبيعة الإنسانية لا بوصفها أخذ فقط ، بل بوصفها ارتكان و محدودية و تحديد بكيان أمه : طبيعة إنسانية هى طبيعتها قبل أن تصبح طبيعته من خلالها وحدها . و ليس هناك سر أعمق عن الفحص من كون الإبن الوحيد الجنس الأزلى قد صار محدودا داخل إنسان : اللازمنى صار زمنيا . إذن فأمومة السيدة العذراء ليست مجرد صلة الأصول بل هى تتضمن تطابقا و شمولية .

و تأملنا فى أمومة العذراء مريم أوصلتنا إلى ثلاث حقائق مترابطة : ١- كيف أن التاريخ الإنسانى لا يبلغ كماله إلا بإنكار الذات فى إيمان ثابت : إنكار سيطرة الذات ، ٢- الإثمار الفائق الطبيعة للإيمان ، ٣- و هذا الإثمار الفائق الطبيعة المتحقق بالتسليم التام هو أبعد ما يكون عن هدم الشخص الذى ضحى بنفسه : إنه بالحرى تجديد له . ففى مريم أعاد الله الآب خلق كل الأشياء فى إبنه الوحيد الجنس . و مريم فيه قد حملت الخليقة التى صارت جديدة من فوق . و الحكمة ليست مجرد تأمل : إنها معمارية بناءة . إنها الفن الذى به يصل الإنسان إلى معرفة هذا مقدارها للعالم يستطيع بها أن يكوّن التاريخ لأغراضه ، يعطى العالم شكله النهائى [١] .

و يجب أن نلحظ هنا مدى تمسك كنيستنا بهذا التعليم السرى الخفى فى قول الكاهن الخديم فى آخر القداس : " أمين . أمين . أمين . أؤمن . أؤمن . أؤمن و أعترف إلى النفس الأخير أن هذا هو الجسد المحى الذى أخذه إبنك الوحيد ربنا و إلهنا و مخلصنا يسوع المسيح من سيدتنا ملكتنا كلنا والدة الإله القديسة مريم . . " بينما يعطينا البابا كيرلس الكبير ، فى قداسه الرائع ، ذلك التوكيد المذهل لسر التبنى الذى منحنا إياه الآب الحنون بإضافته :" إذ نصير شركاء فى الجسد و شركاء فى الشكل و شركاء فى خلافة مسيحك . " .

---

(١) عن كتاب " عرش الحكمة " [بالفرنسية] للويس بوييه ، لندن ، ١٩٦٠ .

د – يقول لنا الوحي الإلهي : « فالذين تشتتوا جالوا مبشرين بالكلمة . . . [١] »
و من عجب الله في كنيسته أنه – له المجد – قد جعل حتى من تشتت المخطوطات وسيلة لنشر تعاليمها كما ترى فيما يلي :

* هذا الكتاب بالعربية و القبطية واللاتينية – و هو يتضمن سلمٍ السمنودي و ابن كاتب قيصر [٢] . و مقدمته العربية هي : رسالة إلى حكما و ماهرين أهل المشرق . الحمد لله الموحد الذات المثلث بالصفات الذي ليس له شريك في الأزلية و لا نظير في الربوبية . و لا صاحب له يعاونه و لا ضد يقاومه و لا ند تنازعه + مبدع البرايا و مانح العطايا + الخفي بذاته الظاهر بأعماله و آياته + و لذلك منح الإنسان فضيلة العقل ليفحص عنها بالمباحثة و النقل + فمن موجب ذلك أنا الحقير أثناسيوس كيركيريوس إذ عرفت التزامي عزمت على كافة العلوم بجهدي و اهتمامي + و انحصرت بما صنعت الحكمة الإلهية و أبدعت القدرة الربانية من عجائب المخلوقات و غرائب الموجودات و الآثار العلوية و التأثيرات السفلية + و تأملت الأرض و مساحتها و الأقاليم و حدودها و صفاتها و أبحارها و أجبالها و أنهارها و الجزائر و البحيرات الكبار و الحفاير و الآبار و البلدان و الآثار القديمة و المباني العظيمة و الأمم الماضية و الهياكل + و تأملت أيضا بموت القيران و عجائب الحيوانات و النباتات و طبعهم و صفاتهم و قواتهم + و من ثم صعدت إلى الفلك العلي و علومه و فحصت عن سيران كواكبه و نجومه + و لان الحكما كتبت عن ذلك بلغات مختلفة تشددت أيضا لاكتسابها + و بعون واهبها الرحمان معطي العميان و منطق الخرسان اكتسبت بحرصي و اجتهادي أربعة و عشرين لسان من جملتها القبطي القديم لسان الحكمة و الكهانة الظاهرة إلى الآن في البرابي و المسلات و ما يشاكلها + و لان فيها العجايب الباهرة و الأسرار المكتوبة اثرت أني اقدم الى فتح اقفالها كتابي هذا . . . كان ذلك في رومية العظمى في يوم الجمعة المباركة و هو العشرون من شهر آب السرياني و يسمى عند

---

(١) أعمال ٨ : ٤ .

(٢) " السلم " كان كتابا في قواعد اللغة القبطية ، و قد قام عدد من القبط في القرن الثالث عشر بوضعها حرصا منهم على بقاء لغة أجدادهم ، و من أوائلهم الأنبا يوتس السمنودي و ابن كاتب قيصر ، أنظر ج ٣ من هذا الكتاب ص ٢٤١ – ٢٥٠ .

الروم اغسطوس سنة الف و ستماية تلتة و اربعين مسيحية و هى سنة الف و تلتماية و واحدة و ستين فى تاريخ الشهدا الاطهار فى اليوم السادس من شهر توت القبطى + الحقير الفقير اثناسيوس عبد يسوع المسيح من بلاد النمسا [1] . " .

٢٩- " و قال هكذا ملكوت الله كأن إنسانا يلقى البذار على الأرض و ينام و يقوم ليلا و نهارا و البذار يطلع و ينمو و هو لا يعلم كيف . . " مرقس ٤ : ٢٦ - ٢٧ .

أ - إستعمال البخور

لقد علمنا رب المجد أن ملكوته أشبه " بخميرة خبأتها امرأة فى ثلاثة أكيال دقيق حتى اختمر الكل " ؛ و هذا معناه أن المسيحية دين يجب أن يستوعبه القلب و العقل و يتخمر فيه . و الخميرة خفية العمل بطبيعته إلا أنها أكيدة المفعول . و هذا واضح من الإقتناع الذى وصل إليه كاتب المقال التالى :

إن استعمال البخور مما أوصى به الله لموسى إذ أوصاه : « خذ لك أعطارا . ميعة . و أظفارا و قنة عطرة . و لبانا نقيا . تكون أجزاء متساوية فتصنعها بخورا

(١) و النسخة المنقول عنها هنا محفوظة بمكتبة المتحف البريطانى رقم 5 c 622 ، و ليلاحظ القارئ تطور اللغة بمقارنة المقدمة الواردة هنا مع التعبيرات الشائعة الآن . و قد أسهب الناشر فى حديثه عن الكلمات القبطية و معانيها إذ استند أيضا إلى " السلم الكبير " الذى وضعه أبو البركات ابن كبر . و لقد استكمل الكاتب تسجيله بالعربية و القبطية بترجمة لاتينية ، وَرَدَ على ص ٥١٧ منها (فى أولها) ما يلى : " غبريال حقير بنعمة الله خادم الكرسى مار مرقس بمدينة الإسكندرية . " . و يلى الرسالة كشف بأسماء الباباوات من مار مرقس إلى الأنبا متاوس (و أغلب الظن أنه معنى المسكين البابا السابع و الثمانين) . و العجيب أن المترجم تحدث بعد ذلك عن السنة القبطية و شهورها و ما ترتبط به من الأبراج ، ثم عن الموازين و المكاييل و العملات المصرية المختلفة ؛ و بعدها وصف الأعشاب المصرية و فوائدها الطبية . و هكذا استخدمه رب الكنيسة القبطية لنشر مختلف العلوم التى صدرت عنها . و من نعمة الله أيضا وجود نسخة من هذا الكتاب بمكتبة المتحف البريطانى يستطيع أن يصل إليها من تتاح له الفرصة .

عطرا ... [١] » و المقصود من العبادة الطقسية هو إكرام ذاك الذي تقام لخدمته . و جدير بنا أن نذكر أن السيد المسيح له المجد دعم هذه العبادة الطقسية باشتراكه في شعائرها . و لقد قدم له المجوس لبانا ضمن تقدماتهم ثم وصف لنا يوحنا الرسول العبادة السماوية في أسمى درجاتها فقال : « ... و لما أخذ السفر خرت الأربعة حيوانات و الأربعة و عشرون قسيسا أمام الخروف . و لهم كل واحد قيثارات و جامات من ذهب مملوءة بخورا هو صلوات القديسين [٢] » . إذن فعلى امتداد الأسفار الإلهية نجد للبخور قيمة خاصة في العبادة . و هذا هو السبب في أن الكنائس الشرقية التى تعتز بوفائها التام للتقليد الرسولي تستعمل البخور .

و استخدام البخور ذو قيمة روحية . صحيح أن الهدف الأساسي من استعماله هو لتمجيد الله ، و لكنه ككل التقدمات المرتفعة نحوه ينعكس على من يقدمونه . و للبخور معنى عميق إذ هو يرمز إلى صلاة المسيحي الصالح التى أوقدتها محبة الله داخل قلبه ، فتصعد صوب السماء و قد ازدانت برائحة السيد المسيح الزكية ، و لذلك تهتف كنيستنا : " لتستقم صلاتي كالبخور قدامك . " . و حين نراه صاعدا ترتفع قلوبنا معه . و لأن للبخور رائحة زكية فهو يضفي على الكنيسة هذه الرائحة و بالتالي يميزها على أي مكان آخر . و هذه الرائحة الزكية تذكرنا بالتوقير و التبجيل اللذين يجب أن يملأ قلوبنا و نحن داخل مخدع ملك الملوك [٣] .

ب - التطور و الميلاد الجوهري

إن التطور هو الإمتداد الطبيعي و الذهني و الروحي ، و روح الله يرفّ على صنعة يديه مانحا إياها ملء الحرية و ملء الوقت اللازمين لخلاصها لتصعد من التراب إلى الروح . و صنعة يديه تستغرق الوقت و لكنها تتسم بالثبات و الإستمرار . و على امتداد الأجيال لم يكن هناك من تراجع للورثة الحقيقيين لأولئك الذين سعوا إلى

---

(١) خروج ٣٠ : ٣٤ - ٣٥ .

(٢) رؤيا ٥ : ٨ .

(٣) " إستخدام البخور " [بالإنجليزية] للأب جورج دالبيد روزنتال ، أكسفورد سنة ١٩٢١ .

خلاصهم بالتزامهم بالخط التصاعدى الحق لأن الله كان يعمل فيهم لأن يريدوا و أن يعملوا . . . ففى مثل هذه اللحظات ندرك أن الله الذى لم يكن فى الرياح و لا فى الزلازل و لا فى النار أعلن ذاته فى الصوت الهادئ الرقيق بسؤاله عبده : ما لك ها هنا [1] ؟ تلك كانت لحظات أعطيت فيها توجيهات جديدة لأولئك المستحقين أن يتلقوها . و ليس هناك من وسيلة لاستمرار الشخصية و الغريزة جنبا إلى جنب مع التغيير الجذرى إلا من خلال الميلاد العذراوى . فيمكننا أن نقول أن كل الولادات العذراوية كانت شبه السماويات و ظلها لذلك الميلاد الكونى : الميلاد العذراوى فى مذود لإبن الله الوحيد الجنس [2] . بالضبط كما أن كل ذبح للأبرار نتج عن سقوط آدم كان شبه السماويات و ظلها للذبيحة الكونية العظمى التى أكملت على الصليب .

و أهم إعلان لتطور الإنسان هو من الرب نفسه حين قال إن الناموس أعطى لموسى من الله و لكن يجب تخطيه و الإمتداد إلى ما هو أبعد منه . و يجب أن نلحظ هنا أن موسى حين نزل أول مرة بلوحي العهد و وجد الشعب يعبد عجلا قذف بهما على الأرض فتكسرا رمزا إلى أنهما شبه السماويات ، و ما علينا إلا أن نقرأ رسالة بولس الرسول إلى العبرانيين لنرى الرؤية الواضحة لموضع الناموس مقابل العمل الفدائى اللانهائى الذى حققه رب المجد : نقرأوها بتمعن و تفكير .

و من العجيب أنه فى يومنا الحاضر حين علا العلم و ازداد صعوبة يجد العلماء أنفسهم مضطرين إلى استعمال الرموز : إنهم أطفال صغار مقابل العلم العالى الذى باركهم به الله .

و بقايا مخلوقات على امتداد ملايين من السنين تشهد بوضوح أنه ليست بينها

---

(1) ١ ملوك ١٩ : ١١ - ١٣ .

(2) يرى هذا الكاتب الإنجليزى ما رآه عدد من المؤرخين فيما يتعلق بالتعاليم الروحية الفرعونية - راجع " مصبحنا فوق الزمان " ، طبعته كنيسة مار جرجس بسبورتنج ، و كتاب " ماذا نعرف ؟ " طبعته مكتبة المحبة ، و الكتابان للمؤلفة . و الذى يجب أن نذكره دوما أن الله أعلن عن نفسه لكل الشعوب : كل بقدار وعيه الباطن .

حلقة مفقودة إطلاقاً – يعنى ليست هناك مخلوقات متوسطة برزت تدريجياً لكى تربط نوعاً بنوع أعلا منها . و مع أننا لا نستطيع أن نستشف حضرة الله فى الزلازل و النار و العواصف فنحن نستطيع أن نرى هذه الحضرة الإلهية فى الصوت الهادئ الوديع ، و هو يسأل مخلوقاته : ماذا تفعلون ؟ و أولئك الذين اعتُبِروا مستحقين قد وُهبوا فرصة جديدة للحياة من خلال جنس الإناث ، و هن أعطين تسلهن كل الغرائز و الصفات التى توارثنها . ذلك لأن المرأة قد ائتمنت على استمرار الجنس [1] . و يقول لنا العلماء إن الأنوثة هى التعبير عن نزعة جارفة لعمليات البناء .

و كلمة الله يعلمنا أن الطريق الواسع يؤدى إلى الهلاك و الطريق الضيق يؤدى إلى الحياة . و لكننا نحتاج فى نهاية الطريق الضيق إلى قادٍ يخبرنا و يهبنا الميلاد الجديد [2] .

٢٧ – مع الأنبا بطرس الجاولى البابا التاسع بعد المائة [3]

تمهيد

إن مسيحنا له المجد هو فوق الزمان : أزلى [4] أبدى – فيعلن لنا المرنّم : " معك الرياسة فى يوم قوتك فى بهاء القديسين . من البطن قبل كوكب الصبح

---

(١) من الغرابة بمكان أن التنبيه إلى الخطية التى تقترف سهوا ثم يدرك المخطئ بها أن يقدم قربانه عنزاً من الماعز أنثى صحيحة ليكفر بها عن خطيته هذه . و لقد تكررت هذه الوصية ثلاث مرات فى لاويين ٤ : ٢٨ و ٣٢ ، ٥ : ٦ ، أفلا نستطيع القول – إرتكانا على هذه الوصية – إن المرأة هى التى تعوض عن السهوات ؟

(٢) " التطور و الميلاد العذراوى " [بالإنجليزية] لوليم ويلكركس ، القاهرة سنة ١٩٢٩ م .

(٣) وردت سيرته فى جـ ٤ من هذا الكتاب ، ص ٢٥٣ – ٢٨٦ .

(٤) لم يكن الفريسيون يدركون معنى أزلى (قبل الدهور) إلا بعد أن فسّرها لهم آباؤنا فى مجمع نيقية المسكونى الأول ، جـ ١ من هذا الكتاب ، ص ١٨٨ – ١٩٠ ، هيلين وادل : " آباء الصحراء " [بالإنجليزية] المقدمة ، ص ٣٠ .

ولدتك [١] . " . ثم يتحدث فى مزمور آخر عن الرب بقوله : " و صلاتى ترجع إلى حضنى [٢] . " . أما يوحنا الحبيب فيهتف فى فرحة واضحة : " فى البدء كان الكلمة . و الكلمة كان عند الله . و كان الله الكلمة . " . و بهذه الحقيقة الباطنية العجيبة قد جمع السيد المسيح كل المؤمنين به فى داخله من بدايتهم إلى نهايتهم ، فاكتسب التاريخ الكنسى تجانسا و تناغما . بل إن هناك الكثير من المتشابهات فيه كقصة الأسدين اللذين حفرا قبر الأنبا بولا خدمة منهما للأنبا أنطونى ؛ و الأسد الذى أدى الخدمة عينها للقس زوسيما حين كان يريد أن يدفن مريم التائبة السائحة .

و بهذا التجانس و هذا التناغم تنتقل عبر التاريخ : من روحياته إلى أحداثه و من أحداثه إلى روحياته بكل بساطة و سهولة فلا الكاتب يجهد نفسه و لا القارئ يلهث وراءه .



كان لنظام " الملّة " فى الدولة الإسلامية أثره فى تمكين المسيحيين و اليهود من الإحتفاظ بعادات مجتمعاتهم و بمراكزهم الإجتماعية ، كما كان لديهم دور كبير فى التجارة و المالية و فى بعض الحرف . و فى بعض البلاد كان لهم دور فى الإدارة . ففى مصر مثلا كانت المالية فى أيدى القبط تبعا للتقاليد المتوارثة . أما الإتجاه نحو الغرب فكان ممثلا بالحرى فى المسيحيين السوريين و الأرمن .

و لقد برزت فى القبط خاصة و فى مسيحيّى الشرق عامة نزعة قوية هى تيقظ وعيهم المسيحى الشرقى و الإقتناع بأن عليهم دورا خاصا يؤدونه فى الشرق الإسلامى . و قد استحثتهم هذه النزعة إلى النهوض و التطلع داخل كنائسهم الشرقية .

و مما يجب ذكره أن المؤثرات الغربية قد أوسعت الهوّة بين الأغلبيات و الأقليات

---

(١) مزمور ١٠٩ فى الأجبية .

(٢) مزمور ٣٥ : ١٣ .

فى كافة بلاد الشرق الأوسط . ففى حكم محمد على و خلفائه ظل القبط يشغلون وظائف عديدة فى الحكومة . و لكن الإنجليز حين تحكموا كانوا يستعينون بالسوريين المسيحيين فى كل من مصر و السودان ، و لم يحاولوا الإستعانة بالقبط كموظفين فى الحكومة ، بل و لم يعطوهم أية وظيفة محترمة . فكان عدد القبط فى الحكومة أيام الإحتلال البريطانى أقل منه فى أى عهد سابق [1] .

على أن الهوّة التى أوسعها الإستعمار بين الأقليات و الأغلبيات لم تكن بالأذى الوحيد . فلقد بدأ بإغلاق المدارس الوطنية ليشيع بأنه لم تكن هناك مدارس البتة . ثم فتح مدارسه ليوهم المصريين بأنه هو الذى أنشأ المدارس فى وطننا العزيز ! و لكن شكرا لله الذى أقام من الأجانب أنفسهم شهودا للحق . فيقول أحدهم : " إن طالب المعرفة يستطيع أن يجد الكثير من المدارس ، لا فى العاصمة وحدها ، بل أيضا فى كل مدينة و فى كل قرية ذات حجم محترم حيث يتعلم الأولاد مقابل مبلغ تافه [2] . " .

و كان الأمن مستتبا حتى أن أسواق القاهرة و الموازين و المكاييل كلها كانت تحت رقابة مفتش يقال له " المحتسب " ، و هو يمر على الدكاكين بنفسه . و يأمر كل صاحب دكان – الواحد تلو الآخر – أن يبرز له موازينه و مكاييله و مقاييسه ، ثم يجربها بنفسه ليرى إن كانت مضبوطة . و هو يسأل أيضا عن الأسعار . و كثيرا ما يوقف أحد المارة ليسأله كم دفع فى كل سلعة اشتراها و ما مقدار مشترواته . فإن وجد صاحب دكان يستعمل موازين أو مكاييل أو مقاييس خاطئة ، أو إن وجد أنه باع بوزن ناقص أو بسعر أعلا من سعر السوق عاقبه فورا .

---

(١) ألبرت حورانى : " الأقليات فى العالم العربى " [بالإنجليزية] . أكسفورد سنة ١٩٤٧ ، ص ٢١ و ٢٤ و ٢٩ .

(٢) هو إدوارد وليم لاين فى كتابه " المصريون المعاصرون " [بالإنجليزية] جلاسجو سنة ١٨٣٤ م – أى أن شهادته سابقة على الإحتلال الإنجليزى بثمان و أربعين سنة .

و البطريرك القبطى يقضى فى مختلف المشاكل بين شعبه فى العاصمة . بينما يقوم رجال الكهنوت بهذه المهمة فى المناطق الأخرى . فإن اختصم قبطى و مسلم يمكنهما الإحتكام إلى البطريرك أو إلى القاضى بعد أن يتفقا فيمن يشتكيان إليه .

و المصريون يأكلون باعتدال . و متى فرغ أحدهم من الأكل يقول : الحمد لله ، ثم يغادر المائدة دون أن ينتظر الآخرين . و الشراب الوحيد الذى يتناولونه خلال الوجبات هو ماء النيل . و كثيرا ما يضعون فى القلل ماء الورد أو ماء الزهر . و هم مغرمون أيضا بالمشروبات الحلوة ، و أكثر هذه المشروبات رواجا مصنوع من زهر البنفسج - فيجففونه و يدقونه ثم يغلونه مع الماء و السكر . و العجيب أن هذا المشروب لونه أخضر !

و فى كثير من الأحيان يتم الزواج من غير حفلة و لا أبهة بشرط أن يكون قد تم الإتفاق على ذلك مقدما بين العائلتين .

و المصريون على جانب عظيم من الذوق و الأدب فى معاملة بعضهم البعض . و هم يجمعون بين الكرامة و الرشاقة فى تحياتهم ؛ و الألفة و حب المؤانسة من أبرز صفاتهم حتى لمن هم أقل منهم غنى أو وجاهة . و كثيرا ما يخاطب الواحد منهم الآخر بكلمة " عمى " أو " إبنى " أو " خالتى " أو " بنتى " حتى بين الأغراب .

و فى القاهرة مكتبات عديدة . و المصريون يمتازون بصفات عقلية واضحة كسرعة البديهة و النكتة الحاضرة و الذاكرة القوية . و فوق هذا يبرز الإعتزاز بالدين كما يبرز فيهم العطف على الفقراء و حسن رعايتهم . و ليس هذا بغريب على شعب تقوى فيه النزعة الدينية . كذلك من حق المصريين أن يتباهوا بكرمهم . فمن النادر أن يرضى إنسان بتناول الغذاء دون أن يدعو من يكون فى بيته آنذاك حتى لو كان غريبا جاءه لأول مرة فى طلب ما .

و المصريون شديدو التمسك بالروابط العائلية . و إكرام الأولاد لوالديهم من

الفضائل المحبوبة لديهم ، و كذلك شدة عناية الوالدين بأولادهم . أما حبهم لوطنهم ، بل حتى للبقعة الخاصة التى نشأوا فيها ، فقوى للغاية . و مع أنهم يخضعون لحكامهم إلا أن هذا الخضوع لا ينفى شجاعتهم إذ هم جنود ممتازون . و كلما كانت هناك مناسبة لحفل أو عرس أو مهرجان ، فالمدعوون يرسلون هداياهم قبل بدايتها . و متى أقام المصرى دعوة هيأ لها الأشكال و الألوان من المآكل و الحلوى حتى لو كان ممن اعتادوا التقشف .

و القبط ما زالوا يصلون صلواتهم العامة و الخاصة باللغة القبطية التى لا يرتضون عنها بديلا (١) . و يمكن القول بأنه ليس هناك شعب تقبل التعاليم المسيحية بتلك الغيرة و ذلك الحماس الذى أبداه شعب وادى النيل . و الأعياد الدينية عندهم هى أعياد عامة : للغنى و الفقير فيها حق متساو يتشاركان أفراحها و يأخذ كل منهما دوره فيها . و الفقير يجد توكيدات بأنه غير منسى عند اقتراب مواسم الأصوام و الأعياد . إن له حقا يناله . و هذا الحق كان له كيان على مدى الأجيال فى وادى النيل بروح المحبة التى أصبحت سمة تتميز بها الشخصية المصرية . و الصدقة لا تقتصر على توزيع النقود و الملابس بل تتناول أيضا توزيع أرباع الخروف (أو العجل) . و كثيرا ما تقام الموائد فى حدائق الأغنياء تحمل مختلف الأطعمة التى يوضع بدلا منها كلما فرغت . و بهذه الروح ، روح المحبة ، أمكن للقبط أن

---

(١) المرجع السابق - فما رأى الجيل الحاضر فيما قدمه سكوتلندى عن أجدادهم منذ مائة و اثنين و خمسين سنة !! ثم ما رأى القبط فى عرض آبائهم حتى على لغتهم بينما نجد الآن تفريطا فى لغتنا الأيقونى و المعمارى ! و المرجع أننا فقدنا تذوقنا لفننا الأصيل ! فمثلا هناك كنيسة تقام المسئولين عنها مع أيقونوغرافى معروف رسم لهم عدد من الأيقونات الرائعة . و مع ذلك نجد على الأرض (فى الهيكل و خارجه) " كركبة " من الصور المشتراة ! لماذا ؟ لأنها للفنانين أجانب ! و ليسمح لى المعجبون بهذه الصور (و هى جميلة من غير شك) أن أقول إنها أبعد ما تكون عن واقع الكتاب المقدس ! فالبشيرون قد أوضحوا كل الوضوح أن فادينا الحبيب عاش فقيرا - بل على إحسان المحسنين . و لكن " الغرور الإنسانى و بريق العالم " يدفعان بفنان قمة مثل ليوناردو دافنشى إلى أن يرسم العشاء الربانى فى قاعة ضخمة لا تدل إلا على البذخ ! و مع ذلك فهذه الصورة المخالفة تماما لحياة ربنا و تعاليمه هى التى تغزو كنائسنا ! فأين هذه الأبهة من ذاك " الذى أخلى نفسه " بكل معنى الإخلاء ؟ - و من له عينان للبصر فليبصر .

يتماسكوا في شكل أمة ؛ و أن يعطي مجتمعهم لمصر - بفضل بعض الأنظمة المقتبسة من الإنجيل - مظهرا من مظاهر الإتحاد و الوفاق و الألفة على الرغم من كل ما نُكبت به البلاد من الطغيان و الإستبداد [١] .

٢٨ - بحث و تقدير

أ - إن مصر ، في الواقع ، لم تكن مطمع أنظار الغزاة و مقتنصي الفرص فقط ، بل كانت أيضا مطلب الباحثين و الساعين وراء السلام . و من هذه المجموعة الأرشيدياكون هنري تاتام الذي التقينا به في صدد الدساتير الرسولية ؛ و هو لم يكتف بزيارة مصر و التعرف على أهلها بل كتب عنها و ترجم بعض قبطياتها . و مما كتبه ما سماه " جريدة (جورنال) لرحلة في مصر " قال فيه : إن الوصول إلى القاهرة عن طريق بولاق [٢] هو دخولها عن طريق يبلغ طوله الميلين - و هو طريق واسع جميل . و كان أول احتفال شرقي شهدناه بعد المغيب ، في الشوارع المظلمة ، هو موكب عرس : فالجمهور المتهلل الصاخب كان ذاهبا لملاقاة العريس بالموسيقى و الغناء و الهتافات . و قد رفع البعض المشاعل إلى فوق مما ألقى بأضوائها على البيوت التي يمرون أمامها . و لقد تسرب الرضى النفسي إلى داخلنا إذ رأينا أمامنا نموذجا لما ذكره لنا المخلص الحبيب عن العذارى الحكيمات و الجاهلات . . .

و لقد تعرفنا على باسيليوس بك ، أحد أغنياء القبط الذي عاوننا على بلوغ أهدافنا بين قبط الصعيد . فسافرنا إلى مصر العليا بالمركب على النيل . و رسونا في ملوى حيث وجدنا كنيسة صغيرة و بعض القبط يبلغ عددهم المائة بما في ذلك الأطفال . و قد أدخلنا أحد الكهنة إلى الكنيسة حيث رأينا أيقونة للسيدة العذراء تحمل إبنها الإلهي على ذراعها الأيسر ، و أخرى لمار جرجس و هو يطعن التنين . و قد تغطت أرضية الكنيسة بالحصير ليجلس المصلون عليها . و هم يخلعون أحذيتهم و هم

---

(١) " وصف مصر " للفرنسي المستشرق دي فرجانيه ، جـ ١ ، ص ٢٨ ، ٣١ ، ٣٢ .

(٢) كانت بولاق آنئذاك ميناء بحري .

يدخلون إلى " المكان الداخلى [1] " . و قد اطلعنا على كتبهم ، و معظمها يحتوى على القداس الإلهى بالقبطية و العربية . و هؤلاء الناس تابعون لمطران أسيوط . . .

و فى أخميم وجدنا كنيسة لليعاقبة [2] ، و على مقربة منها كنيسة قبطية " افرنجية " ملحق بها دير و أسقفها إيطالى . و بما أنه جمع شعبه من المسيحيين الوطنيين فقد حولهم إلى الكثلكة - و هم الذين يوصفون بأنهم " فرانجة " تفرقة بينهم و بين القبط الذين ما زالوا على ولائهم لكنيستهم المصرية . فبعد أن زرنا هنا الأسقف و شعبه ذهبنا إلى كنيسة لليعاقبة - أي للقبط المتمسكين بعقيدتهم الأصيلة . و مع أن بناءها قديم جدا إلا أنها أحسن بكثير من كنيسة الفرنجة [3] . و قد بدا لنا أن الكهنة و الشعب قد سرتهم زيارتنا و الكنيسة تفصلها مشربية من الخشب إلى قسمين طولا : يجلس الرجال فى ناحية و النساء فى الناحية الأخرى . و لقد صحبنا إلى الكنيسة ثلاثون أو أربعون من رؤساء العائلات [4] . و علمنا منهم أنهم ليس لهم دير فى المدينة ، و أن الدير القديم جدا الذى يحمل إسم مخلصنا الصالح أصبح مهجورا ، و يبعد نحو ساعة مشيا على الأقدام فى الجبل . كذلك أعلمونا أن عددهم فى هذه المدينة حوالى الألف بما فى ذلك السيدات و الأطفال .

و مما لا شك فيه أن تاريخ مصر حافل . . . و كل جزيرة مهجورة يمكنها أن تحدثنا عن دير . و كل صخرة مقفرة كانت لا بد فيها صومعة يلجأ إليها متوحد من أتباع الفادى العالم . و كل قرية على شاطئ نهرها قد أنجبت خادما من خدام الصليب إلتف حوله المئات من

---

(1) عبّر الكاتب عن الهيكل بكلمة " the inner place " ، و قد ورد الأمر الإلهى بخلع النعل لموسى فى خروج ٣ : ٥ ، ثم ليشوع فى ٥ : ١٥ .

(2) راجع الفصل الأول من ج ٢ لهذا الكتاب .

(3) أرجو أن يتمعن القارئ هذه الجملة .

(4) هؤلاء هم الذين يشار إليهم بكلمة " أراخنة " .

اعتنقوا دين السيد المسيح و واجهوا معا كل المخاطر و كل أنواع الحرمان بل و الموت أيضا حبا فى الفادى الحبيب و إعلانا لمجده .

... و إن المرء – فى الأقصر – ليشعر بسرور مزدوج : فالعين تبتهج بجمال الوادى و ما فيه من تدرج الألوان على الجبال المشمسة الدائرة حوله ؛ و تبتهج بفخامة الآثار العظيمة حتى فى أطلالها . ثم تهيم العين فى جدب الصحراء المترامية بينما يرجع العقل لينقاد إلى التأمل فيما يصيب العظمة الأرضية من تحول و فى غرور الأحلام الإنسانية ، و بالتالى ليلتقى فى النهاية بمملكة أعلا و أسمى من هذا التراث الزائل ؛ ملكوت الله الذى ينشده النساك و المتبتلون الذين عمروا هذه الصحارى ...

عرّجنا على الكنيسة الصغيرة فى إسنا ، و وجدنا فى مكتبتها عددا قليلا من الكتب المتضمنة للقداس الإلهى . ثم صعدنا مع الكاهن إلى مسكنه الحقير حيث تجمّع عدد من شعبه – فشربنا القهوة معهم . ثم أرانا الكاهن ما عنده من الأناجيل بالعربية . و علمنا أن الشعب كله يبلغ ثلاثمائة و كلهم فقراء . و كان بينهم خمسة كهنة . و عندهم كنيسة ثانية أصغر حجما زرناها أيضا ، و وجدنا مدرسة إلى جانبها فيها مائة و اثنان من الأولاد يعلمهم رجل متقدم فى الأيام يكاد يكون كفيفا . و قد صاحبنا إلى الكنيسة الثانية قمص كهل صمم على الذهاب معنا مع أن ساقيه كادتا ترفضان حمله كما أنه كان أعمى . و كانت له لحية بيضاء طويلة أضفت عليه وقارا و ذكرتنا " بلحية هرون النازلة على جيب قميصه [1] " . و قد حيانا بحرارة واضعا يده على صدره و احتفى بنا بوصفنا قادمين من كنيسة أخت . و قد وجدنا هنا عددا كبيرا من الكتب من بينها طبعة تاتام للأناجيل ، و حين عرفوا أنه هو بنفسه أمامهم أشرقت وجوههم و تجمهروا حوله فى تشوق طالبين إليه أن يرسل إليهم أعدادا من الكتاب المقدس . و ليست إسنا كرسيا أسقفيا ، و يزورها أسقف مرة فى السنة ، و مقر كرسيه فى نقادة ، و يرعى اثنين و عشرين كنيسة بالإضافة إلى عدد من الأديرة . و يتعلم الأطفال القبطية

---

(١) مزمور ١٣٢ – من صلاة النوم فى الأجبية .

و العربية . و قد علمنا أنهم يتكلمون اللغتين تبعا للمناسبات . و قد داخلنا شعور قوي بوجوب العناية بهؤلاء الناس بعد أن عمنا فقرهم المدقع [1] . إنهم ينتسبون إلى أقدم شعب آمن بالسيد المسيح . و هم يحتفظون للآن بوريقات من كلمة الله النقية التي يتمسكون بها بدقة وسط الظلمات المحيطة بهم . . . و اتجهنا نحو الجبال الواقعة جنوبي المدينة يصحبنا الكهنة . فزرنا ديرا مهجورا بجانبه كنيسة في حالة جيدة و لو أن شكلها قديم . و لما دخلناها وجدناها أحسن من أية كنيسة شاهدناها من قبل . و هي مقسمة عرضا إلى قسمين ، و لها هيكل على كل من جانبيه خورس . و في ركن منها غرفة مخصصة لمن يريد الخلوة و التعبد . و كل أرضية أجزائها المختلفة مغطاة بالحصير النظيف المرتب . أما جدرانها فتكسوها الأسماء و الآيات المقدسة القبطية و العربية : نقشها أولئك الذين تعاقبوا على الصلاة فيها خلال العصور و سكبوا فيها دموعهم . و بالدير صف من القلالي المهجورة و لو أنها في حالة جيدة . و لا يعيش في الدير غير رجل تقدمت به الأيام : رمز ذابل لكنيسة ساقطة ! إنه ركن قاتم مهمل من كرم الرب [2] !

و في طريق عودتنا زرنا كاهنا قبطيا في الأقصر و رأينا كتبه الكنسية ، هي ثلاثة كتب قبطية و كتاب عربي ، و كلها تتضمن القداسات الإلهية . و ليس بالمدينة أكثر من مائة عائلة قبطية لهم كنيسة واحدة و مدرسة واحدة . و على مسيرة ساعة من المدينة يوجد دير يجتمعون فيه للصلاة - و لكن لا يعيش فيه أحد و ليس به مخطوطات .

و لقد غمرنا الفرح في نقادة لأننا استطعنا أن نحضر القداس الإلهي . و قد استنتجنا من حديث الأسقف و الكهنة الخمسة المقيمين فيها أن لهم كنيستين . و هنالك كنيسة كبيرة للمسيحيين الفرنجة مغلقة الآن . و يقال إن القبط في هذه المدينة

---

(1) من الواضح أن هذا الشعور القوي قد تبخر بعد أن وصلوا إلى بلادهم لأنهم لم يرسلوا أية معونة إطلاقا ! و من نعمة الله على القبط أنهم كانوا مرتكنين بكليتهم عليه وحده .

(2) ليتأمل القارئ هذا الوصف من رجل أبدى روح التعاطف في الكثير مما كتبه عن كنيستنا ! و علامات الإستغراب الموضوعة موجودة في الأصل . و يخيّل لي أن الزمام انفلت منه فجأة فراح يتكلم كإنجليزي مقابل كنيسة مصر !

خمسمائة عائلة ، و لهم خمس مدارس تضم مائة و خمسين تلميذا بينهم عشر بنات . و عندهم سبعة عشر كاهنا يخدم ثلاثة منهم في الكنيسة بينما يعيش الأربعة عشر الآخرون في الأديرة – و عندها أربعة قائمة في الصحراء المجاورة . و لا تزال اللغة القبطية متداولة في نقادة [1] . و لا توجد مقاعد في الكنائس القبطية [2] . و يستند المصلون على عكازات طويلة خلال الجزء الأكبر من القداس الإلهي . و توجد هذه العكازات في كل الأماكن المخصصة للعبادة عند القبط . . .

و قد وجدنا في قوص كنيسة كبيرة الحجم يخدم فيها خمسة كهنة . و شعبها يتألف من أربعمائة عائلة و لكن لا يذهب إلى المدرسة غير خمسة و عشرين طفلا . أما في قنا فيوجد حوالي مائتي عائلة و ليس لديهم كنيسة في مدينتهم فيصلّون في قوص .

و إلى الجنوب الشرقي من جرجا تقع أبيدوس [3] . و قد ذهبنا أولا إلى الدير الذي فيها حيث قوبلنا بكل احترام من الأسقف و القمص . فأخذانا إلى الكنيسة التي وجدناها أجمل ما رأينا في الصعيد . و بعد ذلك صحبانا إلى بيت الأسقف المبني في أعلا الكنيسة ، فوجدنا به عددا من الكهنة و معهم مدير (محافظ) جرجا . و قد علمنا من الأسقف أن بهذه المدينة ألف و خمسمائة قبطي و ليس لهم غير كنيسة واحدة . و توجد ثلاثة أديرة في الصحراء على الضفة الغربية من النيل ، و دير على الناحية المقابلة عند طرف الصحراء . و بالمدينة ثلاث مدارس فيها مائة و عشرون ولدا . و يرعى الأسقف خمسا و عشرين كنيسة .

و يعيش في الدير الأبيض ثلاثون شخصا بينهم عدد من السيدات و الأولاد . و فيه مدرسة صغيرة . أما الدير الأحمر فسكانه قليلون جدا . و كنيسته الرئيسية في

---

(١) هذه الشهادة توضح لنا أن الإستعمار و معاونيه من المبشرين هم اللذين قضوا في النهاية على تداول القبطية .

(٢) هذه قاعدة معمول بها في كل الكنائس الأرثوذكسية .

(٣) إشتهرت بمعبدها الفرعوني الأنيق ألذي بناه سيتي الأول أبو رمسيس الثاني ، على أن النشاط القبطي فيها ظل مزدهرا إلى تأميم التعليم .

حالة جيدة . و قد أرانا الكهنة أيضا كنيسة قديمة فى الطرف الأخير من الدير كانت جميلة و لكنها ليست مستعملة الآن إلا فى مناسبات خاصة . و يرتكز سقفها على عدد من الأعمدة العريضة ...

و فى أسيوط زرنا الأسقف القبطى ، و هو شيخ وقور ذو وجه لطيف و لحية طويلة بيضاء ، جذاب المعاملة مرح الحركة . و بعد حديث طويل عن مختلف الموضوعات اشترك فيه بحماسة عجيبة قادنا إلى كنيسته ؛ و هى غاية فى التنسيق . و الحجاب جميل جدا يتكون من خشب الأبنوس المطلى بطلاء أحمر تزينه الصلبان و النجوم العاجية . و قد أعلمنا أن فى مدينتهم و فى كل بلاد مصر ضاعت معظم المخطوطات أثناء الحروب و الغارات ، و أنهم لم يستطيعوا إعادة كتابتها كلها ، فاضطروا إلى الإكتفاء بما يحتاجون إليه فى استعمالهم اليومى . و فى أسيوط ثلاث مدارس تضم حوالى ثلاثمائة تلميذ ، و يبلغ عدد المسيحيين ألف نسمة .

و فى منفلوط أسقف له و لشعبه كنيسة فى حالة جيدة و لو أنها صغيرة . و لهم إثنا عشر كاهنا و عشرون مدرسة فيها ثمانون طفلا [1] . و كان الأسقف حسن الهندام . و قد قابلنا بأدب جم . و حضر عدد من الكهنة و أخرجوا لنا كل المخطوطات الموجودة عندهم . كما أرونا نسخة من طبعة تاتام للأناجيل الأربعة .

و لما وصلنا إلى صنبو أخذونا أولا إلى الكنيسة . ثم أرانا الأسقف كنيستين أخريين . و بعدها صحبنا الرهبان - الإخوة القديسون - إلى البوابة الخارجية للدير فوجدنا أنفسنا فى قرية وارامون على الشاطئ الغربى . و على الضفة المقابلة - أى على الشاطئ الشرقى يقع ديران .

ثم سافرنا إلى المنيا حيث قابلنا ثمانية كهنة . و زرنا مدرسة فيها ستة و أربعون طفلا . و من حسن الحظ أننا وجدنا أيضا عددا من الكهنة كانوا قد جاءوا

---

(١) هنا غلطة مطبعية و المقصود مدرستان .

خلال الستة أسابيع السابقة من ديريْ الأنبا أنطونى و الأنبا بولا . و على الضفة المقابلة للمنيا يقع دير جبل الطير الذى يقال عنه إنه أقدم دير فى مصرَ . و هو مكان غاية فى البؤس [١] .

و اتجهنا بعدها شمالا فوصلنا تلوصنا و زرنا كنيستها فوجدناها فى حالة يرثى لها و شعبها واقع تحت الإضطهاد . ثم استمرينا شمالا حتى بلغنا بيا حيث ذهبنا إلى دير فى حالة متخربة و وجدنا فيه كاهنين . و شعبها يتكون من ستين شخصا و عندهم مدرسة صغيرة [٢] . و سرنا من بيا إلى بنى سويف حيث زرنا كاهنها الذى كان عنده قمُصان و راهب من بوش [٣] .

ب - المحتم القلب

و ثمة شاهد إنجليزى ثان يقول : " إن القلب الإنسانى يحتم الحصول على حاجته من المرح على الرغم من كل مظاهر البؤس ، هكذا المصرى : إنه يغنى و يتبادل الفكاهة

---

(١) لقد قال حسن الشريعى (من أعيان سمالوط) للسيدة حرم نجيب بطرس غالى منذ خمسين سنة : " إن شئت أن ترى مجتمعا قبطيا على أصلى مصرى مسيحى فاذهبى إلى جبل الطير . " . و يفرحنى أن أقول إن الأب السمارى منحنى التبرك بزيارة هذا المرتفع المقدس فرأيت بعينىّ حقيقة ما قاله مواطننا المصرى . ترى ما مدى حقيقة وصف تاتام له ؟

(٢) يجب أن نلاحظ باعتزاز أن أول من كانوا يقاطرونه كانوا من الكهنة الذين كانوا يأخذونه لدورهم إلى الكنائس و المدارس . و هذا كله كان سابقا على عهد الإحتلال و التبشير . فالسر الذى أودعه الله كنيسته القبطية إئتمن عليه آباءها . و هذا هو السر الخفى فى انتصار كنيسته على كل مقاوميها - و بالأخص أولئك الذين اتخذوا من المسيحية الرسولة لهذه المقاومة !

تحية إعزاز و إجلال لأبائنا الذين سهروا على تعليمنا و حفظوا لنا كنيستنا بنعمة و محبة .

(٣) " يوميات تاتام " ، نشرتها بعد وفاته السيدة مارى بلات فى لندن سنة ١٨٤٩ م .

مع زميله وسط كدحه [1] . و فيه ترى أن الروح حرة تثبت تساميها على كل ظروفها و تبدو كأنها تسخر من قوانين سجنها الجسدى . و القبط بصفة عامة نشيطون يمارسون مختلف الحرف تبعا للمنطقة التى يسكنونها : فمنهم النجارون و الصياغ و المشتغلون بتقطير ماء الزهر و الورد و إنتاج النبيذ الأباركة . " . . .

و لقد رأيت مدرسة فى حى مصر العتيقة يديرها مبشران ألمانيان و لو أنهما تابعان للكنيسة الإنجليزية . و نظرة عابرة على التسعين ولدا الذين يتعلمون فيها تجعل النفس تحس بشئ من الإشمئزاز لفقرهم المدقع و قذارة وجوههم [2] . و لكن عند التمعن يندهش الناظر لما يبدو من رغبة أكيدة فى التعلم و لانكبابهم فى لهفة على الكتب التى فى أيديهم . و هم يتعلمون القراءة و الكتابة و بعض الصلوات الكنسية بالتلقين و بإنشادها جماعيا . و فى الثانية عشر تماما دق الجرس . فسارع هؤلاء الصبية إلى حوش المدرسة حيث رُصّت المقاعد ، فجلسوا عليها ليأخذ كل واحد منهم رغيفا أسمر و قليلا من البلح . و هذه وجبة هزيلة من غير شك و لكنها مترفة فى نظر هؤلاء الذين جمعهم المبشران من الشحاذين ! . . .

و زرت أسيوط . و هى تبعا للتقليد القبطى من الأماكن التى عاشت فيها العائلة المقدسة . و مثل هذه الذكريات تضفى على الأماكن المرتبطة بها ولاء و عاطفة ليس من السهل وصفهما . إنما دمنا نصدق حقيقتها فالتقليد واضح الأثر . و ليس من شك فى أن ذاك الذى يسير فى الحياة رافضا أن يتقبل ما لا يقع تحت الحس و الحساب يفقد الكثير من النعمة و الجمال . . .

---

(1) فى آخر أسبوع من يوليو سنة ١٩٥٢ م كان الفنان الهندى الكبير سوبهور تاغور مقيما معرضا لفنه بالقاهرة . و حدث أثنائه الإنقلاب الثورى الذى أطاح بالملك فاروق . و فى حديث صحفى للفنان الهندى علق على النكات التى كان يتداولها المصريون فى الشوارع حتى وسط أزمتهم هذه بقوله : أنتم معشر المصريين لديكم " المقاومة الفكاهية - humour resistence " .

(2) لماذا لم يعلمهم المبشران غسل وجوههم !! و الواقع أن الصورة التى يقدمها لنا هذا الإنجليزى تدل على أن هذين المبشرين كانا أبعد ما يكونان عن روح السيد المسيح .

و من سمات المصريين حبهم للموسيقى : فمن تشالىّ عنون إلى محمد على ترتع مصر فى الموسيقى - ترن ألحانها فى قصر الباشا و فى كوخ الفلاح ؛ فى معسكر الجند و على المراكب مع البحارة . و المصرى يولد و يتزوج و يموت و يدفن على ألحان الموسيقى . إنها تخفف من عبء عمله ، و تضاعف مرحه فى المناسبات ، و تتحكم فى عواطفه ، و تنزل كالبلسم على آلامه . و يقترن حب الضيافة بحب الموسيقى إذ أن المصرى يعتبر الغريب ضيفا مبعوثا له من الله [1] .

ﻫ - من سحر النيل

و تقرأ لإنجليزى ثالث بعض مشاهداته فى بلادنا الحبيبة يبدأها بوصف حفلة قطع الخليج إحتفاء بفيضان النيل كما شاهدها بنفسه ، قال : أخذت الجماهير تتجمع . و ليس هناك منظر ملفتا للأنظار قدر الجماهير الشرقية : ففيها الشيخ و الشاب و الطفل و النساء و البنات . و بالطبع كل بلباسه الخاص ، و غالبيتهم بألوان براقة . و لم يكن الباشا سيحضر بنفسه بل كان سيوفد مندوبا إسمه حبيب أفندى [2] . فوقفت الجماهير تنتظر بينما جلست أنا ضمن رجال الدولة و مدعويّهم فى الصيوان المقام خصيصا لهذه المناسبة . و فى فترة الإنتظار قدموا لنا الشربات ثم القهوة . و حوالى التاسعة صباحا صدحت موسيقى عدة فرق فى آن واحد . و زاد فى ضجتها إطلاق المدافع . و هذا كله إيذانا باقتراب حبيب أفندى . و قد سبقه موكب ضخم من البكرات و رجال الجيش بملابسهم الرسمية و أوسمتهم و نياشينهم . ثم أطلقت الصواريخ . و لما وصل حبيب أفندى ساعده أعوانه على النزول من على ظهر جواده ، و دخلوا معه حيث

(1) إليوث واربورتون : " الهلال و الصليب " [بالإنجليزية] ، لندن سنة ١٨٤٥ م ، ص ١١٢ و ١١٣ و ١٤٣ - ١٤٥ .

(2) قبل حفر بحيرة ناصر كان لفيضان النيل أهمية كبرى لارتكاز الحصاد عليه . و لهذا السبب كان يحتفى المصريون بفيضانه و يطلقون على هذا الإحتفال إسم " عيد وفاء النيل " . و كانت الحفلة تقام عند نقطة فم الخليج فى التقائها بالنيل . أما " أفندى " فكان لقبا من الألقاب التى يمنحها حاكم البلاد ، و هذه الألقاب كانت : أفندى . بك . باشا . و قد ألغت ثورة سنة ١٩٥٢ هذه الألقاب لأنها ارتبطت بالحكم المطلق . و " الباشا " كان الوالى الموفد من سلطان تركيا .

جلس هو في الصدارة و أحاطوا هم به . و أديرت أكواب الشربات و فناجيل القهوة مرة أخرى . و كان العمال يعملون بغاية الهمة لقطع جسر الطين (الحاجز للمياه) بينما وقف ضابط يلقى إليهم بقطع جديدة من الفضة . و خلال هذا كله كانت الجماهير تغنى و تهتز على وقع أنغام أصواتها . أما أقواس الجسر الحجرى المؤدى إلى الترعة فقد زخرت بالسيدات . ثم رفرفن بمناديلهن و زغردن حين رأين تزايد تيار الماء . و ما إن أتم العمال مهمتهم و تدفقت المياه حتى علت الهتافات و الزغاريد . ثم وقف حبيب أفندى فصدحت الموسيقى إيذانا بانصرافه . و هكذا انتهت الحفلة . . .

أخيرا وصلت إلى وادي النطرون و زرت أديرته فوجدتها على غاية من الفقر[1] . و لم أجد غير ثلاثة أو أربعة رهبان في كل من البرموس و أنبا بيشوى و أنبا مكارى . أما في دير السريان فقد وجدت خمسة عشر راهبا . و بعد تبادل التحيات و شرب القهوة صحبنى رئيسه إلى المكتبة . و قد سمح بأن أشترى مخطوطين يتضمنان البشائر الأربعة و تعليق الآباء عليها . ثم وجدت قاموسا قبطى - عربى و كنت أرغب في شرائه أيضا و لكن باءت كل محاولاتي بالفشل . و بعد ذلك بسنوات نجح صديق لى في أن يشتريه - و كان الرهبان قد كتبوا نسخة ثانية منه . و كانت معظم الكتب التي وجدتها خولاجيات مكتوبة على ورق قطن و قديمة للغاية . . . و لقد صحبنى بعض الرهبان إلى أعلا الحصن . فوقفت أتأمل الصحراء المترامية عن شمالي . أما عن يمينى فقد استمتعت عيناى برؤية حديقة الدير بنضرتها و ثمارها . و رأيت أشجار الرمان و الخروب و الليمون و الموز ، و إلى جانبها أزهار اللوتس . فكانت رؤية هذه الخضرة الباسقة وسط الصحراء منعشة للنفس و العين .

و غادرت وادي النطرون و اتجهت نحو الصعيد في " دهبية [2] " . و لما وصلنا إلى المنيا نزلنا على الضفة المقابلة لنزور جبل الطير المقام على صخرة تعلو مائتى قدم

---

(١) هنا يليق بنا - في تأملنا لهذا الواقع و في الحالة الراهنة لأديرتنا - أن نردد في ثقة و تهليل قول بولس الرسول : « لأعرفه و قوة قيامته . . . » .

(٢) الدهبية منزل عائم يقتنيه كل من يستطيع للإستجمام فيه أو التنزه به .

فوق سطح النيل و تطل عليه . و كان التسلق شاقا [1] . و لما بلغت القمة مررت داخل باب منخفض و إذ بي أجدني فجأة في حوش واسع مليء بالنسوة و الأطفال و الديوك و الفراخ – و الكل يتكلمون و يصاحون في آن واحد . و التف الجميع حولي و أخذوا يتفرسون فيّ . و لما هدأت أصواتهم أخذني رئيس الدير إلى الكنيسة ، و هي قديمة للغاية و محفورة داخل فجوات محجر قديم . و عند مدخلها نزلنا مجموعة من السلالم الضيقة أوصلتنا إلى جناح للكنيسة عرضه لا يزيد على عشرة أقدام وتفصله عن صحنها أعمدة سميكة جدا مثمنة الأضلاع تعلو كلا منها لوحة سميكة مربعة مزخرفة تكاد تكون فرعونية التشييد . و جبل الطير الآن قرية أكثر منه ديرا إذ يسكنها عدد من العائلات و ليس بها غير الرهبان الذين يخدمون الكنيسة .

ثم استأنفنا سفرنا بالذهبية نحو الصعيد . و وصلنا الأقصر . و على مقربة من مدينة هابو وجدت أطلال دير قبطي قيل لي إنه كان عامرا و إن هناك من لا يزالون يذكرون عماره . و لقد وجدت جماعة من القبط تعيش في المنطقة من بينها نجار ذو مهارة و فطنة ، فقد كان يستطيع قراءة القبطية و العربية و له معرفة بالفلك . و قيل عنه إنه يعرف السحر أيضا . و لقد علم نفسه بنفسه كل هذه المقدرات . و مع ذلك فقد كان فقيرا إلى حد أن ملابسه لم تزد على الجلابية المصنوعة باليد من شعر الماعز التي يرتديها و على طاقية جوخ لف حولها بعض الخرق لتبدو كالعمامة . و قد روى لي قصة الدير الخرب و أن مكتبته ما زالت موجودة ، و هو شخصيا المشرف عليها و لكنه لا يستطيع إدخالي إليها إلا ليلا . و لما دخلناها وجدتها أقرب إلى حجرة دفن فرعونية . و في ناحيتها الشرقية مذبح من الحجر تصل إليه بسلمتين ، و المذبح مشيد داخل نصف دائرة . و كانت المخطوطات القبطية موضوعة على السلمتين ما عدا كتاب واحد موضوع على المذبح ... و الكل تفوح منها رائحة البخور و عليها بقع من الشمع [2] ...

---

(١) من نعمة الله أن طريق السيارات أصبح ممهدا يوصل طالب البركة إلى الدير بسرعة و سهولة .

(٢) ما أبعد هذا الوصف عما قاله تاتام .

(٣) روبرت كرزن : " زيارة إلى أديرة الليفانت " [بالإنجليزية] ، ص ٥٣ – ٥٤ ، ٨٩ ، ٩٨ ، ١٠٤ ، ١١٤ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٣ – ١٢٨ ، طبع في لندن سنة ١٨٨١ م .

٢٩- مع الأنبا ديمتريوس الثاني البابا المائة و الحادي عشر

أ - القمص سلامة عبد المسيح

لقد عرفّنا المؤرخون المحدثون بأن الوكيل العام للباباوية كان ، في أيام الأنبا ديمتريوس الثاني القمص سلامة عبد المسيح . و إليكم لمحة عن هذا الكاهن الذؤوب الذي عرف أن يربح بوزناته .

نشأته

ينتمي أبونا سلامة إلى عائلة المكشا ، و كانت من العائلات المرموقة في بلدة المطيعة (محافظة أسيوط) . و قد ولد فيها و بدأ حياته الدراسية في الكتّاب تبعا للعادة آنذاك . ثم رأى والده المعلم عبد المسيح قلاسون أن ينزح إلى القاهرة . و ما إن وصلها حتى استقر به المقام في حي حارة زويلة على مقربة من كنيسة السيدة العذراء . و ألحق إبنه سلامة بالكتّاب الملحق بالكنيسة . فتعلم أصول المسيحية و العقيدة الأرثوذكسية و طقوسها كما تعلم القبطية و العربية . و لقد كان الصبي سلامة ذا عقل وقّاد و محبة عارمة للكنيسة و لآبائها و تعاليمهم . فتعمق كل ما درس بل نبغ فيه . و كان أبوه عبد المسيح على صلة وثيقة بشاهين كبير كتبة بطريركية الأرمن الذي أعجب بالذكاء اللماح الذي تميز به سلامة و بكياسته و لباقته و مسارعته إلى تنفيذ كل ما يطلب منه . و لشدة هذا الإعجاب علمه الأرمنية و التركية و الفارسية . و على الرغم من صعوبة هذه اللغات فقد أتقنها سلامة كل الإتقان . و لأنه برع فيها عين بديوان الجهادية بالقلعة - فكان المرجع الأخير فيما يرد إلى هذا الديوان بهذه اللغات .

و لما كان على جانب كبير من التقوى و التعلق بالكنيسة فقد سارع إلى الزواج حالما استقر في وظيفته من شابة تنتمي إلى عائلة نخوش التي كانت من كبار العائلات في بوش . فرزقهما الآب السماوي أربعة أبناء و بنتا واحدة . و كان لكل من أبنائه مكانة في المجتمع و وظيفة مرموقة : فإبنه البكر ميخائيل سلامة بك رئيس حسابات بالسكة الحديد ؛ و عوض سلامة بك مفتش الإدارة بالسكة الحديد ؛

و مسيحة لهيب سلامة بك وكيل نيابة بالمختلط ثم قاضي بالمحاكم الأهلية ؛ و جبران سلامة بك مفتش مصالح بلدية الإسكندرية . و يلاحظ أن أربعتهم نالوا رتبة البكوية تقديرا من الحكومة لجهادهم المتفاني . و من هذا المنطلق يبرز لنا أنهم قد ساهموا بنصيب وافر في نهضة مصر . و قد اختير ميخائيل بك للمجلس الملي لأربع دورات ؛ أما أخوه الذي يليه ، و هو عوض بك [1] ، فقد كان من الأعضاء العاملين بجمعية التوفيق .

رسامته

و الصيت الحسن كالعطر الرقيق ينتشر عبيره في كل مكان . و لقد حمل هذا الصيت العطر أصحاب سلامة و معارفه فيه ، فرأوا في صلاحه لياقته لكرامة الكهنوت و أعلنوا له هذه الرغبة . و لكنه رفض في إصرار مؤكدا أن الأعباء الكهنوتية أثقل من أن يستطيع حملها . و لكنهم ظلوا يلحون عليه كما ظل هو على إصراره . و من ثم قرروا أخذه بالحيلة . فاتفقوا مع الأنبا بطرس الجاولي (البابا الـ ١٠٩) على أن يرسل في طلبه لحضور القداس الإلهي معه يوم الأحد بكنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة . و ما إن دخلها حتى أغلقوا الأبواب و انتزعوا عمامته من على رأسه و أجريت الشعائر المقدسة لرسامته على الفور - و قد احتفظ له البابا بإسمه العلماني فأصبح القس سلامة عبد المسيح راعي كنيسة السيدة العذراء بحارة زويلة .

ثم انتقل الأنبا بطرس الجاولي إلى بيعة الأبكار و خلفه الأنبا كيرلس الرابع (أبو الإصلاح) على السدة المرقسية . فجعل من القس سلامة وكيلا عاما للبابوية و جعله قمصا و كاهنا للكتدرائية المرقسية سنة ١٨٥٤ م . على أن هذا البابا الكبير نال إكليل الشهادة في ٢١ طوبة سنة ١٥٧٧ ش (٣٠ يناير ١٨٦١ م) و لما يمض على باباويته غير سبع سنين و ثمانية أشهر .

---

(١) من نعمة الله أن السيدة عفاف إبنة عوض بك هي ضمن طالباتي بالمعهد العالي للدراسات القبطية بالأنبا رويس ؛ و قد كتبت عدة أبحاث قيمة منها بحث عن الأنبا شنودة رئيس المتوحدين ، وآخر عن البابا الوقور الأنبا كيرلس الخامس .

و بعد استشهاده أصبح الأنبا ديمتريوس الثانى الخليفة المرقسى الـ ١١١ فاستبقى القمص سلامة فى خدمته الكهنوتية بالكتدرائية المرقسية و فى وكالته للباباوية . و كان يستصحبه حيثما ذهب . و فى أثناء هذه الألفة مع البابا الجليل حضر حفل التكريم الذى أقامه إسماعيل للسلطان عبد العزيز : و هو الحفل الذى قبّل فيه البابا الوقور صدر السلطان فوق القلب . ففسر له القمص سلامة هذه التحية الفريدة بما قيل فى سفر الأمثال من أن قلب السلطان فى يد الله .

كذلك استصحبه الأنبا ديمتريوس إلى حفل افتتاح قناة السويس ، و فيه أبدى الملوك و الأمراء تقديرهم للبابا الوقور و إعجابهم به حتى لقد لقّبته الملكة أوجينى (ملكة فرنسا) بالبابا الأفريقى الجليل .

و حينما قام البابا المرقسى برحلته الراعوية إلى الصعيد استهدافا إلى تثبيت العقيدة الأرثوذكسية مقابل سطو من أطلقوا على أنفسهم إسم " مبشرين " أخذ معه القمص سلامة . فكان خير معوان فى تحقيق الهدف الباباوى .

و لقد شاء الآب السماوى أن يمد فى عمر القمص سلامة . فبدأ مع البابا المائة و التاسع و وصل إلى باباوية الأنبا كيرلس الخامس البابا الـ ١١٢ . و لكنه لم يقض تحت رياسة هذا البابا العظيم غير أسبوعين انتابته بعدهما نزلة شديدة إنتهت بسكتة قلبية . و على ذلك يكون قد انتقل إلى الفردوس سنة ١٨٧٤ م ، فذهب لينال الأجر الذى وعد به رب الكنيسة خدامه و محبيه [١] .



---

(١) يؤسفنى أن النشرة التى استقيت منها المعلومات المذكورة أعلاه لم تسجل أى تاريخ غير المذكور مع البابا كيرلس الرابع – مع أن كاتب النشرة هو جيران الإبن الثالث للقمص سلامة .

ب - من الكهنة الأوربيين الذين استهوتهم دراسة القبطية و اليونانية و الشعائر الدينية الشرقية الأب مالان . و من دراساته ما كتبه عن القداسات الإلهية فى أصلها القبطى مع مقارنتها بالمطبوع القبطى أيضا بالإضافة إلى ترجمتها الإنجليزية . و فيما يلى ما نشره سنة ١٨٧٢ م ، قال : لسنا ندرى على وجه التحقيق إن كانت هذه الليتورجيات الثلاث المستعملة فى الكنيسة القبطية قد كتبت أصلا باليونانية . إنما الذى نعرفه يقينا أنها (لو كانت أصلا باليونانية) قد ترجمت إلى القبطية حتى خلال العصر المسمى باليونانى - و ذلك ليستطيع أن يستخدمها الكثيرون الذين لم يكونوا يفهمون غير القبطية و لا يتكلمون إلا بها . و هذا شبيه بما حدث بعد ذلك بقرون إذ قد ترجمت إلى العربية [1] . و إن الذى يشوقنا بالأكثر بين القداسات الثلاثة هو قداس مار مرقس البشير المسمى بليتورجيا القديس كيرلس ، لأنه من المعروف أن هذا البابا هو الذى رتبه و وضعه فى صيغته الراهنة .

و هناك من يظنون أن الأصل اليونانى لقداس مار مرقس قد عثروا عليه فى القرن السادس عشر فى دير بكالابريا (فى الجنوب من إيطاليا) . و قد طبع آنذاك بالرضى التام من رومية : طبعه القس أندريا فى باريس سنة ١٥٨٣ م باليونانية مع ترجمته اللاتينية . ثم أعيد طبعه سنة ١٧١٦ م بمعرفة المستشرق الفرنسى رينودو ، و سنة ١٧١٩ م بمعرفة فابريشيوس . و أخيرا طبعه المستشرق الألمانى والتر تيل فى لندن سنة ١٨٥٨ م ، و يقول فى مقدمته - من غير أن يشير إطلاقا إلى أى قداس لمار مرقس و لا إلى أى رأى أبداه الآخرون فى الموضوع - " إن الشكل العام و الترتيب لهذا القداس يجعلنا نعتبره من غير تردد من قول البشير مرقس نفسه و أتباعه المباشرين أنيانوس و أميليوس و كردونوس . " .

و حين كنت فى القدس أعطانى أبونا رئيس دير اليعاقبة (القبط) هناك مخطوطة قبطية قديمة تتألف من مائة و أربع و سبعين ورقة مكتوبة بالقبطية و العربية على ورق سميك من القطن بخط يشير إلى أن القرن الثالث عشر (أو الرابع عشر) هو الوقت الذى كتبت فيه - و لو أنها لا تحمل إشارة إلى النسخة المنقولة عنها .

---

(١) و كانوا آنذاك يكتبون العربية بحروف قبطية على عكس ما نفعله الآن .

و هذه الأوراق المائة و الأربع و سبعون مجلدة في كتاب بغلاف من الخشب البادي عليه التآكل لكثرة استعماله سواء في القدس أو في مصر . كما أنها تتضمن رؤوس عناوين كثيرة - و هذه علامة على القدم في مثل هذه المخطوطات . و هي كغيرها من الخولاجيات المصرية تتضمن القداسات الثلاثة . كذلك تتضمن تقويما قبطيا كنسيا مترجما عن مخطوطة عربية و معها ملحوظات الأب مالان و هي : إن هذا التقويم الخاص بالكنيسة القبطية هو ترجمة لمخطوطة عربية للتقويم الذي كان مستعملا إلى وقت قريب في إحدى الكنائس اليعقوبية في القاهرة . و قد حصل عليه والتر تيل و تفضل بإرساله إليّ . و نشره الآن لا يرجع فقط إلى ما يحويه من قصص حقيقية قديمة أو جديدة بقدر ما يرجع إلى كونه شيق لأنه مستند أصيل يساعدنا في قليل أو كثير أن نتفهم بأكثر وضوح الحالة التي كانت عليها إحدى الكنائس القديمة في الشرق . و حتى بالحالة التي هي عليها و بهذا العمل الصغير فلا شك في أن هذه المخطوطة شيقة لأولئك الذين ينظرون إلى كنيسة السيد المسيح بوصفها " الجامعة المقدسة " .

و تبدأ المخطوطة كما يلي : " باسم الآب و الإبن و الروح القدس الإله الواحد أمين . نبدأ بعون ربنا المسيح أن نكتب ذلك الذي كان منتخبا لمجد إسمه من بين سجل السادة المكرمين و الشهداء المختارين و الآباء القديسين الصالحين مما تجدر قراءته في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية المقدسة بسلام من الرب - آمين [1] . " .

و من الواضح أن هذا التقويم ليس إلا سنكسارا لما يتضمنه من السيَر . و بما أن الكنيسة الإنجليزية ليس بها تقليدنا القبطي الذي وضعه لنا آباؤنا ليجعلونا ندرك أنه تكملة لسفر أعمال الرسل - فقد دعاه المترجم " تقويما " . و يجدر بنا هنا أن نذكر أن سفر " الأعمال " هو السفر الوحيد في العهد الجديد الذي لا ينتهي بكلمة " أمين " ، تنبيها لنا بأن حياة المسيحيين على مدى القرون هي استمرار لهذا السفر المقدس . و هذا ما هدف إليه آباؤنا من قراءة السنكسار بعد قراءة " الأعمال "

---

(1) من نسخة محفوظة بمكتبة المتحف البريطاني رقم ٧٥٤ أ (٤) .

مباشرة ، و ذلك لتحفيزنا على السعى نحو الكمال المسيحى المرموق [١] .

٣ . – « صعب عليك أن ترفس مناخس » (أعمال ٩ : ٥)

مما لاحظه بعض الأجانب أن المسيحية فى مجتمع الشرق الأوسط تتسم بدرجة عليا من المرونة فى مختلف الأمور بعيدا عن العقيدة التى تتمسك بها بثقة و اعتزاز و ثبات . و تتضح هذه المرونة فى اشتراك المسيحيين اشتراكا تلقائيا فى كل المجالات القومية و فى تطور الوعى الإجتماعى و السياسى . كذلك اكتسبت المسيحية مكانة مكرمة فى الثقافة القومية . و إن المتمعن تاريخ الكنائس الشرقية ليندهل أمام إمتداد الرعاية الإلهية لها حتى لقد أبقتها ساطعة على الرغم مما أصابها من الحروق : قدورها قد قامت به على مدى القرون و سيرتها مصدر إلهام براق .

و حين هبط دعاة التبشير مصرنا الحبيبة استطاعوا أن يكسبوا بعض الأتباع من مسيحييها . و لكن ما أصابوا من نجاح فى بداية عملهم أدى إلى العكس مما كانوا يستهدفونه ، إنه استثار الوعى القومى فنهضت الكنيسة فى عزيمة و حماس . و عبرّ الباباوات عن هذه النهضة بما بذلوا من جهود لتدعيم التعاليم الآبائية فى قلوب أبنائهم . و هم قد عاشوا خلال العصور المتتابعة بتلك السماحة المؤكدة للمعايشة فى أخوة ، و من ثم علموا شعبهم أن التعاطف و التجاوب مع الآخرين هو الميزان الرقيق الذى يحافظ على العلاقات بين المؤمنين بالله على مختلف أديانهم . و بهذه السماحة نجحوا فى أن يحفظوا روح التفاهم و فى الوقت عينه فى أن يحرصوا تماما على عقيدتهم . و بهذا الحرص صانوا التعاليم و الطقوس التى يتبلور داخلها الإيمان [٢] .

و إنه لمن الضرورة تذكير الجيل المعاصر – و من خلاله الأجيال الآتية – بالنظرة

---

(١) القداس الإلهى من مخطوط قبطى قديم . . . للأب مالان ، مطبوع فى لندن سنة ١٨٧٣ م .

(٢) جاك بيرك : " مصر ما بين الإمبريالية و الثورة " [بالفرنسية] ، الفقمة : جيرا جورجى " الشرق الأوسط " [بالإنجليزية] ، ص ٥٨ ، ٥٩ ، ١٤٤ ، ١٤٧ .

التي كان ينظر بها الأجانب إلى كنيستنا التي صمدت أمام كل المحاربات و نجحت بمؤازرة فاديها لها في أن تنتصر عليها كلها . و من وسائل التذكير ما سجله أحد زعماء المبشرين الأمريكيين [1] ، قال : " إن التهمة التي تلصقها بالكنيسة القبطية هي أنها عاجزة مشلولة ، و أن الحكم فيها استبدادي مطلق ... فاستمالة القبط ستراتيجية تبشيرية ... و إن المؤثرات الوثنية واضحة في هذه الكنيسة كعبادة مريم و الملائكة و القديسين . و لكي ندرك مدى هذه العبادة يكفينا أن نلقي نظرة واحدة على التقويم القبطي حيث يوكل كل يوم بمهمة إلى قديس أو أكثر ، و نظرة أخرى على القداس لنخوض في أسماء لا عدد لها ... [2] .

" و يمكننا اعتبار مصر على أنها بعدت تماما عن المسيحية مما دفع بالمبشر دانكي (من مورافيا) سنة ١٧٦٨ م إلى الإستقرار في البهنسا لتعليم القبط عن المسيح ! و بعد اثنين و ثلاثين سنة - أي في سنة ١٨٠٠ م - قرر مجمع هرمينهوت التخلي عن العمل في مصر لأسباب لم يعلن عنها ! [3] " .

... و لقد بدأت جمعية التبشير البريطانية عملها سنة ١٧٩٩ م . ثم حظى رئيسها بإذن باباوي لزيارة أديرة وادي النطرون . و أبرز ما نجح فيه خلال هذه الزيارة شراؤه مخطوطة هي الترجمة الأمهرية (الحبشية) للكتاب المقدس .

ثم جاء خمسة مبشرين ألمان سنة ١٨٢٥ م و سكنوا في مصر العتيقة . و قرروا على أنفسهم التحدث بالعربية حتى فيما بينهم . و لقد وجدوا أن القبط حريصون في تعاملهم معهم . و مع ذلك اتخذوا خطة التعليم في عملهم التبشيري .

---

(١) هو تشارلز واطسون الذي نشر عن عمله التبشيري كتابا بعنوان : " في وادي النيل " (بالإنجليزية) .

(٢) هنا ومضت أمامي القصة التالية : دخل مفتش رسم فصلا للروضة ، فوجد ولدا قد رسم حصانا ثم أخذ يلونه باللبني . و راقبه إلى أن انتهى ثم سأله : " كيف اخترت هذا اللون ؟ " و بدوره سأل الولد : " ألم تَرَ في حياتك حصانا لبني اللون ؟ " فهز المفتش رأسه بالنفي . و عندها قال له الولد : " ياه ! أنت مسكين ! " .

(٣) ما الذي يدفع بإنسان إلى التخلي عن عمله بعد كل هذه السنين لو لم يكن قد فشل فيه ؟ و ليس من شك في أن كل أولئك الذين أبدوا استخفافهم بكنيستنا العريقة سيصيبهم الذهول لو أنهم عادوا الآن إلى الحياة !

و فى سنة ١٨٢٨ م لم يكن فى مدرستهم بمصر العتيقة غير خمسة من القبط و أربعة من اليونانيين ثم عدد من الكاثوليك و المارونيين . و بعد أربع سنوات أخرى زاد عدد التلاميذ القبط مما أدى إلى افتتاح مدرسة داخلية للبنين و أخرى نهارية للبنات . ثم نجحت مسز لايدر (رئيسة هذه المجموعة) فى أن تصل إلى حريم الباشا و تعلم زوجة إبراهيم باشا و اثنتين من بناته . و هنا يفور سؤال يحتم المواجهة : لماذا لم تستطع هذه الألمانية أن تكتسب مسلما واحدا مع أنها بلغت مركزا يعطيها الكثير من النفوذ – خصوصا و أن كل هؤلاء المدعين التبشير قد عيرونا مرارا و تكرارا فى أننا فشلنا فى اكتساب مواطنينا إلى مسيحنا ؟ الإجابة هو أنه لأسهل على الإنسان أن يلعن الظلام من أن يكلف نفسه إيقاد شمعة .

... ثم داعب الأمل المبشرين الإنجليز و معاونيهم الألمان فى أنهم يستطيعون التأثير على الإكليروس القبطى و من خلاله على الشعب . و بدافع هذا الأمل افتتحوا الإكليريكية سنة ١٨٤٢ – ١٨٤٣ م . و لكنهم اضطروا إلى إغلاقها سنة ١٨٤٧ م . و نتيجة لهذا الفشل قرروا إنهاء عملهم التبشيرى فى مصر .

و لكى يتيقن أولاد الكنيسة المصرية الصحيحة من الحيوية العارمة التى أودعها رب الكنيسة فيها يكفيهم أن يعرفوا أن المبنى الذى شغلته هذه المدرسة الإنجليزية هو الآن " بيت وقف الأنبا أنطونى " !

أما الأمريكيون فقد بدأوا عملهم التبشيرى فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٥٤ م . و بعد خمس سنوات نجحوا فى أن يضموا أربعة أشخاص و يسجلوا أسماءهم ضمن أتباعهم . و كان اثنان من الأربعة قبطا و واحدا سوريا و الآخر أرمنيا . و فى السنة التالية أضيف أربعة من القبط إلى السجل . ثم افتتحت أول كنيسة خاضعة للأمريكيين سنة ١٨٦٠ م .

و من الواجب تسجيل الغضب الذى ملأ قلوب القبط . فقد قاوم المسئولون منهم نشاط الجمعية التبشيرية البريطانية حتى اضطروا إلى الإنسحاب . و كان موقفهم من المبشرين الأمريكيين موقفا معاديا واضحا تحول إلى مخطط ساهمت فيه

الحكومة المصرية لتعاون الكنيسة القبطية على تقويض البروتستانتية . فقام البابا القبطى برحلة إلى الصعيد [1] . و ظل بعد عودته إلى القاهرة يذكى النيران . بل إنه سعى لدى الحكومة إلى إغلاق المدارس البروتستانتية . و لقد توالت - على أثر ذلك - استنجاد المبشرين بالقنصليْن الإنجليزى و الأمريكى اللذين قابلا عددا من رجال الحكومة المصرية لكى توقف هذا الضغط القبطى . و نتيجة لهذه الجهود المكثفة من " سلطان هذا العالم " إستمرت المدارس التبشيرية مفتوحة [2] . و الواقع أن الغالبية العظمى ممن نجح المبشرون فى استمالتهم إليهم كانت من القبط . و سجلاتهم التبشيرية شاهد على ذلك إذ ليس بها غير إسم مسلم واحد يدعى أحمد فهمى [3] .

. . . و من الغريب أن ينتقد الكاثوليك عمل المبشرين البروتستانت فى الوقت الذى كانوا يسعون هم أيضا للوصول إلى الغرض عينه - فيقولون : " إن الإنجليز لم ينجحوا فى تبشيرهم على الرغم من محاولاتهم العديدة . و حين تم لهم احتلال مصر زعموا أن فى مقدورهم أن يترسخوا فوق أرض الفراعنة . إلا أن القبط ظلوا متباعدين عنهم . و لكن مما يؤسف له أن هؤلاء القبط المساكين قد تركوا أنفسهم ينجرحون بتعليم الآتين إليهم من أمريكا حوالى منتصف القرن التاسع عشر . و الواقع أن عمل الأمريكيين فى بدايته كان شاقا بطيئا فلم يحرزوا غير تقدم ضئيل لغاية سنة ١٨٧٠ م . و لكنهم أخذوا يتوسعون بعد الإحتلال الإنجليزى : ففتحوا المدارس و نشروا الوعظ و وزعوا الكتاب المقدس مجانا - و هذه الأعمال كلها كانت

---

(١) راجع ص ٥ من هذا الكتاب ص ٢٧٠ - ٢٨٧ .

(٢) هذا اعتراف صريح من المؤلف بمقاومة القبط لهم و بأنه لولا التدخل السياسى لفشل المبشرون الأجانب ، كذلك أبدى هدفه فى غير مواربة بقوله : إن استمالة القبط استراتيجية تبشيرية . و لنقف لحظات خاشعين أمام القوة الروحية الكامنة فى عمق كنيستنا - فقد قالوا عنها إنها " عاجزة مشلولة " و مع ذلك احتاجوا إلى سلطة الحاكم المدنى ليحتفظوا أنفسهم أمام حيويتها !

(٣) راجع كتاب واطسون السابق ذكره ص ٤٥ - ٥٤ ، ٥٩ ، ٦٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٩٩ ، ١١٧ - ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣٣ ، ١٣٥ - ١٤٠ ، ١٤٣ - ١٤٧ ، ١٥٠ - ١٦١ . و كذلك كتاب : " اليقظة العربية " لجورج أنطونيوس [بالإنجليزية] ، ص ٣٥ - ٣٧ و ٤٠ - ٤١ .

نتيجة لمخطط مدروس . و الجدير بالذكر أن الإحتلال الإنجليزى ساندهم رسميا و بالتدخل التعسفى إذ قد أصدر قرارا بجعل اللغة الإنجليزية ضرورة لازمة لكل من يريد التوظف فى الحكومة . و هذا القرار دفع بالكثيرين إلى الذهاب إلى المدارس البروتستانتية للحصول على المعرفة التى تؤهلهم - وحدها - لبلوغ أهدافهم . . . " .

و لقد استغل الكاثوليك الموقف فادعوا أنهم حماة المسيحية : " و لقد سبق لنا القول و نعود إلى تكراره بأن كنائس الشرق لن يمكنها المحافظة على كيانها إلا باتحادها مع الكنيسة الكاثوليكية . . . و البروتستانتية التى قاوموها تغير عليهم الآن من كل ناحية و تنهب فيهم نهبا . إذن فليس أمامهم من سبيل يحميهم غير الوحدة مع الكنيسة الكاثوليكية التى يمكنها أن تعيد لهم حتى الخير المادى [1] . " .

٣١ - التجدد المثمر

إن من يتمعن مصر ، على امتداد عصورها ، يتذهل أمام حيويتها المتجددة باستمرار . فكم من شعوب بادت نتيجة للحروب و الطغيان . أما شعب مصر فقد توالت عليه المحن و انهالت عليه الضيقات ، و مع ذلك فهو باق - شاهد حى على ثبات المواعيد الإلهية فيه . و صحوة بنى مصر قد تناولت كافة المجالات ، و هنا لنتمعن هذه الظاهرة المصرية العجيبة تبعا لشهادة بعض " الذين هم من خارج " :

إنشغل بعض البحاثة الفرنسيين بالناحية الفنية ، و يوضح أحدهم امتداد الفن القبطى داخل العصور الإسلامية فيقول : لقد شغل القبط مركزا كبيرا فى الحياة الفكرية لمصر ، كما شغلوا مركزا لا يقل حجما فى ميادين الفنون . فقام مزيج من التقاليد القبطية و الجهود الإسلامية أثر كل منهما فى الآخر . على أنه من الواقع أن القبط بمراقة تقاليدهم الفنية و غناها كان لهم أثر أكبر وضوحا على الفن

(١) " المسألة الدينية فى الشرق و وحدة الكنائس " [بالفرنسية] . و الكاتب اكتفى بأن يقول عن نفسه " مبشر " دون ذكر إسمه - أما الصفحات المأخوذة عنه هنا فهى : ١ ، ٩ - ٢٢ ، ٢٥ - ٢٧ ، ٤١ - ٤٢ .

الإسلامي [١] . ففي الصعيد (بصفة خاصة) يلتقي الساعي للمعرفة بالشخصية المصرية البحتة - هذه الشخصية التي أذهلت الحكام الأجانب مرارا و تكرارا بصحوتها و عزتها القومية . و منذ القرن المسيحي الثالث بدأ تطور له قيمة عظمى يتلخص في الوعي الثائر للقومية الصميمة مقابل كل المؤثرات الدخيلة و في إثبات الفردية المصرية . و لقد دعمت المسيحية هذا الإدراك القومي بإعطاء المصريين قيمتهم الشخصية و مقدراتهم الخاصة .

و هذه الصحوة الواعية أوقدت جذوة الفن القبطي الذي نما و اكتسب فرديته بتصاعد الروح القومية . و قد بلغ اشتعال هذه الروح مبلغا جعل القبط يؤكدون أنهم أقدم شعب - بل إنهم الشعب الذي ابتكر الكتابة و الهندسة و غيرها من الإنجازات الحضارية . و في حدة اشتعالهم أكدوا أن كل هذه الإنجازات العظمى في العالم بأسره كانت من صنع آبائهم . و بهذه العزة القوميّة تأصل الفن القبطي الصميم . و لقد استخدم الفنان القبطي كل ما في بيئته من نباتات و حيوان . ثم أضاف إليها تصوراته عن اللا محدود و اللازمني - و هذه التصورات عبّر عنها بالأشكال الهندسية المختلفة المتشابكة المتعانقة .

و تستكمل سيدة نمساوية [٢] هذا السرد الفرنسي فتقول : " يجب ألا يغيب عن بالنا أن الفنان القبطي شق طريقه وسط عقبات جمة . كما يجب أن لا تغيب عن بالنا أيضا تلك القوة الجبارة التي انبعثت من أعماق النفس المصرية لتحوّل الفن عن مساره الأجنبي المتزلّف للحكام إلى مسار مصري شعبي لا يستلهم سوى الشعب . و هذه المعركة التي خاضها الفنان القبطي هي بعينها السبب في جعل الفن المصري شيقا و تاريخه جذابا : إنها معركة تحرير بالمعنى الصحيح . و لقد انتصر الفنان القبطي بابتكاره أشكالا جديدة مستوحاة من مصريته الفرعونية .

---

(١) مذكرات البعثة الفرنسية للآثار ، جـ ١ ، ص ٢ ٢ ، ٢٤ - ٢٥ ، إدمون برتي : " الخشب المنحوت في الكنائس القبطية " [بالفرنسية] ، المقدمة ص ٧ .

(٢) هي السيدة عيدا زالوتشر ، في مقال لها نشرته في مجلة " جمعية الآثار القبطية " سنة ١٩٤٨ م ، ص ١٤ - ٢٢ بعنوان : " الأحجار المحفورة المحفوظة في المتحف القبطي بمصر القديمة " .

" و من أروع الأمثلة المتبقية إلى وقتنا الحاضر آثار الدير الذى كان قائما فى منطقة سقارة و الذى أسسه سنة ٤٧٠ م القديس أرميا . فما زالت جدرانه و أعمدته تحمل الزخارف المنحوتة و الأشكال الملونة التى تبين دقة الفنان القبطى و ذوقه . بل إن البلدة التى قامت حول الدير لا تزال آثارها باقية هى أيضا . فالبيوت و الخانات و الإسطبلات و إن تكن قد خربت ، و لكن الباقى منها يشهد بدوره لدقة الصناعة . فمثلا ما زالت لكل إسطبل تجويفته الداخلية و فى وسطها الحلقة الحديدية التى كان الزائر يربط حصانه أو حماره فيها . كذلك لا تزال آثار الفسقيات و تراقير الماء باقية . و هى كلها تشهد بأن المكان كان مزاراً يقصد إليه طالبو البركة و الإستجمام الروحى [١] .

" ... و إننا لنجد فى الفن الأيقونى موضوعا ذا إنسانية عميقة : إنه موضوع السيدة العذراء الحانية على إبنها الإلهى . و الفن المسيحى المصرى - من أقدم عصوره - عرف الجلال و الأمومة فى والدة الإله . و بهذه الوسيلة تفهم المؤمنون سر التجسد ؛ تفهموه بوسيلة سهلة بقدر ما هى ثاقبة . فكل تقديم لأم النور يشع كرامة و وقارا . " .

" و فى متحف برلين الغربية صليب فضى مكرس قدمته الراهبة ثيئودوتى الخاضعة للأنبا ماتنو إلى الأنبا شنودة رئيس المتوحدين . و الكتابة المحفورة على الصليب بالقبطية ، و السيد المسيح المصلوب عليه محفور بدقة و عناية . و عند قدمى الصليب تلك الراهبة المعطية ممسكة بشمعة فى كل من يديها . و يبرز من هذا الصليب عنصر قبطى أصيل يوضح لنا روحا فنية مختلفة تماما عما اعتدناه : روحا ذات قوة عجيبة مذهلة - إنها زخرفة تزينية محض مستوحاة من الشكلين النباتى و الهندسى . " .

---

(١) " تاريخ الأمة المصرية " [بالفرنسية] جـ ٣ القسم الثالث : مصر المسيحية و البيزنطية للمستشرق ميهيل ، ص ٤٩٧ - ٤٩٨ و ٥١١ - ٥١٢ .

... " الفن القبطى " : هذا البناء ذو التباين العديد المذهل كان له أثر عالمى . فهو لم يربط بين الفن القديم و الوسيط و الحديث فى مصر مع فن الفاتحين العرب فقط ، بل كان له أيضا أثر واسع المدى يمكننا أن نراه فى الشعوب التى كانت خاضعة للإمبراطورية الرومانية و التى كانت مصر تورد لها قمحها و فنها معا .

فمثلا نجد فى كتب الخدمة الروحية الأيرلندية بين القديسين المكرمين أسماء لرهبان قبط معينين ما زالوا ينالون التكريم إلى يومنا هذا . و لولا ذلك لظلوا مجهولين . و أننا لنجد صلة مدهشة لا مشكوك فيها بين الكثير من الإنتاجات المسيحية الأيرلندية و بين مصر و هذه الصلة تبدو لنا بأكثر وضوح إذا ما قمنا صورة السيد المسيح و هو راكب الأتان الموجودة فى دير الأنبا شنودة رئيس المتوحدين و بين زخارف المخطوطات الأيرلندية . و الطريقة الفريدة لرسم الوجوه عند القبط تتشابه كثيرا فى ما نجده فى " كتاب الكيلز [1] – و هو كتاب من أروع الأمثلة لفن المخطوطات الأيرلندى . و الصلة الكنسية تبين لنا أننا لا نتعامل مع ظاهرة بالصدفة بل نتعامل مع تقدم متوازٍ و اتصال متبادل . و من الواضح أن هذه الصلة الملموسة فى أسماء الرهبان القبط المذكورين فى القداس الإلهى الأيرلندى لم تكن بالصلة الوحيدة بل كان إلى جانبها أثر ثقافى للكنيسة القبطية . و من الممكن أن نتخيل أن الزوار القبط أحضروا معهم منتجاتهم الفنية ليقدموها كهدايا ، على أن الأغلب أنهم شاركوا إخوتهم الأيرلنديين إبتكاراتهم القومية . و لقد نما الأثر القبطى فى الفن الأيرلندى بعد ذلك ، و من أيرلندا إنتقل إلى ألمانيا ليؤثر على فنها الناشئ . و هكذا قدمت الكنيسة الأيرلندية للشعوب حديثة النشأة فى العالم المسيحى ما تسلمته هى من الشرق القبطى [2] .

---

(١) يرجع تاريخ هذا الكتاب بالقرن الثامن و إسمه : " Book of the Kells " .

(٢) " الفن القبطى " للمستشرق كلاوس فيسيل ، ترجمته عن الألمانية إلى الإنجليزية السيدتان جين كار ويل و شيلا هاترن ، نيو يورك سنة ١٩٦٥ م .

٣٢ - مع الأنبا كيرلس الخامس البابا المائة و الثانى عشر

أ - " فجاءت امرأة . . . "

إن انسياب التاريخ لا يتطلب الوقوف عند الأحداث فقط بل إنه بالأولى يحتم الوقوف عند الأشخاص : فهم صانعو التاريخ - و الصانعون هنا رجال و نساء . و وقفتنا فى هذه اللحظة مع النساء . و أول من تلقاها السيدة ملكة سعد إحدى رائدات التحرر النسوى . و هى - مع كونها لم تشتغل بوظيفة عامة - إلا أنها انشغلت بتوجيه معاصراتها عن الطريق الأولى لحياتهن . فنشرت كتابا بعنوان " ربة الدار " ظهرت طبعته الأولى سنة ١٩١٥ م ، و طبعته الرابعة سنة ١٩٢٤ م . و كان لديها من الإقدام ما جعلها أن ترسل نسخة منه هدية إلى السلطان حسين (حاكم مصر آنئذ) . و لقد جاءها رد من كبير أمناء القصر فى ٢٣ فبراير سنة ١٩١٥ م قال فيه :

" حضرة الفاضلة السيدة ملكة سعد صاحبة مجلة الجنس اللطيف -

مؤلفك المستطاب قد رُفع إلى صاحب العظمة مولانا السلطان فكان موضعا للشكر و الإستحسان عند عظمته . فأبلغ حضرتك هذا مع وافر الإحترام . " .

و جدير بالذكر أن وزارة المعارف (التربية و التعليم) إشترت عددا وفيرا منه و وزعته على مدارس البنات .



ب – و لنتأمل معا ما قالته صحفية إيطالية فى حديثها عن " **قصة المرأة فى مصر الحديثة** " ، و هو : " ... إن الآثار المصرية توحى إلينا بالسحر التاريخى الجميل و بالجمال التاريخى الساحر ... و لئن كانت مدنية أوربا قد استطاعت أن تنسخ معالم امرأة مصر ، و إن كان التطور المدنى قد استطاع أن يضفى عليها أهاب أخواتها الأوربيات و الأمريكيات ، فإن هذه المدنية و ذاك التطور لم يستطيعا أن يستبدلا بروحها المصرية الشرقية الحزينة القديمة روحا أخرى كائنة ما تكون ، و هذه الروح المطلة من هاتين العينين الحالمتين هى التى تقتنى إلى سر الجمال فى هذا البلد و إلى سر خلوده – فمن شاء أن يتذوق جمال النيل و سحره و عظمته عليه أن يمعن النظر فى عيون بنات مصر : أولئك الفاتنات الساحرات اللواتى أضفن إلى جمالهن القديم الموروث جمال المدنية الأوربية الحديثة . إنهن اليوم ، و هن العصريات المتفرنجات لا زلن يستأثرن بإغراء كليوباترة و بسحر " أنخ إنسيا أتن " زوجة الملك الفنان الشاب توت عنخ آمون . " [1] .

ثم جاء بعد ذلك أحد مواطنينا و عبَّر بدوره عن تقديره للمرأة فقال : " إن سر قوة المرأة يرجع إلى ما تستمده مما كمن فى داخلها من القوى العلوية ؛ و لو كانت هذه القوى مادية محض لهان الأمر و وجد الرجل من الوسائل ما يساعده على التغلب عليها و إرغامها وقت الإقتضاء . و لكنها قوى روحية بحتة تختلف عن القوى الجسدية التى تبلى و تتلاشى و تنحل ... و من تدبّر قوانين الحكومات و المجالس النيابية و أنظمة الجيوش و قوانين أساطيل البحار تيقّن أن النواميس الروحية التى تسير المرأة بمقتضاها لأعظم وثاقة و أقوى بنيانا منها ، فضلا عن أنها فى مكمن من المؤثرات الخارجية و منأى عن مطارح التبديل و المحو و الإلغاء . " [2] .

---

(١) الصحفية هى دورينا دانديا ، و مقالها نشرته فى مجلة " المصرية " العدد ٣٧ بتاريخ ١٥ أوغسطس سنة ١٩٣٨ م .

(٢) المواطن هو قسطندى رزق و نشر مقاله هو أيضا فى مجلة " المصرية " العدد ٥٧ بتاريخ يونيو سنة ١٩٣٩ م – و " المصرية " كانت تصدرها دار الإتحاد النسائى مرتين شهريا ، تحت رعاية السيدة الجليلة هدى شعراوى .

٣٣ - من هذه الطالعة من البرية ... ؟ [١]

ليس في الإمكان الحديث عن المرأة من غير تتويجه بالحديث عن تلك التي هي فخر الجنس البشري و التي استحقت أن تكون " والدة الإله : ثيئوتوكس " . و لنتمعنها هنا من زاوية فرديتها العجيبة : إنها أم ملك الملوك و مع ذلك فهي متواضعة تواضعا مذهلا . و لأنها أعلنت استعدادها الفوري لكي تكون " أمة الرب " فقد منحها الرب - فورا أيضا - أن تبلغ كرامة الأمومة العليا .

... و لنتأمل الصورة التي يقدمها لنا بولس الرسول عن وحدة السيد المسيح بكنيسته : صورة وحدة العريس بعروسه - إنه يقول لنا إن في هذه الوحدة السرية تتقبل الطبيعة المشتركة بين الزوجين طبيعة العريس . فالكنيسة هي كنيسة السيد المسيح و لكنها ما زالت في الوقت عينه تلك الشخصية الأخرى المنفصلة " شخصية العروس " و الكنيسة في كيانها الذاتي ، مع أنها عروس السيد المسيح ، تبدو على أنها جموع عديدة . و هذا هو السبب الذي جعل الآباء لا يرون في نشيد الأنشاد شخص العروس الكنيسة فقط ، بل يرون في الوقت عينه كل شخص داخلا في وحدة مع الله . و لكن " هذا السر عظيم " كما يقول رسول الأمم : إنه ينتمي إلى الدهر الآتي حين تبلغ الكنيسة الكمال في الروح القدس و حين تتحد الطبيعة المخلوقة بالملء اللامخلوق في الأشخاص الإنسانيين الذين يصيرون شركاء الطبيعة الإلهية - أي يتألهون في وجه المسيح الله الكلمة .

و هكذا يبدو أنه إلى أن يكمل الزمان ، و إلى قيامة الأموات و الدينونة الأخيرة ، لن يكون للكنيسة أي شخص بلغ إلى كمال الوحدة مع الله . و مع ذلك فلو قلنا هذا لفشلنا في أن نبصر قلب الكنيسة و أحد أسرارها الخفية العميقة و محورها الروحاني و كمالها الذي تحقق في شخص إتحد بكليّته بالله : **هذا الشخص الذي تخطى القيامة و الدينونة هو مريم والدة الإله** . إنها تلك التي اتخذ الكلمة منها طبيعة إنسانية لأنها سلمت نفسها بكامل حريتها لتكون أداة التجسد بحلول

---

(١) نشيد الأنشاد ٣ : ٦ .

الروح القدس عليها . على أن الروح القدس قد حل عليها أيضا يوم العنصرة . و لكنه فى الحلول الأول ملأها من نفسه لكى يهيأها لأن تنال الطبيعة الإلهية . إذن فأطهر طبيعة التى هى احتوت الله الكلمة و دخلت فى وحدة كاملة مع الله هى والدة الإله . و لئن ظلت باقية فى العالم و خضعت لكل ظروف الحياة حتى الموت فإن ذلك كان نتيجة لتسليمها إرادتها بالكامل إلى الله . و هى لذلك قد نالت الكرامة فى أن تحمل الملائكة جسدها فيحوله ابن الله من الترابى إلى الروحانى مباشرة ، و به أصبحت جالسة عن يمين الملك فى السماء . فهى أول إنسان تحقق فيه القصد النهائى الذى شاءه الله من البداية . و هكذا نالت الكنيسة ، بل نال الكون كله ، تاج الكرامة و انفتح أمام الجميع باب إمكانية الوصول إلى التأله [١] .

و يعبّر قديس روسى من القرن السابع عن تكريمه للسيدة العذراء بقوله : " و إذ شاء الله أن يخلق صورة كلية الجمال و أن يوضح صراحة للناس و للملائكة سلطان فنه خلق مريم الشاملة الجمال ؛ ففيها ركّز كل أنصبة الجمال التى وزعها على مخلوقاته و بالتالى جعلها زينة الكائنات المرئية و اللامرئية ؛ أو بالحرى جعل منها مزيجا لكل كمال ملائكى و إنسانى ، و لكل جمال تناهى ؛ فازدان بها عالمان و امتد من الأرض إلى السماء ... إنها الحد الواقع ما بين المخلوق و اللامخلوق ، فهى قد تخطت الحاجز الفاصل بين هذا الدهر و الدهر الآتى ؛ و هى باكورة الكنيسة الممجدة . " .

و السيدة العذراء هى بالضرورة شفيعة عن مصائر الكنيسة و الأكوان الذين ما زالوا يتفتحون خلال الزمن .

و فى لحن بديع تترنم الكنيسة الشرقية بأم الله هكذا : " فلنترنم لمجد الكون ؛

---

(١) التأله معناه التحول إلى إله ، و قد دعانا رب المجد إليه حين قال : « كونوا كاملين كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل » ؛ و تفسيرا لهذه الوصية الإلهية علمنا آباؤنا أن الإنسان مخلوق منادَى عليه أن يكون إلها . على أنه يجب أن نميز بين " التأله " الصادر من الخالق نفسه و بين " التأليه " و هو أن يدّعى الإنسان الألوهية لنفسه بنفسه .

زهرة الجنس البشرى التى ولدت الرب ؛ باب السماء العذراء مريم؛ أنشودة اللامتجسدين؛ زينة المؤمنين ؛ هيكل اللاهوت ؛ لقد عملت على هدم حاجز العداوة و جاءت بالسلام ؛ و فيها نجد مرساة الإيمان إذ نجد فى الذى ولدته المدافع عنا . فكونوا جسورين يا شعب الله . كونوا جسورين [1] لأن ضابط الكل هو الذى يحارب أعداءكم " .

و الآن ، و بعد هذا التسامى فى تأملنا لفردية الثيئوتوكس ، ماذا يعوزنا بعد نحن بناتها لأن نعيش كما يحق بالدعوة التى دعينا إليها و بالكرامة العليا التى أكسبتنا إياها أم النور !؟

٣٤ - عهد الملكوت

لقد أعلن لنا السيد المسيح أن ملكوت الله داخلنا ، و هذا معناه أنه يجب علينا أن نعيش الملكوت الإلهى من الآن و نحن على هذه الأرض استعدادا لإمكانية حياتنا فيه فى الدهر الآتى . و استنهاضا لأرواحنا لنتبصر بعض التوجيهات الأبوية .

إن التقليد ليس مجرد مجمل للتعاليم العقيدية و المنشآت المقدسة التى تحافظ عليها الكنيسة ، إنه فوق هذا كله الإستعلان للروح القدس فى الكنيسة ؛ إنه حياة يستطيع كل عضو فيها أن يشترك بمدى إمكانياته . و الكينونة فى التقليد هى مشاركة الإختبارات الروحانية المستعلنة للكنيسة . و التقليد العقيدى هو شملات أقامتها الكنيسة على الطريق إلى معرفة الله فهو بذلك يتناغم مع التقليد الروحانى الذى هو الإختبار الشخصى لأسرار الإيمان . و لن يمكن تفهم العقيدة بعيدا عن الإختبار ، و الإختبار فى ملئه لا يمكن حيازته بعيدا عن العقيدة الحقة . لهذا جعل الآباء الهدف النهائى للاهوت الأرثوذكسى الإتحاد بالله . فيجب أن نعرف أن هذا اللاهوت الأرثوذكسى هو لاهوت وجودى يتطلب الإنسان بكل وجوده و ذاتيته و يضعه على طريق الإتحاد بالله و بالتالى يضطره إلى أن يتغير و يحوّل طبيعته

---

(١) و هنا أيضا نجد التناغم فى الفكر الأرثوذكسى لهذه الكلمات التى وردت فى اللحن الشرقى " كونوا جسورين . . . " قد أوصى بها الأنبا أنطونى رهبانه و من خلالهم كل أولاد الله .

ليصل إلى المعرفة الحقة التي هي التأمل في الثالوث الأقدس ؛ و تغيير القلب أو المطانوة معناه التوبة ؛ و التوبة هي التحول المستمر داخل نفس المخلوق الساعي إلى الكمال - أي إلى الإتحاد بالله خلال عمل النعمة الإلهية و الحرية الإنسانية معا . و لكن الإستكمال النهائي الذي يتجه إليه الإنسان لا يتحقق إلا بالروح القدس : إنه المعلم السري الذي يشهد لحضرة اللامرئي اللامحدود . و هذا هو السر المخفي ضمن تعاليم الكنيسة مع كونها تؤكده . إنه الدليل الباطني و الحياة و الحرارة و النور الملازم للحقيقة المسيحية . و بغير هذا السر تصبح العقيدة فرضا خارجيا يطاع و يكيفه كلٌ حسب فهمه بدلا من أن تكون أسرارا مستعلنة و مبادئ تتفتح دوما في داخلنا و تشكل طبيعتنا نحو التأمل في هذه الحقائق التي تتناهى عن كل فهم .

و الروحانية الشرقية لا ترى السيد المسيح إلا في الكنيسة و بعيني الكنيسة - أو بعبارة أخرى إنها تعرفه بالروح القدس . و السيد المسيح ، بهذه الرؤيا ، مجد منتصر حتى في آلامه بل حتى في قبره : فإذ هو ميت و مدفون ينزل كغالب إلى الجحيم و يكسر قوة العدو إلى الأبد ؛ و إذ هو قائم و صاعد إلى السموات لا تراه الكنيسة إلا جالسا عن يمين الآب و قد قهر الموت . و توكيدا لهذه الرؤيا تسهر الكنيسة ليلة أبو غلمسيس (سبت النور) و هي تهتف لمسيحها الراقد داخل القبر بكل المزامير و التسابيح التي تعبّر بها عن فرحتها بربها الغالب و بانتصارها فيه إذ تكرر بلا ملل : ليس عبد بلا خطية و لا سيد بلا مغفرة [1] . و ناسوت السيد المسيح للأرثوذكسي هو دوما ذلك الشكل المجيد الذي تراءى به للتلاميذ على جبل التجلي المستعلن الآب و الروح القدس . و الوسيلة الوحيدة التي تجعل الإنسان يتشبه بفاديه ، في نظر الروحانية الأرثوذكسية ، هو نوال النعمة التي يمنحه إياها الروح القدس .

---

(١) من البديهي لقارئنا أن نضع هذه التسبحة التهليلية باللغة التي ترنم بها آباؤنا من البداية فتهتف :
ⲙ̀ⲙⲟⲛ ⲃⲱⲕ ⲛ̀ⲁⲧ ⲉⲣⲛⲟⲃⲓ ⁘ ⲟⲩⲇⲉ ⲙ̀ⲙⲟⲛ ϭⲟⲓⲥ ⲛ̀ⲁⲧⲭⲱ ⲉⲃⲟⲗ

و التعليم الشرقي في اعترافه بانبثاق الروح القدس من الآب فقط يؤكد الملء الشخصي لعمل البراقليط الذي يأتي إلى العالم . و هو ، مع كونه يشهد للإبن ، له عمله الخاص : إنه يهب لكل عضو في الكنيسة ملئا جديدا يمكّنه به من أن يتفتح و يعترف بحرية و تلقائية بلاهوت السيد المسيح - و لأنه حيث الروح القدس هناك الحرية » [1] . و هذه الحرية هي حرية الأشخاص الذين ليسوا أعضاء مكثوفين ضمن وحدة الجسد السري الذي لقاديهم ! و لا هم تلاشوا بهذه الوحدة بل بالحري يكتسبون ملء شخصياتهم : فكلٌ منهم شخصية كاملة لأن الروح القدس يحل على كل واحد شخصيا .

و الكنيسة التاريخية المحددة المعالم في الزمن و في الفضاء تتضمن في داخلها الأرض و السماء ، الناس و الملائكة ، الأحياء و الراقدين ، الخطاة و القديسين ، المتجسدين و غير المتجسدين . و مع ذلك فكم من الناس يمرون على الكنيسة دون أن يتعرفوا بهاء المجد الأبدي خلف المظهر الخارجي من الضعف و المهانة ؟ و أيضا كم هم الذين عرفوا في " رجل الآلام " الإبن الأزلي للآب ؟

... يقول القديس مكاري الكبير : " إن القيامة نفسها ستكشف الحالة الداخلية للكائنات لأن الأجساد ستسمح لخفايا النفس بأن تلمع من داخلها . فالنار السماوية التي للطبيعة الإلهية و التي يتلقاها المسيحيون في هذا العالم حيث تعمل داخل قلوبهم - هذه النار ستعمل من الخارج عند انحلال الجسد فتعيد تركيب الأجزاء المفككة و تحي الأجسام الرميمة . و عند ذاك سيظهر خارجا في الجسد كل ما اكتنزته النفس في كنزها المخفي ؛ و يصبح كل شئ نورا ؛ و يتخلل النور اللامتجسد كل إنسان . فتصير أجساد القديسين على شكل الجسد المجيد الذي ظهر به الرب للرسل يوم التجلي ، و يكون الله الكل و في الكل . و يسطع نور النعمة ، نور الثالوث الأقدس ، في جماهير الناس - أي في كل الذين اكتسبوه - فيصبحون كشموس في ملكوت الله . " .

---

(1) ٢ كورنثوس ٣ : ١٧ .

و إذ تتردد كلمات القديس الكبير داخلنا تهتف ألسنتنا تلقائيا : يا رب جيد أن نكون ههنا ... نعم إن البقاء فوق الجبل و السيد متجل بهجة روحية عليا . و لكن ... و لكن الفادي الحبيب يريدنا أن ننزل إلى العالم حاملين في داخلنا هذا البهاء السماوي و موصلينه إلى العالم . إنه يهيب بنا : « كما أرسلني الآب كذلك أرسلكم أنا »[1] .

٣٥ - « الريح تهب حيث تشاء » (يوحنا ٣ : ٨)

من البنيان لنفوسنا أن نستطلع - و لو من حين إلى حين - شيئا مما سجله " الذين هم من خارج " عن كنيستنا الحبيبة : و هنا نستطلع أربع صور تحمل إلينا الكثير من العجب .

و الصورة الأولى تأتينا من شخص عبر خلال مصرنا و لم يكتف بما شاهد بل سجل لنا انطباعاته ، قال : " هناك أمور تلمس القلب أعمق مما يلمسه جلال المعابد القديمة : أمور تمتد بالرؤية إلى ما وراء إنتاجات الإنسان - إلى الإنسان نفسه . فالبوابة الضخمة تزدان بالهيروغليفية الخفية العجيبة ، تتخللها جمل باليونانية و اللاتينية ، و فوق هذا كله ترى صليبا منحوتا . هنا ، عند منتهى حدود مصر ، بالنوبة ، رأيت كاهنا[2] جذاب الشكل ، شيق المسلك ، ذا رأس فرعونية ، يتزين وجهه بتعبير نبيل ، و في توقده و بساطته ، و تلاوة الواضحة ، و لحيته السوداء الطويلة ، و ملابسه الرثة ، و قدميه الحافيتين : في هذا كله رأيت صورة للرسل الأولين . و لم تكن هناك آنية من الفضة أو الذهب ، و لم يكن هناك أي مظهر للترف و المهابة يستأسر العين و العقل . بل كانت هناك قلة فخارية للماء و زجاجة بها القليل من الخمر و ثلاث خبزات - هذه فقط كانت المواد البسيطة لتأدية الشعائر القدسية للعشاء الرباني - بساطة تسبي الروح و تمتع النفس أن تعيش

---

(١) يوحنا ١٧ : ١٨ .

(٢) مما يؤسف له أن المؤلف لم يذكر إسم الكاهن .

سيدها الإلهى [١] .

و الصورة الثانية توضح لنا أن سلطان الرب على الحياة يتجاوز الأشخاص و يمتد ليشمل كل المجالات المختلفة . و من الأمثلة العديدة التى حققها – له المجد – فى كنيسته المصرية ما حدث للقبط الذين كانوا قد استوطنوا السودان . ففى أواخر القرن التاسع عشر انتصر الدراويش فى الحرب التى شنوها يمتفوان على تلك البلاد . و لما تمت لهم السيطرة عليها إتبعوا خطة الإبادة مع الأقباط : فقتلوا العدد الوفير منهم و صادروا كل أموالهم و ممتلكاتهم . على أن رب الكنيسة شاء أن يبقى له بقية منهم – بقية شاهدة على حراسته العالية . فأقام لهم أميرا من بين الدراويش أنفسهم إسمه محمد الخير ليدافع عنهم . فقد كان هذا الأمير على صلة وثيقة من المودة بتاجر قبطى إسمه إبراهيم بك خليل . و بدافع هذه المودة توسط لدى سلطانه لكى يترك البقية الباقية منهم ، فقُبلت وساطته . و كانت هذه البقية أشبه بـ « القطيع الصغير » [٢] الذى أهاب به راعيه أن لا يخاف . فقد كانوا قليلى العدد ، مطاردين ، مترجعين . و حين قبل السلطان أن يتركهم أمرهم بالإنزواء فى الجهات المتطرفة . و فى انعزالهم إنشغل الرجال بالزراعة و النسوة بالحياكة . و مع هذا الفقر و الإبتعاد طولبوا بضرائب فادحة فيصفهم إنجليزى كما يلى : " لم تعد لهم كنيسة و لا مدرسة ، و لا ممتلكات ، بل لم يعد لديهم المال ليعاودوا البناء . " .

هذا حكم إنسان ، فبماذا أجابه الله ؟

. . . قام الأنبا كيرلس الخامس سنة ١٩٠٠ م برسامة أسقف للخرطوم بإسم الأنبا سرابامون . و هذا الأسقف جمع ، قبل قيامه إلى مقر كرسيه ، المال اللازم لبناء كنائسه و مدارسه . و هنا العجب : فلم تمض أربعة أشهر على وصول الأسقف الجليل إلى الخرطوم حتى كانت المدارس قد انفتحت لتتقبل مائة و خمسين تلميذا !

---

(١) ج . ل . ستيفنز : " مذكرات عن سفرية فى مصر و النوبة " [بالإنجليزية] ، لندن سنة ١٨٧٦ م ، ص ١٥١ و ٢١٤ .

(٢) لوقا ١٢ : ٣٢ .

و إذ تأملها المؤرخ نفسه قال : " ... هناك إمكانيات واسعة لكنيسة مصر ما دامت تطلب الإرشاد الإلهي ؛ و طالما هي تسعى للنمو الروحي فالمستقبل عظيم أمامها . و سيمنحها ربها أن تقوم بدور هام في امتداد الملكوت على هذه الأرض . " . فإذا ما تبصرنا الحالة الراهنة للكنيسة القبطية ، لا في السودان وحده بل أيضا في كينيا و جنوب أفريقيا ، إرتفعت أرواحنا بالشكر للآب السماوي الذي جعل من القطيع الصغير المشتت خميرة للبركة ما زال مفعولها يسري يوما بعد يوم [1] .

و الصورتان الثالثة و الرابعة تحصلانا إلى مكتبة المتحف البريطاني - أولاهما كتاب قبطي عربي عن سيرة القديس يوسف النجار ، جاء في أوله : " بسم الله الواحد بذاته المثلث في صفاته + قصة نياحة أبينا القديس الشيخ يوسف النجار بركاته و صلواته تحفظ جميعنا يا اخوة أمين + و ان ربنا يسوع المسيح هو الذي أخبر بهذا لتلاميذه الأطهار على جبل الزيتون و بجميع سعيه و كمال أيامه و الرسل القديسين حفظوا هذا الكلام و كتبوه و تركوه في خزانة الكتب بأورشليم صلاتهم تحفظنا أمين + كان إنسان إسمه يوسف من بيت لحم ... هذا كان قد تعلم الحكمة و العلوم جيدا و جعل كاهنا في هيكل الرب + و كان يعرف صنعة النجارة + تزوج و اولد له البنين و البنات اربعة غلمان و ابنتين و هذه اسماوهم يهوذا و يسطس و يعقوب و سمعون و اسماء الابنتين اسياء و ليديا + و ماتت زوجة يوسف ...

" و في نصف النهار ظهر له رييس الملايكة جبرايبل المقدس في الحلم + و قال له يا يوسف ابن داود لا تخف أن تاخذ مريم + ... و بعد هذا كبر الشيخ و طعن في ايامه + و لم يضعف جسده و لا تغير نظره و لا تلف سن واحدة في فمه و لم يزل في عقله كل الزمان + بل كان كانه صبي شاب قوي في جميع امورة و اعضايه سالمة من كل الم . و كانت جملة حياته مايه و احد عشر سنة + و كان انتقاله من هذا العالم في السادس و العشرين من شهر ابيب +

(1) " مصر المسيحية " [بالإنجليزية] لمرتناجير فاولر ، لندن سنة ١٩٠١ م ، ص ١٣٤ و ١٤٢ - ١٤٣ .

و بسطس و سمعان اولاد يوسف الكبار تزوجوا ايضا و مضوا الى بيوتهم و كذلك الابنتين تزوجوا ايضا و مضوا الى بيوتهم و بقى فى بيت يوسف يهوذا و يعقوب الصغير و امى العذراء + و انا بقيت معهم كواحد من اولاده +

فجاء ميخائيل و جبرائيل الى نفس أبى يوسف و تسلموها و لفوها بلفافة نورانية + و اسلم الروح فى يد ابى الصالح + و حفظ الملايكة نفسه من شياطين الظلمة التى فى الطريق + و سبح الملايكة الى ان اوصلوها رلى مساكن الابرار + [1].

و ثانيتهما قطمارس عربى يقرأ فى شهر أبيب المبارك : تم طبع هذا الكتاب المبارك بالمطبعة القبطية الأهلية الأرثوذكسية بالقاهرة المحمية بالأزبكية فى ٧ بؤونة سنة ١٥٨٨ ش [2] ... و الحمد لله على المبدا و الختام . جاء فى مقدمته : الحمد لله الذى ريّض ألباب الخلايق فى حدايق الجبله + و فيّض الباب لمعرفة دقايق و حقايق الهداية بوحيه و تنزيله + و جاد علينا بقاطع حجة الهدى و قادنا الى ساطع محجة الاهتدا + بمعين ينبوع الحياة + و معين سفينة النجاة + فنحمده حمدا نستمطر به سحائب امتناناته الواكفة + و نشكره شكرا نستغزر به احساناته الزارقة + و نسأله ان يطبع على صفحات قلوبنا معانى كتابه الشريف بطبع صحائف معانى جديد عهده المنيف + ما لاح بدر طبعه و بدا و حان اوان الشروع فى بدئه + و بالله الاستعانة و التوفيق الى سواء الطريق +

و العجب أنه مرتب كما يلى : المزمور فالإنجيل فرسالة بولس فالكاثوليكون فالابركسيس + و لغة الكتاب طريفة - فمثلا بعد إشباع الألاف يقول : " رفعوا فضلات الكسر فملأوا اثنتى سلة مترهة + و الذين كلوا كانوا نحو خمسة آلاف رجل غير الصبيان و النسوا ... " .

---

(١) نسخة مخطوطة بمكتبة المتحف البريطانى رقم ٧٥٤ ٩ب .

(٢) ليلاحظ القارئ أنه كانت لنا مطبعة قبل الإحتلال الإنجليزى : فالسنة المسجلة توافق سنة ١٨٧٢ م و الإنجليز لم يحضروا بمصر إلا سنة ١٨٨٢ م . و هذا الكتاب محفوظ بالمكتبة عينها رقم ٣ . ١٤٥ إلى ٣ (3 ■ 14503) .

و مرة أخرى فكرة للتأمل

و الآن لنتأمل الريح و هى تهب هبوبا قوميا عاصفا : لنتأملها من خلال تعليق إنجليزى [1] أيضا ، قال : " إذا كنت تاجرا و لا تريد الإفلاس فلا تسر فى عملك على تعاليم المسيحية الأولى . و انجلترا ، فى علاقتها بمصر ، لا تتّجر و حسب - إنها تتجر و تراوغ ! ... و لقد أدرك السادة البريطانيون فجأة أنه قد ظهرت قوة جديدة خفية - هى قوة ذكريات ثورتها - سيكون لهم معها شأن يوما من الأيام . " . على أن إدراكهم كان أبطأ من الواقع الذى حدث بالفعل . فقد اضطر لورد كرومر إلى الإستقالة من وظيفته كـ " مندوب سام لحكومة صاحبة الجلالة " صيف سنة ١٩٠٧ م . و كانت الحكومة البريطانية قد عينته لإرهاب المصريين . و بلغت سياسة إرهابه أقسى مستواها فى حادثة دنشواى . و لكن " حربة دنشواى " إرتدت عليه . لماذا ؟ لأن البريطانيين أذاعوا على العالم بأسره أنهم إنما احتلوا مصر ليقيموا فيها العدالة التى لا تصير لها غيرهم . و زعموا أيضا أنهم بإرهاب مصر سيخنقون وطنيتها ! فطعنوها فى كرامتها . و إذ بمصر الجريحة تهب و تثير عاصفة هوجاء تنتهى باضطرار كرومر إلى " الإستقالة " صيف سنة ١٩٠٧ ، ثم إلى الجلاء النهائى عنها سنة ١٩٥٢ [2] .

و ليعلم بنو مصر أن آباءهم كانوا أول من هز أركان الإمبراطورية البريطانية : هزوها و هى فى أوج مجدها ! فلقد ثاروا عليها سنة ١٩١٩ و هى خارجة منتصرة فى الحرب العالمية الأولى . فلقد كان حب مصر شعلة ملتهبة داخل كل قلب و شمل هذا الحب أبناء مصر فترابطوا و تماسكوا و صاروا شبيهين بأهرامهم الرابضة فوق الصحراء . و لكى تعرف الأجيال القادمة قوة هذا الحب الذى ألف بين القلوب ليتأملوا الحادثة التالية : كان الشبان يؤلفون ما يسمونه بـ " الحركة تحت الأرض " . و من أهدافهم إرهاب البريطانيين . فكانوا يتربصون

---

(١) هو مستر إدوارد دايسى فى مقال له عن " مستقبل مصر " نشره فى مجلة القرن التاسع عشر ، أغسطس ١٨٧٧ .

(٢) " تاريخ مصر قبل الإحتلال البريطانى و بعده " لتيودور روذستين (روسى المولد) ، ترجمة على أحمد شكرى ، القاهرة سنة ١٩٢٧ ، ص ٤٩٥ و ٥٠٨ و ٥١١ .

فيما بينهم على من منهم يلقى قنبلة على واحد من كبار الإنجليز و هو عائد ظهرا إلى بيته . و مع أنهم نفذوا الخطة بدقة فإن أحدا منهم لم يقع فى أيدى الحكام . و ذات مساء ذهب عامل فقير يحمل طربوشا [1] إلى السيدة الجليلة صفية زغلول بوصفها أم المصريين ، و قال لها : " لقد سقط هذا الطربوش من على رأس الشاب الذى ألقى القنبلة على حكمدار العاصمة اليوم ، فخفت أن يجده إنجليزى فيذهب إلى الطرابيشى و يجرى التحريات التى توصله إلى معرفة من هو هذا الشاب . لذلك جئت بالطربوش إليك صونا لحياة مواطن عزيز . " فسألته السيدة الجليلة : " أتعرف المكافأة التى أعلن الإنجليز إستعدادهم لإعطائها مكافأة لمن يرشدهم إلى ذلك الشاب ؟ " أجابها: " نعم . إنها خمسة آلاف جنيه . " فعادت تسأله : " و ما هو أجرك اليومى ؟ " قال : " عشرة قروش . " فقالت له : " ألم يكن فى هذا المبلغ إغراء لك ؟ " أجابها بشئ من العتاب : " يا سلام يا ستى ! أبيع دم مصرى بخمسة آلاف جنيه !! " .

و هذه القصة ضمن غيرها تبين إلى أى حد ترابط بنو مصر و تعاطفوا معا . و بهذا الترابط و هذا التعاطف نجحوا فى أن تنسحب " الإمبراطورية التى لا تغرب الشمس عن أطرافها " من بلادهم . و ليس ذلك فحسب بل إن نجاحهم ألهب قلوب كل الشعوب المحكومة فثاروا بدورهم و استعادوا كرامتهم .

و قد يبدو هذا الكلام عجيبا لأجيال نشأت فى ظل الحرية ، و لكن هذه الأجيال يجب أن تعرف أن الحكام الأجانب كانوا قساة باطشين لا يحترمون الكرامة الإنسانية إطلاقا .

ثم إن الله ، حين أرسل ابنه الوحيد مولودا من امرأة ، علمنا فى إبنه الوحيد أن الناس جميعا إخوة و أن من حقهم الإستمتاع بحرية مجد أولاد الله . لذلك نضرع إليه أن يوسّع صدورنا و يليّن قلوبنا و ينير أفهامنا ، و أن يتقبل منا هذه الصلاة التى تناقلتها الأمهات عن الجدات و هى (بلغتها العامية كما تسلمتها الأجيال) : " اسبحك و امجدك مع كل الخليقة + و لا توريني شرا و لا هما و لا ضيقة + تبعد

---

(١) الطربوش كان غطاء للرأس أحمر اللون .

عنى الشيطان مالوش عندى طريقة + و حياة الثدى اللى رضعته + و البخور اللى رفعته + و الهيكل اللى تحته + تخلصنى يا سيدى من كل ذنب عملته + كما خلصت يونان من بحر الطوفان فى بطن الحوت تلات ايام + كما خلصت القمص مع الشماس فى رفعة القداس + أمين كيرياليسون . " .

٣٦ - عائلة قبطية

من نعمة الله على مصر المباركة أنه جعل الكثيرين من زوارها أن يكتبوا عنها - فمنهم من كتب عن الحياة العامة ، و منهم من كتب عن الحياة الخاصة . و النوع الثانى ذو جاذبية شيقة إذ يعطينا صورة عن المعيشة اليومية التى كان يعيشها آباؤنا . و من المؤلفات الطريفة كتيّب صغير فى حجمه كبير فى معلوماته و ضعه فرنسى [1] قبيل الإحتلال الإنجليزى بعنوان " عائلة قبطية " ، قال فيه : إن حياة القبط هى تلك التى نسميها " الحياة البطريركية " - فالعائلة ليست الأب و الأم و الأولاد فقط ، إنها الجد و الجدة و أولادهما و أحفادهما . و الكل يعيشون معا فى تآلف عجيب ، و احترام الصغار للكبار تلقائى و عن رضى ؛ و تفهّم الكبار للصغار عن سعة صدر . و الأعمام و الأخوال فى منزلة الأب حتى أن الولد (أو البنت) حين يتحدث إلى عمه أو عنه يقول " بابا فلان " ليعرف السامع أنه لا يتحدث عن أبيه الأصيل . و بالمثل حين يتكلمون عن الخالة أو العمة يشيرون إليها بكلمة " ماما فلانة " . و من هذا التعبير التلقائى ترى مدى ترابطهم معا .

و ليوم الأحد كرامة خاصة : فكل الذين لا يضطرهم عملهم إلى الإنصراف من البيت يتجمعون و يذهبون معا إلى الكنيسة . و بما أنهم يذهبون صائمين (حتى إن لم يكونوا سيتناولون الأسرار المقدسة) فقد كانوا متفقين على الإجتماع بعد القداس الإلهى فى قاعة ملحقة بالكنيسة ليأكلوا معا وليمة الأغابى - أى وليمة المحبة . فكانت كل عائلة مقتدرة (أو كل عدد من العائلات الأقل اقتدارا)

---

(١) المؤلف إسمه جورج لوجرين .

تهئ الوجبة اللازمة لكل الشعب الحاضر فى الكنيسة فى اليوم المحدد لها . فيخرجون من الكنيسة إلى القاعة حيث يتناولون الأكل معا . و بالطبع كانوا يتآنسون و يتسامرون ، و يطلقون على هذه القاعة إسم " قاعة العرسان " - لأن الإجتماع معا كان يهئ الفرصة للشباب ليتعارفوا و يتعاطفوا و ينتهى بهم الأمر إلى الزواج .

كذلك كانوا - فى معظم الأحيان - يخرجون من القاعة إلى الحقول أو الحدائق و يظلون فيها إلى العصر . و لم تكن هذه الفترة للتنزه فقط و لا حتى للمسامرة ، بل كان كبار العائلة يتناقشون مع صغارها فيما سمعوه من الإنجيل و العظة ، و من هذا النقاش ينتقلون إلى تفسير التعاليم و الطقوس الآبائية . و مما يجدر ذكره أن الخدم كانوا معتبرين كأعضاء ضمن العائلة لهم الحق فى الإشتراك فى المناقشات و السؤال عما لم يفهموه [1] .

و لقد أتقن القبط الحسابات و اللغات و برعوا فى الصناعات كالنقش و التجارة و الصياغة ؛ و هم مجتهدون مثابرون ينقلون ما يعدون به . و الطريف أن " فن التطبيب " تقوم به النساء المتقدمات فى السن ! فمتى كان شخص فى حاجة إلى دواء يذهب بعد الأغابى مع " الطبيبة " فى بيتها حيث تصغى إلى شكواه و تعطيه الدواء المناسب . و فى بعض الأحيان يستنجد المريض بالقديسين ؛ و لكل قديس اختصاصه - فمثلا من عضة كلب مسعور يصلي عليه الكاهن صلاة " أبو تربو " ، و من لدغه عقرب يستنجد بالأنبا شنودة رئيس المتوحدين .

و القبط أيضا شديدو الوفاء ، ملتهبون محبة بمصر ، أسخياء لا

---

(١) و هذا ما قاله بالنص :

" L'Egyptien est doux envers les domestiques qui sont des êtres humains qu'on avait adjoint comme parent adventif à la famille ... Il est disposé à la charité et à l'hospitalité; il a un grand amour de la terre. "

و جدير بالذكر أن السيدات و الشابات و الطفلات يذهبن إلى الكنيسة بثياب محتشمة فى لونها و فى أكمامها . كذلك يخلعن فى البيت كل مصاغهن كى لا تكون الفتية عثرة لأختها الفقيرة - فما رأينا نحن نسوة اليوم ؟

ينتظرون سؤال الفقير بل يسارعون إلى نجدته قبل أن يطلبها . و من عاداتهم للترفيه عن أنفسهم دعوة بعضهم البعض إلى العشاء . و بعد الأكل ، تتخلل مسامراتهم أغانٍ ينشدها أصحاب الصوت الرخيم أو العزف على المزمار . و يشتركون مع المغنى أحيانا بالإنشاد معه و أخرى بالتصفيق .

و يمكن تلخيص حياتهم فى أنها حياة الإرتكان على الله و الإستشفاع بالقديسين و الترابط المجتمعى .

و من الصلوات التى كانوا يرددونها و يتناقلونها شفويا ما يأتى : إصطبحت بك يا رب كل الناس ، يا بانى الدنيا من غير أساس ، و حياة الإنجيل و الصليب و الكاس ، إبعد عنى الهم و الغم و الوسواس . جعانة ! تغدينى . عطشانة ! تروينى . إجعل البركة تحت شمالى و يمينى - أمين كيرياليسون .

إصطبحت بك يا رب و ما اصطبحت بحد غيرك ، طعمتنى من جودك و من كرمك و من خيرك ، و حياة هيكلك اللى فتحته ، و صليبك اللى رفعته ، و إنجيلك اللى سطحته ، و بخورك اللى طلقته ، و يمنك اللى رفعته ، خدنى تحته و اغفر لى كل ذنب عملته .

٣٧ - نموذج كهنوتى

إنه لجدير بنا أن نتمعن - و لو من حين إلى حين - عمل الله فى القرى ، و بخاصة لأن ربنا قد ولد فى قرية صغيرة و عاش فى بلدة أقرب إلى القرى منها إلى المدن . و ليس من شك فى أن أرواحنا ستنتعش إذا ما وقفت أمام إنسان بسيط فيما هو للعالم و لكنه على وعى عميق بمسيحيته و بالتالى بمسئوليته نحو الآخرين . فاستنهاضا لعزائمنا ، و إشعالا لقلوبنا لنتتبع أبانا إبراهيم كاهن كنيسة مار مرقس بقرية بنى ساملا بإيبارشية بنى سويف .

و بنى سامط هذه تقع على الضفة الشرقية من النيل تجاه بنى مزار . و لا داعى للقول بأن أبانا إبراهيم وُلد من أبوين متواضعين على غاية من البساطة ، فلم يتعلم إلا فى كتّاب القرية . و لكن قلبه كان ملتهبا بعشق كنيسته و طقوسها و تعاليمها ، تحفظ منها كل ما يستطيعه عن ظهر قلب . فلما شب كان عليه أن يكسب قوته بعرق جبينه ففتح مصبغة .

على أنه لم يعمل بها أكثر من سنتين إذ قد تلامست روحه مع السيد المسيح . فترك المصبغة لإبنه ويصا و أخذ يتجول فى القرى حاملا الصليب - و كان لا يزال علمانيا طبعا . و ذات مرة و هو فى عمله الكرازى مرض إبنه مرضا شديدا أدى به إلى الموت . فأراد جد الشاب أن يخفف من وقع الصدمة و قابل إبنه عند الشاطئ الغربى . و حالما تقابلا أخذ يسأله عن عمله و عما يقوله للناس عن المحبة و الإيمان و الرجاء ، و هل هو فى سلام نفسى و هو يؤدى العمل الذى استهواه . و بعد نقاش قصير سأله : " لو أننى أخبرتك بخبر صعب فهل تظل على سلامك ؟ " أجابه : " و ما هو ؟ " قال له : " إبنك ويصا قد مات " . و لفوره أخذ يبكى بحرقة و يصفق بيديه مناجيا الله : " يبقى أنا فى عملك أدادى و انت تخلع أوتادى !!! " هذا كله حدث و هو فى المعدية . و بينما هم يقتربون من الشاطئ الشرقى إذ به يرى بجوار شجرة وارفة على المياه رب المجد فى بهائه واقفا و إلى جانبه ويصا إبنه فى ثياب بيضاء لامعة و وجهه مشرق بابتسامة هنية . و سأله الرب : " و الآن - قل لى هل تريد أن تأخذ إبنك ؟ " أجابه : " لا يا رب . عندك أحسن . " و امتلأ قلبه عزاء . و لما وصلت المركب إلى الشاطئ وجد النسوة يولولن و يقلن : " مات و لم تره . " قال لفوره : " إسكتوا . شفته . شفته . "

و لشدة محبته لكنيسته رسمه الأسقف بإسمه الأصلى " إبراهيم " على قرية مجاورة . و لكنه كان على وعى بأن قريته أولى به - إلا أنه لم تكن بها كنيسة .

و مرة ذهب فى رحلة إلى القاهرة فقصد إلى التبرك بالكاروز العظيم و ذهب إلى كتدرائيته بالأزبكية ، و وقف أمام أيقونته و قال له بحرارة تلقائية : " يا مار مرقس

إنت كاروز ديارنا و بتترك بلدنا بنى سامط من غير كنيسة ؟ عايزك تعمل لنا كنيسة على إسمك . " . و فى الليلة عينها رأى الكاروز الكبير فى حلم راكبا حصانا أبيض و يحدده مكانا لبناء كنيسة وسط المنازل فى قريته . و لما أخبر الناس بهذا الحلم تحمسوا و جمعوا المال اللازم و بنوا كنيسة بإسم مار مرقس . و عندها نقله الأسقف ليخدم فيها .

و لقد ظل فى تجوله بعد رسامته . و كان الكل يسارعون إليه ليستمعوا إلى تعاليمه البناءة المستقاة من :

١- الكتاب المقدس اللى كان يحفظ الكثير من أجزائه عن ظهر قلب .
٢- الكنيسة بطقوسها التى يعشقها و تعاليمها التى تسلمها القبط جيلا عن جيل .
٣- كلام والدته - فأقرب عبارة على لسانه كانت " أمى قالت لى " . فكان يوصى كل الشباب قائلا : " قبّل يدىّ والدتك كل يوم و اسمع كلامها . فأنا أعرف بالإختبار أنى حين كنت أخالفها أتعب ، و حين أطيعها تسير أمورى بسهولة .
٤- كان يستعين فى أحاديثه بالأمثال الشعبية و الأحداث اليومية لأهل الريف ، فكانت عظاته حلوة على آذان سامعيها .

و فى رحلة أخرى للقاهرة أعطاه تاجر بعض الجنيهات الورق و رجا منه استبدالها بجنيهات ذهبية ، فنفذ له طلبه . و كان هناك نشال يراقبه فتتبعه و ركب معه المركب . و بينما المركب فى عرض النيل صرخ النشال : " إتسرقت . إتسرقت . جنيهاتى الدهب إتسرقت . و لا بد من تفتيش كل من على المركب . " . قال أبونا إبراهيم فى نفسه : " و كمان ح تطلع حرامى ! " و رمى بصرة الجنيهات فى النيل .

و فى اليوم التالى فرح صياد السمك بقرية بنى سامط للسمكة الكبيرة التى وجدها فى شبكته و صمم على أن يعطيها لأبينا إبراهيم إلى حد أنه رمى بها على الأرض فى بيته . فلما فتحت زوجة أبينا السمكة وجدت فى داخلها الصرة المفقودة ، فقال لها أبونا : " ما هم بتوعنا و لازم يرجعوا لنا . " .

و أبرز ما اتصف به أبونا إبراهيم :

١- بساطته المتناهية فى ملبسه و مأكله و فى تعامله مع الناس .
٢- فقره الإختيارى إذ كان يوزع كل ما يأتيه من غير تردد حتى شهد عارفوه بأنه عاش فقيراً و مات فقيراً .

و لقد منحه الله إبنا أنبأه ملاك الرب بولادته . و قد خلفه فى الكهنوت أيضا . و هو يتسم بنفس البساطة و الوداعة و التقوى و الفقر الإختيارى كأبيه .

كذلك منحه الله أن يعيش قرنا من الزمان . و من عجب الله فى قديسه هذا أن الشيخوخة لم تمتد إلا إلى جسده ، أما روحه فقد ازدادت اشتعالا كما ظل ذهنه صاحيا - فانتقل إلى الفردوس سنة ١٩٧١ م [١] .

بركة صلوات أبينا إبراهيم راعى كنيسة مار مرقس ببنى سامط فلتكن معنا ، و ليجعل رب الكنيسة سيرة هذا الخادم الأمين قدوة حية مقروءة من الجميع لمجد إسمه القدوس - أمين .

٣٨ - قوته عظيمة ...

و تناغما مع عودة صرة النقود الذهبية إلى أبينا إبراهيم تقدم للقراء قصة تناقلتها أم عن جدة توضح لنا رسوخ الإيمان فى قلوب آبائنا - و ها هى : عاش فى أواخر العصر المملوكى صائغ قبطى [٢] مدمن الصلاة إلى حد أنه حالما يفتح دكانه كل صباح يركع عند مدخلها و يصلى . ثم يختتم صلاته بقوله جهرا :" قوته عظيمة .

(١) جاءتنى هذه السيرة العطرة من مطرانية بنى سويف .

(٢) من المؤسف أننا لا نعرف إسم هذا الصائغ - و هذه عادة كانت شائعة بين القبط إذ كانوا يكتفون بأن يكتبوا على كل إنتاجاتهم : " عوّض يا رب من له تعب فى ملكوت السموات " . و جدير بالذكر أن الحكيم الفرعونى آنى قد أوصى إبنه وصية مماثلة فيما يتعلق باحترام أمه - راجع كتاب " لماذا نسينا " للمؤلفة ص ٢٩ .

و عظيمة العظيمة . و مدبرة و حكيمة . و إن نزلت البحر تطلع سليمة . " و كان مقابل دكانه ، على الناحية الأخرى من الشارع دكان لصائغ يهودى كلما سمع هذه الصلاة تساءل : " كيف تطلع سليمة بعد أن تنزل البحر ؟! " .

و كان الصائغ القبطى ممن يكرمون رئيس جند السماء ميخائيل و يستشفعون به . و فى أيام تذكاراته كان يطلب من صياد صديق أن يصطاد له عددا وفيرا من صغار السمك و يحمله إلى زوجته ، و هى تقليه بعد أن تكون قد أعدت فطير الملاك . ثم يصطحبان أولادهما و يحملان السمك و الفطير و يوزعانه على الفقراء . و مرت سنوات على هذه الحال .

و حدث أن خاتم السلطان انفك فصه . فأشار عليه وزيره بالصائغ القبطى . و حين أعطاه السلطان الخاتم ليحمله إلى الصائغ قال له : " عليه أن يركبه فى ثلاثة أيام و إلا سأقطع رأسه . " . و أخذ الوزير الخاتم و أوصله مع التهديد إلى الشخص المشار إليه . و كان حديثه بصوت وصل إلى مسامع الصائغ اليهودى . و لما كان الوزير قد وصل قرب المساء فقد وضع الصائغ الخاتم و الفص فى الدرج المخصص لكل هذه الأعمال و أغلق دكانه و مضى إلى بيته .

و وجد الصائغ اليهودى وسيلة لفتح دكان جاره . و فتح الدرج و أخذ منه الفص . ثم خرج و أغلق الدكان و هو يقول لنفسه : " الآن سأعرف كيف تخرج سليمة حتى إن نزلت فى البحر . " . و ذهب إلى النيل و ألقى بالفص فيه .

و كان اليوم التالى هو يوم تذكار رئيس الملائكة ميخائيل . فمر الصائغ القبطى على صديقه الصياد و رجا منه أن يوصل السمك إلى بيته لأن عليه عملا له أهمية خاصة . و لما فتح الدكان لم يجد الفص حيث تركه . و فتش فى مختلف الأركان التى يمكن أن يكون وضعه فيها . و بالطبع لم يجده . فقال لنفسه : " لن أموت غير مرة واحدة ، سواء بسيف السلطان أو بغيره . فلأذهب لأصطحب زوجتى و أولادى لتوزع السمك و الفطير – و اتكالى على الله . " .

و لما عاد إلى البيت وجد أن امرأته أعدت كل شئ . و لكنها قالت له : " إن الصياد لم يحضر لنا السمك الصغير كالمعتاد ، بل أحضر لنا سمكة ضخمة معتذرا عن أنه لم يوفق فى العثور على النوع الصغير . " . ثم استكملت بقولها : " تصور أننى حين فتحت خياشيم السمكة وجدت هنا ! " و أخرجت من جيبها فصا وضعته فى يد زوجها - فإذا به فص الخاتم السلطانى ! و دهش الصائغ كيف وصل هذا الفص إلى داخل هذه السمكة التى صارت من نصيبهم . و لكنه رفع شكره و تمجيده لله . ثم ضاعف المال الذى وزعه فى ذلك اليوم مقدما تسبحة لرئيس جند السماء . و ركب الفص فى الخاتم و حمله إلى السلطان .

و بهت الصائغ اليهودى حين رأى جاره القبطى قد أتى إلى دكانه فى اليوم الرابع . فذهب إليه و سأله : " ماذا فعلت بخاتم السلطان ؟ " أجابه : " لقد أصلحته و أوصلته إليه . " . و بدت الدهشة على وجه اليهودى و فى صوته و هو يقول : " كيف ؟! " و تفرس فيه زميله القبطى و قال : " ما لك مندهش ؟ " و ردّ عليه : " أخبرنى ماذا جرى لأخبرك عن سبب الدهشة التى تملكتنى . " ، فروى له كل ما حدث بالتفصيل . و عندها أخبره اليهودى بما فعل و انتهى إلى القول :" أنت على حق . لأن قوته عظيمة . و عظيمة العظيمة . و مدبرة و حكيمة . و إن نزلت البحر تطلع سليمة . و الآن يا صديقى علمنى عن السيد المسيح لأنى آمنت بإسمه القدوس . " .

و اعتمد الصائغ اليهودى بالصبغة المقدسة و صار يردد كل يوم مع صديقه صلاته المحببة [1] .

٣٩ - نظرة واعية إلى مصر

من الشائعات التى كان يحلو لخصوم مصر ترديدها أنه ليس فى إمكانها أن تكون دولة لأن شعبها خليط من شعوب متباينة . و لكن القومية المصرية ، على

(١) هذه قصة سمعتها من أبى من جدتى ثم روتها لنا هى بدورها . و ليسمح لى القراء بأن أقول أن مثل هذه القصص الشعبية مرآة تعكس لنا الحياة اليومية التى هى من صلب التاريخ الإنسانى .

الرغم من كل ما عانته من دعايات و من بطش واقعى قد واجهت كل هذه التحديات بقوة فلم تدع نفسها تنقهر أبدا . لقد فرضت نفسها حتى على غزاتها ! لأنهم كلهم ، بما فيهم الرومان قد اضطروا لأن يتخذوا المواصفات الفرعونية بإزاء مصر المغلوبة ، و مع ذلك فعصور السيطرة الأجنبية قد سادتها الثورات الدامية . و لم يستطع أى مغير أن يسبر غور هذه القومية إلى أعماقها . و الدليل على ذلك أن كل الآثار التى تخلفت عن هذه العصور قد تخرّبت .

و لئن كانت القومية المصرية قد اتخذت شكل الإنتفاضات الشعبية المتتالية فى أيام البطالسة و الرومان فإنها قد اتخذت شكل الإستشهاد فى أيام الرومان و البيزنطيين . **لأن المقاومة فى الحالة الأولى كانت تهدف إلى وقاية الوعى القومى ، أما فى الحالة الثانية فقد كان الهدف مزدوجا هو وقاية القومية الوطنية و وقاية العقيدة الأرثوذكسية معا .** لأنه حتى فى العصور السابقة على الإنقسام الكنسى وصف رجال الكنيستين القسطنطينية و الرومانية المصريين بأنهم فى دفاعهم عن الأرثوذكسية إنما يدافعون عن قوميتهم المصرية !

و يزيد هذا الواقع النهل المنصفون من الكتاب المصريين إذ يقول أحدهم : " **لقد كان الرهبان المصريون على درجة عظيمة من البسالة لأنهم كانوا كلهم مصريين صميمين لم يختلطوا بالأجانب ...** إن الرهبان لكونهم المدافعين الملتهبين عن كنيستهم الوطنية ظلوا مدى قرون عديدة خطرا كبيرا يهدد الإمبراطورية [1] .

ثم زالت دول . و تداعت عروش . و انتقلت مصر من العالم القديم إلى عالم القرون الوسطى . و خلال هذه القرون توالى على مصر الحكام المختلفون . فماذا

---

(١) ماسبيرو : " مقال عن دراسة بردية أفروديتى " نشره فى مجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية سنة ١٩٠٨ م . ص ١٥ ، دوشن : " تاريخ الكنيسة " المجلد الثانى ص ٥١١ . " لماذا نسينا " للمؤلفة نشرته مكتبة المحبة ، ص ٤٣ - ٥١ .

حدث ؟ لقد صمم المصريون على قوميتهم العارمة فقاموا بانتفاضات ثورية بلا توقف . و أحيانا كانت هذه الانتفاضات تبرز فى الأزجال و المواويل التى كان لدى كاتبيها من البسالة ما جعلتهم يقدمونها للحاكم فى يده دون تردد . و خلال هذه الانتفاضات كان المغير الغالب يتخوف من مصر المقلوبة و يحسب لها ألف حساب ! و ما كل الحاميات التى أقاموها من الإسكندرية إلى أسوان إلا شاهد على هذا التخوف . و من أبرز المواقف القومية أن الشعب المصرى هو الذى دافع عن مصره أمام الحملة الفرنسية : فالمماليك هربوا إلى الصعيد بينما انزوى الترك فى معاقلهم . و وقف بنو مصر يصدون عنها المغير مع أنه لا سلاح لهم غير نبابيتهم و فؤوسهم !

ثم جاء الإنجليز بدورهم . فزحم أسطولهم ميناء الإسكندرية . و ظلت المدافع العتيقة التى فى يد المصريين تصب نيرانها إلى أن فرغت . فلما انتقل عرابى إلى منطقة القناة إقترف الإنجليز خيانة مزدوجة : الأولى أنهم اخترقوا حرمة القناة التى حفرت على شرط أن تكون ممرا دوليا لا يجوز استعماله عسكريا ؛ و الثانية أنهم قدموا رشوة لشيخ قبيلة الطحاوية ليدلهم على مقر قيادة عرابى . ثم اكتشف المرتشون الخائنون أن جنيهات الإنجليز قصدير مغطى بقشرة ذهبية !

و احتل الإنجليز مصر بهذه الخيانة المزدوجة . و زعموا فى عنجهيتهم أنهم سيحكمونها إلى ما لا نهاية ! و إذ بمصطفى كامل يستثير الرأى العالمى العام ضد المزاعم الإنجليزية بأنهم حماة العدالة . و مع أن انتفاضته كانت قصيرة الأمد لموته المبكر إلا أن الهزة التى أحدثتها ظل صداها يتردد إلى أن تفجّر فى ثورة سعد زغلول سنة ١٩١٩ . و ظل المصريون هناك سبب فزع للبريطانيين حتى اضطروهم إلى الإجلاء نهائيا عن مصر سنة ١٩٥٢ . فهم احتلوا مصر سنة ١٨٨٢ و حين ألزمهم المصريون بالإنسحاب لم يكن قد مر على هذا الإحتلال الغاشم غير سبعين سنة . و هذه أقصر مدة لاحتلال البريطانيين لأى بلد .

و الذى يجب أن تعتز به أن المصريين فى كل هذه الانتفاضات وقفوا جميعا صفا متراصّ البنيان لم يجد العدو فيه ثقب إبرة ينفذ منه [1] .

و لقد عبر أمير الشعراء أحمد شوقى عن هذه الألفة فى الأبيات التالية :

أعهدتنا و القبطَ إلا أمةً	للأرض واحدة تروم مراما
الدين للديان جل جلاله	لو شاء ربك وحّد الأقواما
هذى ربوعكم و تلك ربوعنا	متقابلين نعالج الأياما
هذى قبوركم و تلك قبورنا	متجاورين جماما و عظاما
فبحرمة الموتى و واجب حقهم	عيشوا كما يقضى الجوار كراما

أما قداسة البابا شنودة الثالث (أطال الله عمره) فقد لخص هذا الوعى بالقومية فى جملة قصيرة - قال :

أن مصر ليست وطنا نعيش فيه بل هى وطن يعيش فينا



---

(١) حسين مؤنس : " دراسات فى ثورة ١٩١٩ " ، رقم ٤٩٨ من سلسلة إقرأ ، دار المعارف سنة ١٩٧٦ ، صبحى وحيدة : " فى أصول المسألة المصرية " ، طارق البشرى : " المسلمون و الأقباط " ، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة سنة ١٩٨٠ ، على أحمد شكرى : " مصر قبل الإحتلال الإنجليزى و بعده " (ترجمة) ، فتحى رضوان : " مصطفى كامل ، سلسلة إقرأ ، دار المعارف القاهرة سنة ١٩٧٤ ، محمد أنيس : دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ ، الطبعة الأولى ، مصر سنة ١٩٦٣ ، ص ٥ من هذا الكتاب و قصة حبيب المصرى للمؤلفة .

المراجع

١ - صبحى وحيدة : فى أصول المسألة المصرية

٢ - على أحمد شكرى : مصر قبل الإحتلال الإنجليزى و بعده [مترجم عن الألمانية]

٣- فتحى رضوان : مصطفى كامل ، سلسلة إقرأ - دار المعارف القاهرة سنة ١٩٧٤

٤ - حسين مؤنس : " دراسات فى ثورة ١٩١٩ " ، سلسلة إقرأ ، دار المعارف سنة ١٩٧٦

٥ - طارق البشرى : " المسلمون و الأقباط " ، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة سنة ١٩٨٠

٦ - قصة الكنيسة القبطية ، الأجزاء السبع الأولى - للمؤلفة

٧ - المرأة المصرية فى مواجهة المسيح - للمؤلفة

٨ - لماذا نسينا - للمؤلفة

٩ - وقائع أعجب من الخيال - للمؤلفة

١٠ - أولئك أجدادى + فن الأيقونة - للمؤلفة

11- Adenay-Walter: The Greek & Eastern Churches, Edinburgh 1908

12- Allchin (ed.): Sacrament & Image

13- Amélineau: Les Coptes et la Conversion des Ibériens, Brit. Lib. ZAA, Revue de L'Histoire des Religions, Paris 1914 (T 69)

14- Antonius: The Arab Awakening

15- Anwar - Abdel-Malek: Idéologie et Renaissance Nationale, L'Egypte Moderne, editions Anthropos, Paris 1969

16- Beaugé- Ch.: A Travers la Haute Egypte, Alençons 1923

17- Berque-J.: L'Egypte Entre l'Impérialisme et la Revolution

18- Bouvier-Louis: Le Trône de la Sagesse, Londres 1960

19- Bréhier-L.: L'Art Chrétien, Paris 1918

20- Butler- A.J.: The Arab Conquest

21- Curzon-R.: A Visit to the Monasteries of the Levant, London 1881

22- Dicey-Ed.: The Future of Egypt, pub. in the "Nineteenth Century Magazine", London, Aug. 1877

23- Dieter-Ahrens: Geometric Patterns of 'Athanasian' Origin on Early Coptic Textiles, a recent acquisition of "The Trier Museum", pub. in Le Bull. de la Soc. d'Arch. Copte, Cairo 1983

24- Donald-Attwater: The Oriental Christian Churches

25- Echenstein-Lina: The Women of Early Christianity, Faith Press, London 1935

26- Fowler-Montague: Christian Egypt, London Church Newspaper Co. Ltd., 1901

27- Gerspach-E.: Les Tapisseries Coptes, Paris 1891

28- Holt-P.M.: Egypt & the Fertile Crescent, 1516 - 1922, Cornell Univ. Press 1966

29- Hourani-Albert Habib: Minorities in the Arab World, Oxf. Univ. Press, London 1947

30- Jabra Jurji (ed.): The Middle East

31- Lane-Ed.W.: Life & Manners of Modern Egyptians, Glasgow 1834

32- Lefèpbre-Gustave (trans.): Collection of Greek Writings

33- Legrain-George: Une Famille Copte, Paris 1873

34- Lewis-Bernard: Egypt, Land of Enchanters, Brit. Lib. 1245 bb 21

35- Low-Sidney: Egypt in Transition, Smith Elder & Co., london 1914

36- Malan-Alexis: A Study of the Coptic Liturgies, London 1872

37- Maspéro-Jean: Etude de Papyrus Aphroditi, pub dans Le Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, Le Care 1908

38- Nicol-J.C. (trans. from Greek): Synesius of Cyrene

39- The Life & Miraculous Conversion of Mary of Egypt, Brit. Lib. 4807 aaa 26

40- Fragment d'un Traité de Medecine Copte, Brit. Lib. OAA (trad.) Ed. Dulaurier

41- Petrie-Flinders: Collection of Papyrii from Fayoum, Studied by Crum

42- Rosenthal (Rev.) G.D.: The Use of Incense, Oxford 1921

43- Roux-Ch.: L'Egypte de l'Occupation Anglaise à l'Indépendence Egyptienne (Histoire de la Nation Egyptienne), T. VIII

44- Rustavielle (R. de): The Luminous Side of Egypt

45- Simpson-David: Origen on the Divinity of Christ, London 1812

46- Somers-Clarke: Christian Antiquities in the Valley of the Nile, Oxford Univ. Press (England), 1912

47- Steevens: Notes of Travel in Egypt & Nubia, London 1876

48- Tattam-Henry: (translation from Coptic):

a. The Apostolic Constitutions;

b. The Egyptian Ordinances, on the Ordination of the Deaconess, Bedford 1848

49- Vissel-Claus: Coptic Art, trans. from German by Jean Carroll & Sheila Hutton, N.Y. 1965

50- Waddell-Helen: The Desert Fathers, London 1936

51- Warburton-Elliot: The Crescent & the Cross, London 1845

52- Young-Hubert: The Independent Arab, London 1930
53- Young-Susette Harriet (Mrs. Smith): The Female Disciples in the First Three Centuries of Christianity, Longman, England 1845
54- The Asceticks, or the Heroic Devotion & Virtue among the Early Monks, Anonymous, London 1916
55- Guettée-Paul: Histoire de l'Eglise, Paris 1806
56- Héfélé (mgr.): Histoire des Conciles, Paris 1869
57- Père Chéneau d'Orléans: Les Saints d'Egypte, Jerusalem 1923
58-Rochie-Ed.: Christian Egypt, Church & People
59- Swiss Air Gazette, no. 12, 1985
60- Wilcocks-William: Evolution & Virgin Birth, Cairo 1929
61- The Spiritual Motherhood of the Blessed Virgin According to Some Modern Writers, pub. by The American Catholic University
62- Arabic (Coptic) mss, Brit. Lib. no. 754 a (4) & 754 b (9)
63- Vaugeanier (de): Description de l'Egypte - Mission de l'Expédition Française
64- Bouriant-Urban (trad.): Papyrii d'Ikhmim - Mission de l'Expédition Française
٦٥- محمد أنيس : دراسات في وثائق ثورة ١٩١٩ ، الطبعة الأولى ، مصر سنة ١٩٦٣
٦٦- أنبا ساويرس أسقف الأشمونيين : نقض لسعيد ابن بطريق ترجمة الأب شبلي المارونى
٦٧- القمص لوقا سيداروس : القمص بيشوى كامل رجل الله
٦٨- باهور لبيب : الفن القبطى ، القاهرة ١٩٧٨
٦٩- محاضر الحوار الثانى عشر المنعقد بوسيليا فى يناير ١٩٨٢

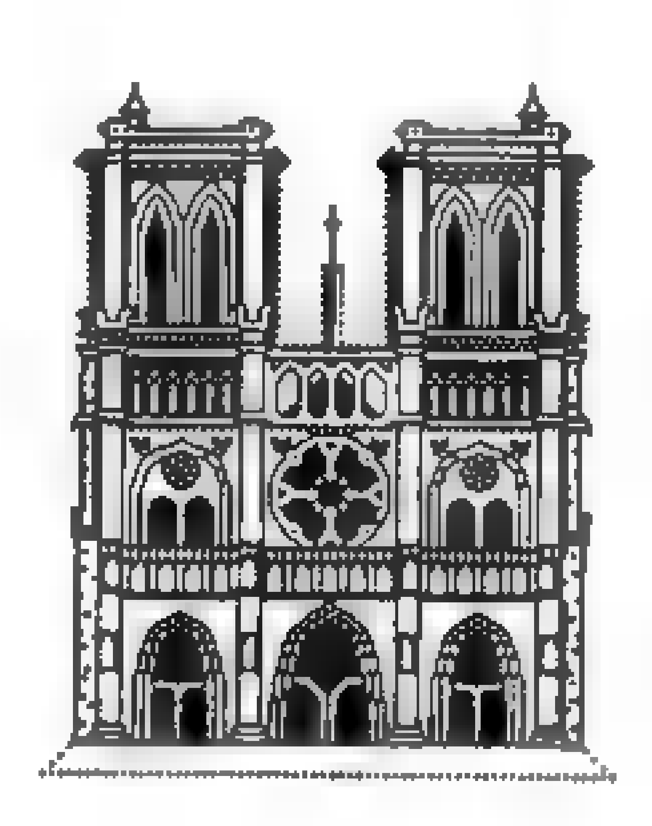
٧- مجلة " المصرية " عددا ٣٧ و ٥٧

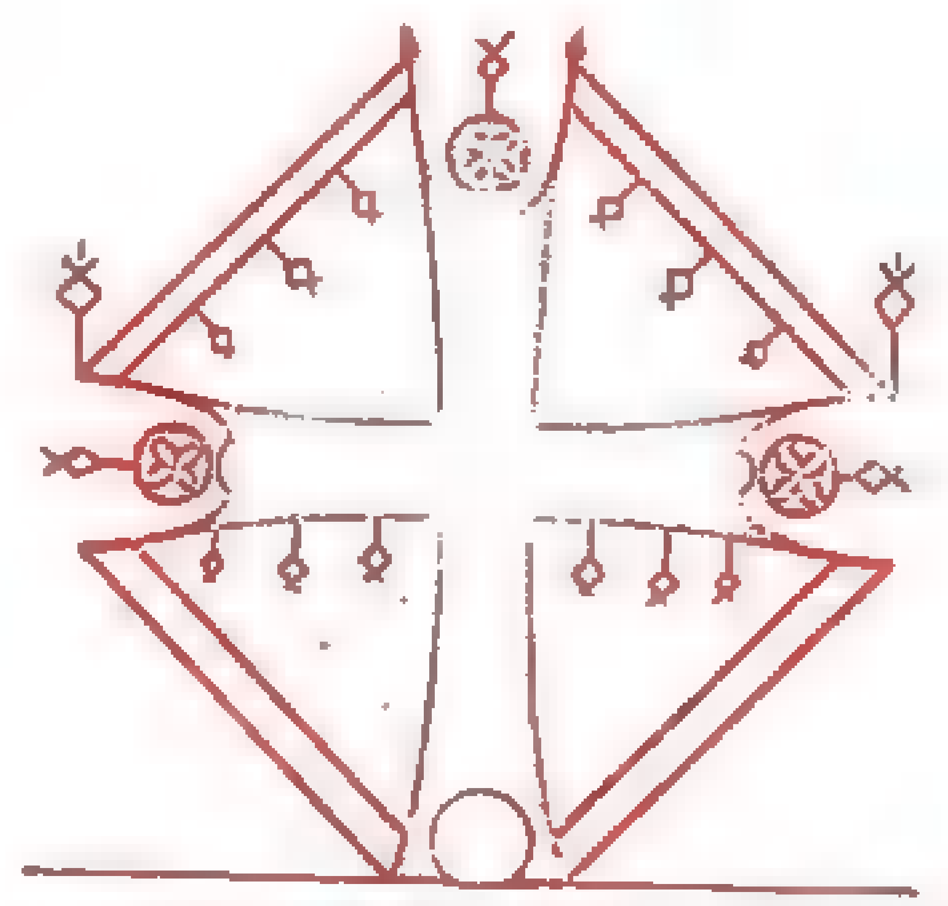
+ Dict. d'Archéologie et des Liturgies Chrétiennes, T. IV, VIII et XV

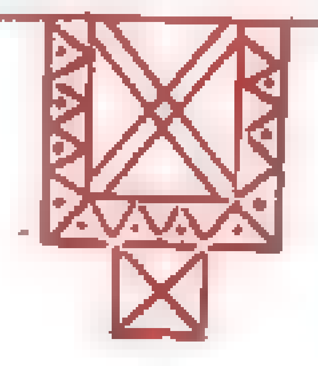
+ Dict. de la Théologie Catholique T. I

+ Pat. Orientalia T. I et T. III

الكتاب المقدس بعهديه القديم و الجديد







Коптскія развалины на восточномъ склонѣ холма «Куббетъ-Эль-Хауа» противъ Ассуана.
Крестъ, нарисованный красною краской.

Ruines coptes sur la pente est du monticule «Qoubbet el-Haoua» en face d'Assouan.
Croix copte tracée en rouge.

صليب باللون الأحمر منحوت نحتا بارزا على منحدر " قبة الهوا " فى مواجهة
أسوان وسط أطلال دير باخومى – كشف عنه المصرولوچى الروسى
ڤلاديمير دى بوكك

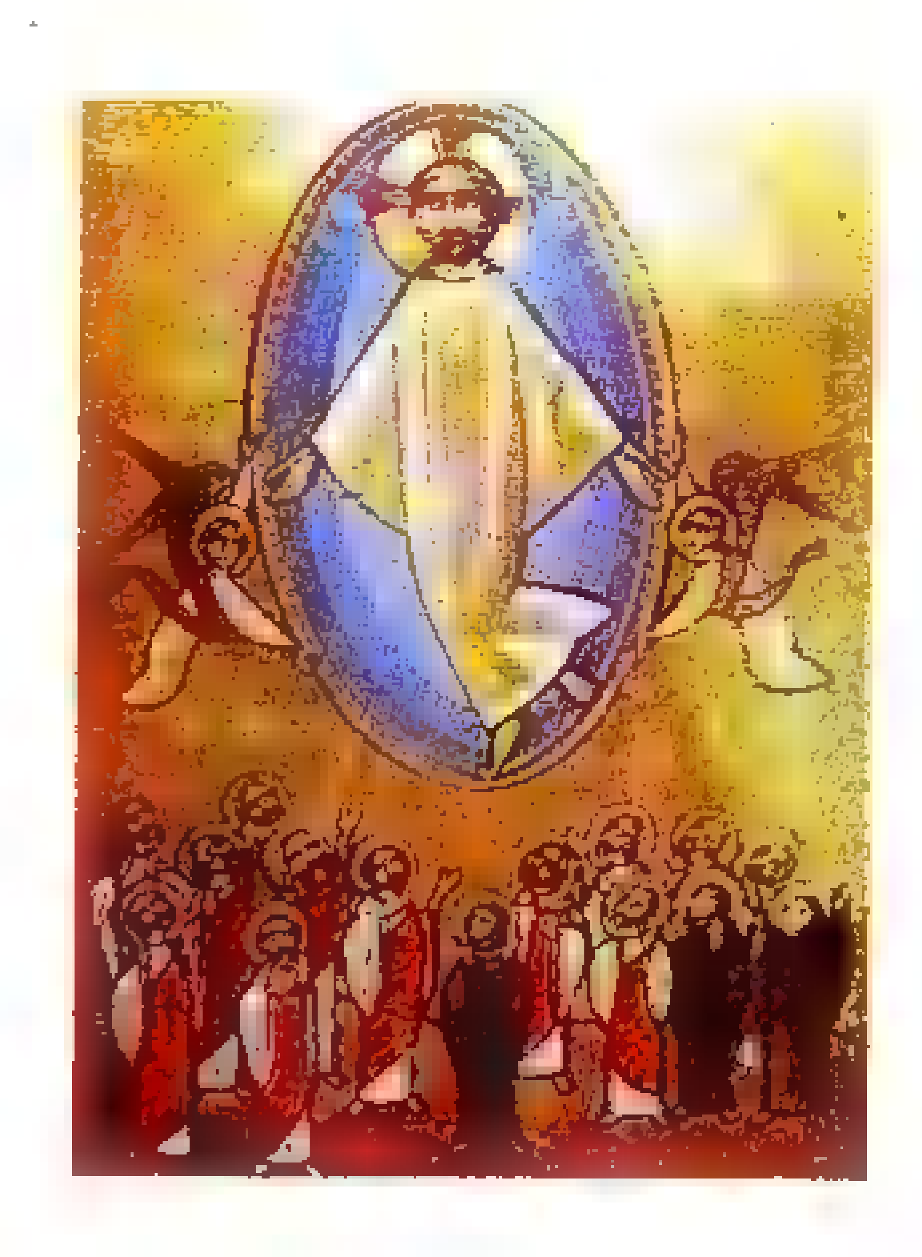




أسقفية البحث العلمى - أيقونة القديس كيرلس عمود الدين
بريشة الفنانة بدور لطيف و الفنان يوسف نصيف



قرون غضی



الصعود

و العنصرة

و الفن واحد



القبلة



صحوة الفن القبطى



صحوة الفن القبطى



علامة على استمرار القيامة



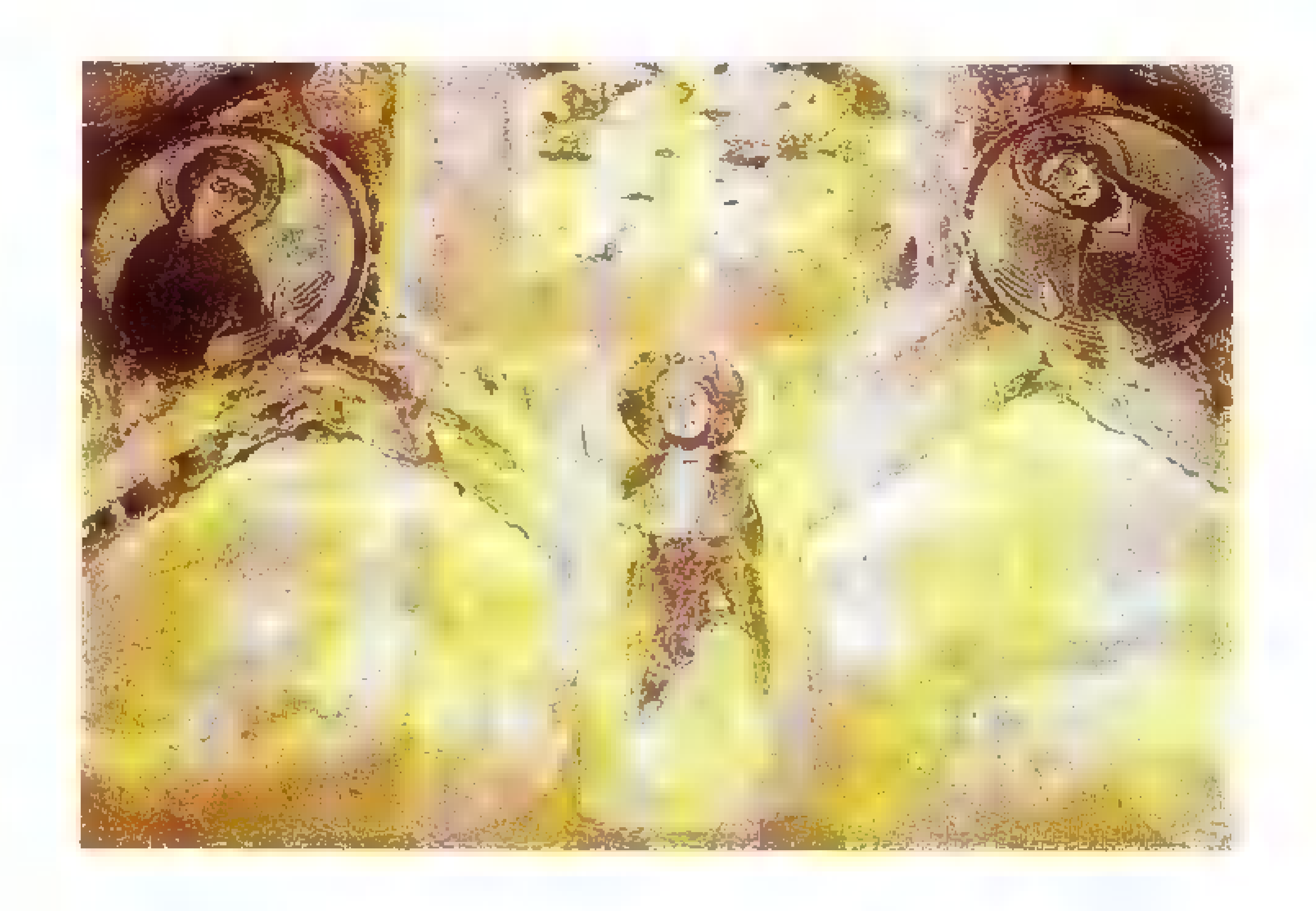
القيامة المجيدة
للفنانة بدور لطيف و الفنان يوسف نصيف



أسقفية البحث العلمي - أيقونة السيد المسيح على العرش
بريشة الفنانة بدور لطيف و الفنان يوسف نصيف



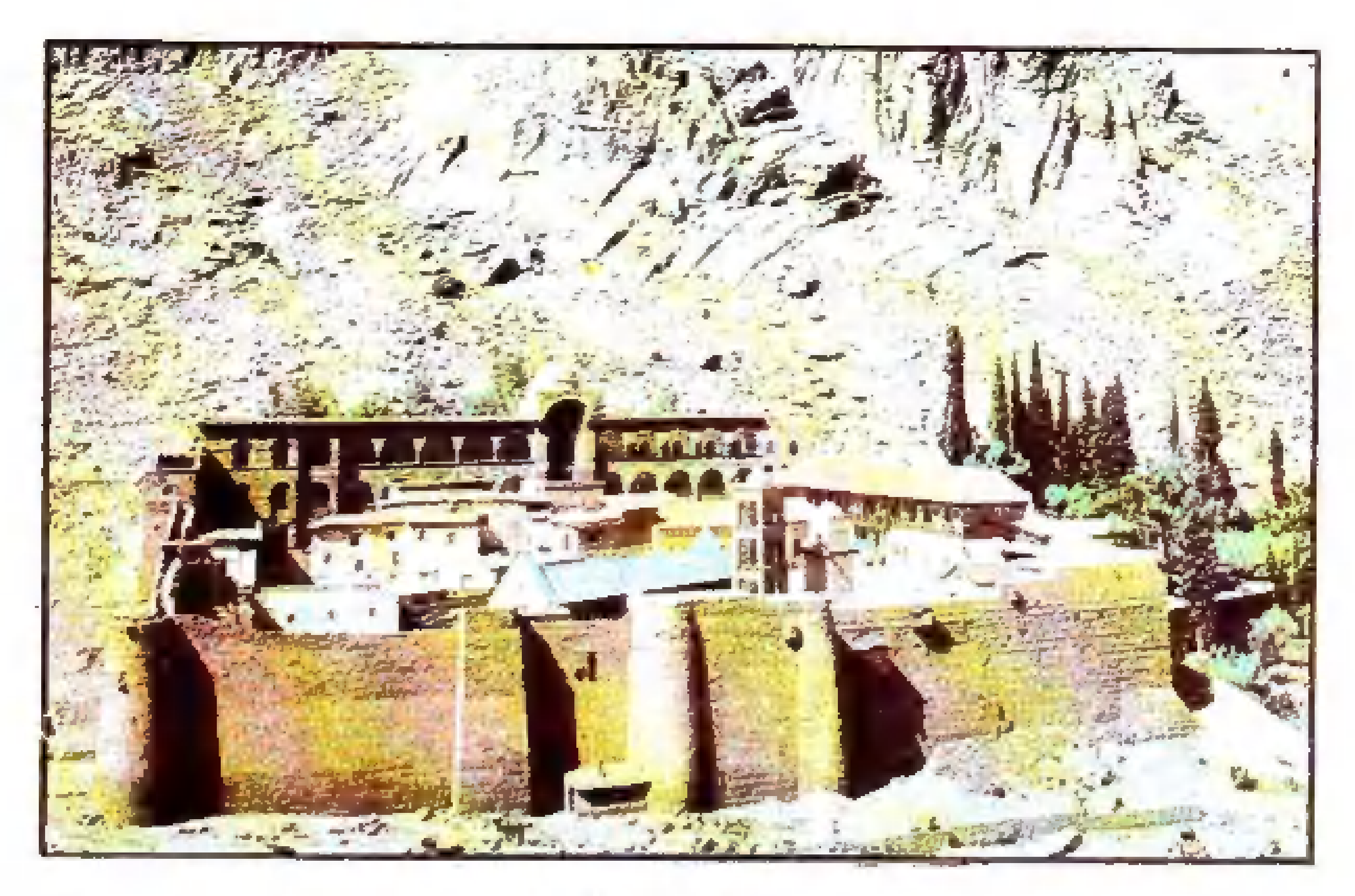
العشاء الرباني
بريشة الفنان إيزاك فانوس



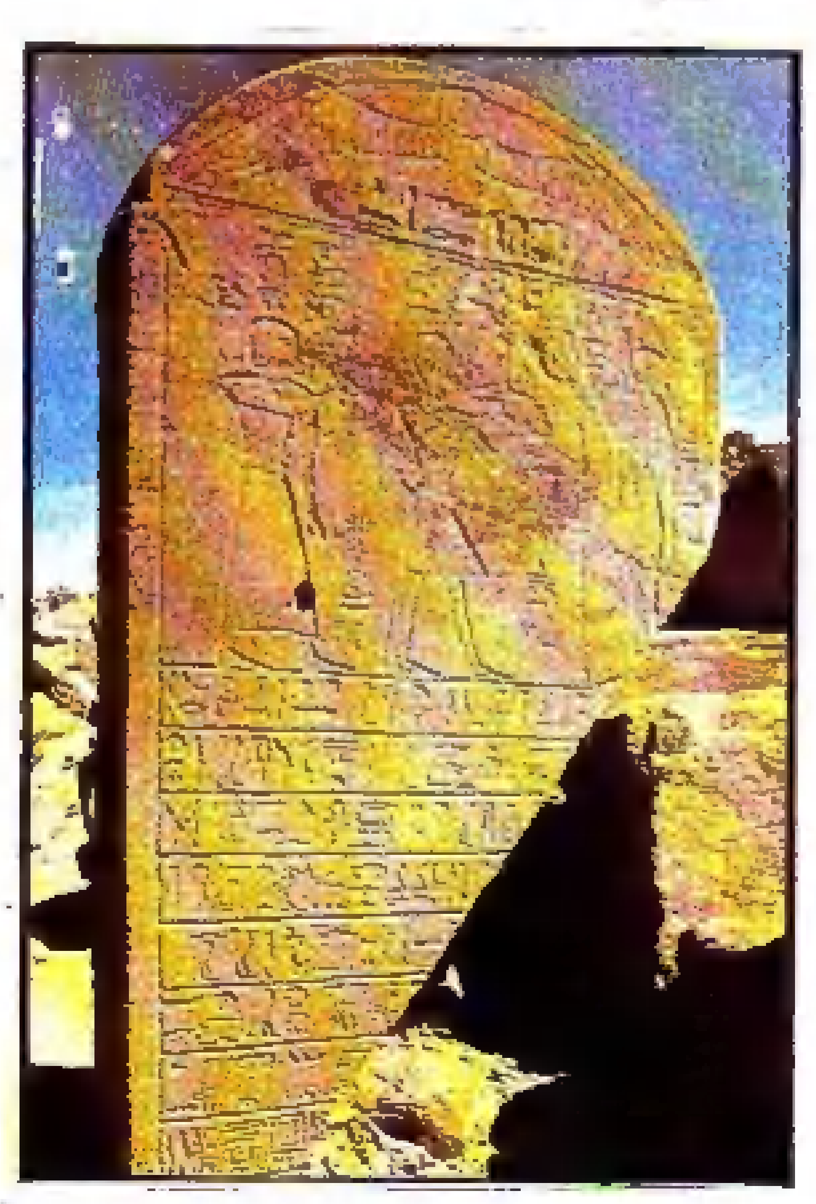
أيقونة بدير الأنبا مكارى الكبير - يقف السيد المسيح فى وسطها
و عن يمينه الأعلى السيدة العذراء ، و عن يساره الأعلى مار مرقس ناظر الإلهيات



رئيس جند السمائيين
الملاك ميخائيل



دير القديسة كاترين



نصب تذكارى

" تلك آثارنا تدل علينا
فانظروا بعدنا إلى الآثار "

إن معبد سراية الخادم عند سفح جبل يقع شمال مدينة الطور؛ و هو يرجع إلى الأسرة الثانية عشرة . و إحدى مغارات الجبل كانت مكرّسة لها، ثور الإلهة الحارسة لسيناء .

فهل نحتاج إلى دليل أقوى لإثبات تبعية سيناء لمصر منذ عهودها الفرعونية ؟



المؤلفة

تلقى محاضرة فى تاريخ الكنيسة القبطية

بالمعهد العالى للدراسات القبطية بالأنبا رويس

صباح الجمعة الموافق ١٨ مارس ١٩٨٨

و خلفها بعض طلبة السنة الثالثة (أى طلبة الدبلوم)



مكتبة المحبة
٣٠ شارع شبرا - القاهرة - ت وفاكس : ٥٧٥٩٢٤٤(٢٠٢) - ٥٧٧٧٤٤٨(٢٠٢)
تليفون : ٥٧٥٨٢٦٢(٢٠٢) - ٥٧٨٢٩٣٢(٢٠٢)